بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الأول


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
(الأنفال ٨ / ٢٤)

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الجزء الأول

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٩٢٧
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان - بيروت - سانية الجامع ، خلف الكارلتون ، س . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

بسم الله الرّحمن الرّحيم

تقديم

الحمد لله منزّل الكتاب على قلب محمد النّبي الأمين ، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين ، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين . وبعد :

فإنه لم يحظَ كتاب في الوجود بعناية مثلما حظي به القرآن الكريم ، الذي كتبت حوله مئات الكتب ، وسيظل مورد العلماء ، وهذا بالتالي كتاب اصطفيتُ فيه من العلوم والمعارف والثقافات المستقاة من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب ، ماهو لصيق الصلة بحاجات العصر ، ومتطلبات التثقيف ، بأسلوب جلي مبسّط ، وتحليل علمي شامل ، وتركيز على الغايات والأهداف المنشودة من تنزيل القرآن المجيد ، ومنهج بعيد عن الإطالة المملّة ، والإيجاز المخلّ الذي لا يكاد يفهم منه شيء لدى جيل بعدوا عن اللسان العربي في طلاوة بيانه ، وأعماق تراكيبه ، وإدراك فحواه ، وكأنهم أصبحوا ـ بالرغم من الدّراسات الجامعية المتخصصة ـ في غربة عن المصادر الأصيلة ، والثروة العلمية العريقة في شتى العلوم من تاريخ وأدب وفلسفة وتفسير وفقه وغيرها من العلوم الإسلامية الكثيرة الخصبة .

فكان لابدّ من تقريب ماصار بعيداً ، وإيناس ماأصبح غريباً ، وتزويد المسلم بزاد من الثقافة بعيدة عن الدّخيل كالإسرائيليات في التفسير ، ومتفاعلة مع الحياة المعاصرة ، ومتجاوبة مع القناعة الذاتية ، والأصول العقلية ، والمرتكزات الفكرية السليمة ، وهذا يقتضينا تمحيص المنقول في تفاسيرنا ، حتى إن منها

ـ تأثراً بروايات إسرائيلية ـ أحدث شرخاً غير مقصود في عصمة بعض الأنبياء ، واصطدم مع بعض النظريات العلمية التي أصبحت يقينية الثبوت بعد غزو الفضاء ، واتساع ميادين الكشوف العلمية الحديثة ، علماً بأن دعوة القرآن تركزت على إعمال العقل والفكر وشحذ الذهن وتسخير المواهب في سبيل الخير ، ومحاربة الجهل والتخلف .

وهدفي الأصيل من هذا المؤلَّف هو ربط المسلم بكتاب الله عزّ وجلّ ربطاً علمياً وثيقاً ؛ لأن القرآن الكريم هو دستور الحياة البشرية العامة والخاصة ، للناس قاطبة ، وللمسلمين خاصة ، لذا لم أقتصر على بيان الأحكام الفقهية للمسائل بالمعنى الضيق المعروف عند الفقهاء ، وإنما أردت إيضاح الأحكام المستنبطة من آي القرآن الكريم بالمعنى الأعم الذي هو أعمق إدراكاً من مجرد الفهم العام ، والذي يشمل العقيدة والأخلاق ، والمنهج والسلوك ، والدستور العام ، والفوائد المجنية من الآية القرآنية تصريحاً أو تلميحاً أو إشارةً ، سواء في البنية الاجتماعية لكل مجتمع متقدم متطور ، أم في الحياة الشخصية لكل إنسان ، في صحته وعمله وعلمه وتطلُّعاته وآماله وآلامه ودنياه وآخرته ، تجاوباً في المصداقية والاعتقاد مع قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا استجيبوا للهِ وللرَّسولِ إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحولُ بينَ المرء وقلبهِ وأنّهُ إليه تحشرونَ ﴾ [الأنفال ٨/٢٤] .

ـ إنه الحق سبحانه وتعالى ورسول الحق في هذه الآية اللذان يدعوان كل إنسان في هذا الوجود إلى الحياة الحرة الكريمة الشريفة بكل صورها ومعانيها .

ـ إنه الإسلام الذي يدعو إلى عقيدة أو فكرة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، وتحرر الإنسان من العبودية لغير الله ، ومن الخضوع للأهواء والشهوات ، ومن طغيان المادية القاتلة للشعور الإنساني السامي .

ـ إنه القرآن الذي يدعو إلى شريعة العدل والحق والرحمة العامة بالإنسانية ، ويدعو إلى منهج سليم للحياة والفكر والتصور والسلوك ، وإلى نظرة شاملة للوجود توضح علاقة الإنسان بالله تعالى وبالكون والحياة .

وهي دعوة قائمة على العلم والمعرفة الصحيحة والتجربة ، والعقل والفكر الناضج الذي لا يفتر من كدّ الذهن وتشغيل المدارك ، والنظر في هذا الكون سمائه وأرضه ، برّاً وبحراً وجوّاً ، وهي دعوة أيضاً إلى القوة والعزة والكرامة والثقة والاعتزاز بشريعة الله ، والاستقلال ، مع الاستفادة من علوم ومعارف الآخرين ؛ لأن العلم ليس حكراً على شعب دون شعب ، وإنما هو عطاء إنساني عام ، كما أن تحرير الإنسان وتحقيق إنسانيته العليا هدف إلهي عام ، يعلو على مصالح الطغاة والمستبدين الذين يحاولون مصادرة إنسانية الإنسان من أجل الإبقاء على مصالحهم الخاصة ، واستعلائهم على غيرهم ، وتسلطهم على بني البشر .

ولن يتأثر الاعتقاد بأصالة دعوة القرآن الخيّرة هذه إلى الناس كافة ، بما يُوضع أمامها من عراقيل ، أو يُبث حول جدارتها من شكوك أمام النهضة الحضارية المادية الجبارة ؛ لأن هذه الدعوة ليست روحانية مجردة ، ولا فلسفة خيالية أو نظرية بحتة ، وإنما هي دعوة واقعية مزدوجة تضم بين جناحيها الدعوة إلى عمارة الكون ، وبناء الدنيا والآخرة معاً ، وتعاضد الروح والمادة معاً ، وتفاعل الإنسان مع كل مصادر الثروة في هذا الكون ، الذي سخّره الله تعالى للإنسان وحده استعمالاً وانتفاعاً ، واستنباطاً واختراعاً ، وإفادةً واستكشافاً مستمراً ، كما قال الله تعالى : ﴿ هو الَّذي خَلَقَ لكم ما في الأرض جميعاً ، ثمّ استوى إلى السَّماء ، فسوَّاهنّ سَبْعَ سمواتٍ ، وهو بكلّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [البقرة ٢٩/٢] .

والمهم من التفسير والبيان مساعدة المسلم على تدبُّر القرآن الكريم المأمور به في قوله تعالى : ﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبّروا آياتهِ ، وليتَذكَّرَ أولوا الألبابِ ﴾ [ص ٢٩/٣٨] .

وإذا كان هدفي هو وضع تفسير للقرآن الكريم يربط المسلم وغير المسلم بكتاب الله تعالى ـ البيان الإلهي ووحيه الوحيد حالياً ، الثابت كونه كلام الله ثبوتاً قطعياً بلانظير له ولاشبيه ـ فإنه سيكون تفسيراً يجمع بين المأثور والمعقول ، مستمداً من أوثق التفاسير القديمة والحديثة ، ومن الكتابات حول القرآن الكريم تأريخاً ، وبيان أسباب النزول ، وإعراباً يساعد في توضيح كثير من الآيات ، ولست بحاجة كثيرة إلى الاستشهاد بأقوال المفسرين ، وإنما سأذكر أولى الأقوال بالصواب بحسب قرب اللفظ من طبيعة لغة العرب وسياق الآية .

ولست في كل ماأكتب متأثراً بأي نزعة معينة ، أو مذهب محدد ، أو إرث اعتقادي سابق لاتجاه قديم ، وإنما رائدي هو الحق الذي يهدي إليه القرآن الكريم ، على وفق طبيعة اللغة العربية ، والمصطلحات الشرعية ، مع توضيح آراء العلماء والمفسرين ، بأمانة ودقة وبُعْد عن التعصب .

ولكن ينبغي البعد عن استخدام آيات القرآن لتأييد بعض الآراء المذهبية أو اتجاهات الفرق الإسلامية ، أو التعسُّف في التأويل لتأييد نظرية علمية قديمة أو حديثة ؛ لأن القرآن الكريم أرفع بياناً ، وأرقى مستوى ، وأعلى شأناً من تلك الآراء والمذاهب والفِرَق ، وليس هو كتاب علوم أو معارف كونية كالفلك وعلم الفضاء والطب والرياضيات ونحوها ، وإن وجدت فيه بعض الإشارات إلى نظرية ما ، وإنما هو كتاب هداية إلهية ، وتشريع ديني ، ونور يهدي لعقيدة الحق ، وأصلح مناهج الحياة ، وأصول الأخلاق والقيم الإنسانية العليا ، كما قال الله تعالى : ﴿ قد جاءكم مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ☆ يهدي بهِ الله مَنِ اتَّبعَ رضوانَه سُبُلَ السَّلامِ ، ويُخرجُهم من الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذنِه ، ويَهْديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [المائدة ٥/١٥ ـ ١٦] .

وينحصر منهجي أو خطة بحثي فيما يأتي :

١ ـ قسمة الآيات القرآنية إلى وحدات موضوعية بعناوين موضحة .

٢ ـ بيان ما اشتملت عليه كل سورة إجمالاً .

٣ ـ توضيح اللغويات .

٤ ـ إيراد أسباب نزول الآيات في أصح ما ورد فيها ، ونبذ الضعيف منها ، وتسليط الأضواء على قصص الأنبياء وأحداث الإسلام الكبرى كمعركة بدر وأُحد من أوثق كتب السِّيرة .

٥ ـ التفسير والبيان .

٦ ـ الأحكام المستنبطة من الآيات .

٧ ـ البلاغة وإعراب كثير من الآيات ، ليكون ذلك عوناً على توضيح المعاني لمن شاء ، وبعداً عن المصطلحات التي تعوق فهم التفسير لمن لا يريد العناية بها .

وسأحرص بقدر الإمكان على التفسير الموضوعي : وهو إيراد تفسير مختلف الآيات القرآنية الواردة في موضوع واحد كالجهاد والحدود والإرث وأحكام الزواج والرِّبا والخمر ، وسأبيِّن عند أول مناسبة كل ما يتعلّق بالقصة القرآنية مثل قصص الأنبياء من آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم ، وقصة فرعون مع موسى عليه السلام ، وقصة القرآن بين الكتب السماوية . ثم أحيل إلى موطن البحث الشامل عند تكرار القصة بأسلوب وهدف آخر . غير أني لن أذكر رواية مأثورة في توضيح القصة إلا بما يتفق مع أحكام الدين ، ويتقبلها العلم ، ويرتضيها العقل ، وأيدت الآيات بالأحاديث الصحيحة المخرجة إلا ما ندر .

ويلاحظ أن أغلب الأحاديث المروية في فضائل سور القرآن موضوعة مكذوبة ، وضعها الزّنادقة أو أصحاب الأهواء والمطامع ، أو السؤّال الواقفون في الأسواق والمساجد ، أو واضعو الحديث حسبة كما زعموا[١] .

وفي تقديري أن هذه الخطة تحقق بمشيئة الله نفعاً كبيراً ، وسيكون هذا التأليف سهل الفهم ، سريع المأخذ ، محل الثقة والاطمئنان ، يرجع إليه كل باحث ومطّلع ، في وقت كثر فيه القول والدّعوة إلى الإسلام في المساجد وغيرها ، ولكن مع مجافاة الصواب ، أو الخلط ، أو مجانبة الدقة العلمية ، سواء في التفسير أو الحديث أو الإفتاء وبيان الأحكام الشرعية ، وعندها يظلّ الكتاب هو المرجع الأمين وموضع الثقة للعالم والمتعلم ، منعاً من إضلال الناس والإفتاء بغير علم ، وحينئذٍ يتحقق بحق غرض النّبي ﷺ من تبليغ القرآن في قوله : « بلّغوا عني ولوآية »[٢] ، لأن القرآن هو المعجزة الباقية من بين سائر المعجزات .

ولعلي أكون بهذه الخطة في بيان المراد من آي كتاب الله مفرداتٍ وتراكيبَ ، قد حقّقت غايتي من ربط المسلم بقرآنه ، وقمت بالتّبليغ الواجب على كلّ مسلم بالرغم من وجود موسوعات أو تفاسير قديمة اعتمدت عليها ، وقد تميزت إما بالتركيز على العقائد والنّبوات والأخلاق والمواعظ وتوضيح آيات الله في الكون ، كالرّازي في التفسير الكبير ، وأبي حيان الأندلسي في البحر المحيط ، والألوسي في روح المعاني ، والكشاف للزمخشري .

وإما بتوضيح القصص القرآني وأخبار التاريخ ، كتفسير الخازن والبغوي ، وإما ببيان الأحكام الفقهية بالمعنى الضيّق للمسائل والفروع والقضايا كالقرطبي وابن كثير والجصاص وابن العربي ، وإما بالاهتمام باللغويات كالزمخشري

---

(١) تفسير القرطبي : ٧٨/١ وما بعدها .

(٢) أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

وأبي حيان ، وإما بالقراءات كالنسفي وأبي حيان وابن الأنباري ، وابن الجزري في كتابه (النشر في القراءات العشر) ، وإما بالعلوم والنظريات العلمية الكونية مثل طنطاوي جوهري في كتابه (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) .

والله أسأل أن ينفعنا بما علّمنا ، ويعلّمنا ما ينفعنا ، ويزيدنا علماً ، كما أسأله أن يعم النّفع كلّ مسلم ومسلمة بهذا الكتاب ، وأن يلهمنا جميعاً الرّشاد والسّداد ، وأن يوفقنا للعمل بكتاب الله في كلّ مناحي الحياة ، دستوراً وعقيدةً ومنهجاً وسلوكاً ، وأن يهدينا إلى سواء الصراط ، صراطِ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور .

وليكن رائدنا جميعاً ما أخرجه البخاري ومسلم عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيرُكم من تعلّم القرآن وعلّمه »[1] .

الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) لم أجرؤ على هذا التفسير إلا بعد أن كتبت كتابين شاملين في موضوعيهما أو موسوعتين : الأول : (أصول الفقه الإسلامي) في مجلدين ، والثاني : (الفقه الإسلامي وأدلته) في مختلف المذاهب ـ ثمانية مجلدات ، وأمضيت في التدريس الجامعي ما يزيد عن ثلاثين عاماً ، وعملت في الحديث النّبوي تحقيقاً وتخريجاً وبياناً بالاشتراك لكتاب (تحفة الفقهاء) للسمرقندي ، و (المصطفى من أحاديث المصطفى) زهاء (١٤٠٠ حديث) . بالإضافة لمؤلفات وبحوث موسوعية تربو عن الثلاثين .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بعض المعارف الضرورية المتعلقة بالقرآن

أولاً ـ تعريف القرآن وكيفية نزوله وطريقة جمعه :

القرآن المجيد الذي اقتضت حكمة الله ألا يبقى في الوجود أثر ثابت للوحي الإلهي سواه ، بعد أن اندثرت أو زالت أو اختلطت الكتب السماوية السابقة بغيرها من العلوم التي وضعها البشر : هو منار الهداية ، ودستور التشريع ، ومصدر الأنظمة الربانية للحياة ، وطريق معرفة الحلال والحرام ، وينبوع الحكمة والحق والعدل ، ومعين الآداب والأخلاق التي لابدّ منها لتصحيح مسيرة الناس ، وتقويم السلوك الإنساني ، قال الله تعالى : ﴿ مافَرَّطْنا في الكتابِ من شيءٍ ﴾ [الأنعام ٣٨/٦] ، وقال عزّ وجلّ أيضاً : ﴿ ونزّلنا عليك الكتابَ تبياناً لكلّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً وبُشْرى للمسلمين ﴾ [النحل ٨٩/١٦] .

وقد عرّفه علماء أصول الفقه ، لا بسبب الجهل به أو عدم معرفة الناس به ، وإنما لضبط ما يتعبد به وما تجوز الصلاة به ، وما لا تجوز ، ولتبيان أحكام الشرع الإلهي من حلال وحرام ، وما يصلح حجة في استنباط الأحكام ، وما يكفر جاحده وما لا يكفر ، فقالوا عنه :

القرآن : هو كلام الله المعجز[١] ، المنزّل على النّبي محمد ﷺ ، باللفظ العربي ، المكتوب في المصاحف ، المتعبّد بتلاوته[٢] ، المنقول بالتواتر[٣] ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس .

---

(١) أي الذي عجزت الإنس والجن عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سوره .

(٢) أي أنه لا تصح الصلاة إلا بتلاوة شيء منه ، كما أن مجرد تلاوته عبادة يثاب عليها المسلم .

(٣) التواتر : هو ما ينقله جمع عظيم عن جمع غفير يؤمن في العادة تواطؤهم على الكذب .

وبناءً عليه : لا تسمى ترجمة القرآن قرآناً ، وإنما هي تفسير ، كما لا تسمى القراءة الشاذة (وهي التي لم تنقل بالتواتر وإنما بالآحاد) قرآناً ، مثل قراءة ابن مسعود في فيئة الإيلاء[1] : ﴿ فإنْ فاءوا ـ فيهنّ ـ فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ [البقرة ٢٢٦/٢] وقراءته أيضاً في نفقة الولد : ﴿ وعلى الوارثِ ـ ذي الرحم المحرم ـ مثلُ ذلكَ ﴾ [البقرة ٢٣٣/٢] ، وقراءته في كفارة يمين المعسر : ﴿ فمنْ لَمْ يَجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ ـ متتابعات ـ ﴾ [المائدة ٨٩/٥] .

أسماء القرآن :

للقرآن أسماء : هي القرآن ، والكتاب ، والمصحف ، والنور ، والفرقان[2] .

وسمّي قرآناً ؛ لأنه التنزيل المتلو المقروء ، وقال أبو عبيدة : سمّي القرآن ؛ لأنه يجمع السُّور ، فيضمها . قال تعالى : ﴿ إنّ علينا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة ١٧/٧٥] أي جمعه وقراءته ، ومن المعلوم أن القرآن نزل تدريجياً شيئاً بعد شيء ، فلما جمع بعضه إلى بعض سمّي قرآناً .

وسمّي كتاباً من الْكَتْبِ أي الجمع ؛ لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على نحوٍ مخصوص .

وسمّي مصحفاً من أصحف أي جمع فيه الصحف ، والصحف جمع الصحيفة : وهي قطعة من جلد أو ورق يكتب فيه . وروي أن أبا بكر الصديق استشار الناس بعد جمع القرآن في اسمه ، فسمّاه مصحفاً .

وسمّي نوراً ؛ لأنه يكشف الحقائق ، ويبين الغوامض من حلال وحرام

---

(١) الإيلاء : الحلف على ترك وطء (جماع) المرأة . وفاء الرجل إلى امرأته : عاد إلى الاستمتاع بها بعد يمينه بالامتناع عن ذلك .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة النظام ـ نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ٢٥/١ ، تفسير الرازي : ١٤/٢

وغيبيات لا يستطيع العقل إدراكها ، ببيان قاطع وبرهان ساطع ، قال الله تعالى : ﴿ ياأيُّها النَّاسُ قدْ جاءكم برهانٌ من ربِّكم ، وأنْزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [النساء ١٧٤/٤] .

وسمِّي فُرْقاناً لأنه فرّق بين الحقّ والباطل ، والإيمان والكفر ، والخير والشّر ، قال الله تعالى : ﴿ تباركَ الّذي نزّل الفرقانَ على عَبْدِه ، ليكونَ للعالمينَ نذيراً ﴾ [الفرقان ١/٢٥] .

كيفية نزول القرآن :

لم ينزل القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهما السلام ، لئلا يثقل كاهل المكلفين بأحكامه ، وإنما نزل على قلب النّبي الكريم ﷺ بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام ، مُنَجّماً أي مفرقاً على وفق مقتضيات الظروف والحوادث والأحوال ، أو جواباً للوقائع والمناسبات أو الأسئلة والاستفسارات .

فمن الأول : قوله تعالى : ﴿ ولاتَنْكحوا المشركاتِ حتّى يؤمِنّ ﴾ [البقرة ٢٢١/٢] ، نزلت في شأن مَرْثَد الغَنَوي الذي أرسله النّبي ﷺ إلى مكة ، ليحمل منها المستضعفين المسلمين ، فأرادت امرأة مشركة اسمها (عَنَاق) وكانت ذات مال وجمال ، أن تتزوجه ، فقبل بشرط موافقة النّبي ﷺ ، فلما سأله نزلت الآية ، ونزل معها آية ﴿ ولاتُنْكِحوا المشركينَ حتّى يؤمنوا ﴾ [البقرة ٢٢١/٢] .

ومن الثاني : ﴿ ويسألونَك عَنِ اليتامى ﴾ [البقرة ٢٢٠/٢] ، و﴿ ويسألونَك عَنِ المَحيضِ ﴾ [البقرة ٢٢٢/٢] ، و ﴿ ويَسْتَفتونَك في النّساء ﴾ [النساء ١٢٧/٤] ، و ﴿ يسألونَك عَنِ الأنفالِ ﴾ [الأنفال ١/٨] .

وقد بدأ نزوله في رمضان في ليلة القدر ، قال الله تعالى : ﴿ شهرُ رمضانَ الّذي أُنزِلَ فيهِ القرآنُ ، هدىً للنّاسِ ، وبيّناتٍ منَ الهدى والفُرْقانِ ﴾

[البقرة ١٨٥/٢] ، وقال سبحانه : ﴿ إنّا أنزلناهُ في ليلةٍ مباركةٍ ، إنّا كنّا مُنْذرينَ ﴾ [الدخان ٣/٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إنّا أنْزلناهُ في ليلةِ القدرِ .. ﴾ [القدر ١/٩٨] . واستمر نزول القرآن في مدى ثلاث وعشرين سنة إما في مكة وإما في المدينة وإما في الطريق بينهما أو في غيره من الأماكن .

وكان نزوله إما سورة كاملة كالفاتحة والمدثر والأنعام ، أو عشر آيات مثل قصة الإفك في سورة النور ، وأول سورة المؤمنين ، أو خمس آيات ، وهو كثير ، أو بعض آية ، مثل : ﴿ غيرُ أُولي الضَّرَرِ ﴾ [النساء ٩٥/٤] بعد قوله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوي القاعدونَ منَ المؤمنينَ ﴾ [النساء ٩٥/٤] ومثل قوله تعالى : ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فسوفَ يُغْنيكم الله من فَضْلِهِ ، إنْ شاءَ ، إنَّ الله عليمٌ حكيمٌ ﴾ [التوبة ٢٨/٩] ، فإنه نزل بعد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّما المشركونَ نَجَسٌ ، فلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحرامَ بعدَ عامِهم هذا ﴾ [التوبة ٢٨/٩] .

وتعددت حكمة إنزال القرآن منجماً ، بسبب المنهج الإلهي الذي رسم به طريق الإنزال ، كما قال تعالى : ﴿ وقُرآناً فَرقْناهُ لِتَقْرأهُ على النّاسِ على مُكْثٍ ، ونزّلناه تنزيلا ﴾ [الإسراء ١٠٦/١٧] .

من هاتيك الْحِكَم : تثبيت قلب النَّبي ﷺ وتقوية فؤاده ليحفظه ويعيه ؛ لأنه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، قال الله تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ كفروا : لولا نُزِّلَ عليهِ القرآنُ جُمْلةً واحدةً ، كذلكَ لنثبّتَ بِهِ فؤادَكَ ، ورتّلْناهُ تَرْتيلاً ﴾ [الفرقان ٣٢/٢٥] .

ومنها : مراعاة مقتضيات التدرُّج في التشريع ، وتربية الجماعة ، ونقلها على مراحل من حالة إلى حالة أحسن من سابقتها ، وإسبال الرحمة الإلهية على العباد ، فإنهم كانوا في الجاهلية في إباحية مطلقة ، فلو نزّل عليهم القرآن دفعة واحدة ، لعسر عليهم التكليف ، فنفروا من التطبيق للأوامر والنواهي .

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : « إنما نَزَل أول ما نَزَل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولونزل أول شيء : لاتشربوا الخمر ، لقالوا : لاندع الخمر أبداً ، ولونزل : لاتزنوا ، لقالوا : لاندع الزنا »[1] .

ومنها : ربط نشاط الجماعة بالوحي الإلهي ؛ إذ إن اتصال الوحي بالنّبي ﷺ يساعده على الصبر والمصابرة ، وتحمل المشاق والمصاعب وأنواع الأذى التي كابدها من المشركين ، كما أنه وسيلة لتقوية العقيدة في نفوس الذين أسلموا ، فإذا نزل الوحي علاجاً لمشكلة ، تأكد صدق النّبي ﷺ في دعوته ، وإذا أحجم النّبي عن جواب مسألة ، ثم جاءه الوحي ، أيقن المؤمنون بصدق الإيمان واطمأنوا إلى سلامة العقيدة ، وأمان الدّرْب الذي سلكوه ، وزادت ثقتهم بالغايات والوعود المنتظرة التي وعدهم الله بها : إما بالنصر على الأعداء أو المشركين في الدنيا ، وإما بالفوز بالجنة والرضا الإلهي ، وتعذيب الكفار في نار جهنم .

المكي والمدني من القرآن :

كان للوحي القرآني صبغتان أو لونان جعلت منه نوعين هما : المكي والمدني ، وانقسمت بالتالي سور القرآن إلى مكية ومدنية .

أما المكي : فهو ما نزل في مدى ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة ـ هجرة النّبي ﷺ من مكة إلى المدينة ـ سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي مكان

---

(١) هذا وقد ذكر الزمخشري في الكشاف : ١٨٥/١ وما بعدها أسباب تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً ، منها أن تنوع البيان للجنس الواحد أحسن وأجل وأفخم من أن يكون بياناً واحداً . ومنها إثارة النشاط والحث على الدرس والتحصيل من القرآن خلافاً لو استر الكتاب جملة واحدة ، ومنها اعتزاز الحافظ بطائفة مستقلة من القرآن بعد حفظها ، ومنها أن التفصيل بشاهد عديدة سبب لدعم المعاني ، وتأكد المراد واجتذاب الأنظار .

آخر ، مثل سورة (ق) و (هود) و (يوسف) . وأما المدني : فهو مانزل في مدى عشر سنوات بعد الهجرة ، سواء نزل في المدينة أو في الأسفار والمعارك الحربية أو في مكة عام الفتح ، مثل سورة (البقرة) و (آل عمران) .

ويغلب على التشريع المكي إصلاح العقيدة والأخلاق ، والتنديد بالشرك والوثنية ، وإقرار عقيدة التوحيد ، وتصفية آثار الجهل من قتل وزنى ووأد بنات ، والتأدُّب بآداب الإسلام وأخلاقه ، مثل العدل ، والوفاء بالعهد ، والإحسان ، والتعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وإعمال العقل والفكر ، ونقض أوهام التقليد الأعمى ، وتحرير الإنسان ، والاعتبار بقصص الأنبياء مع أقوامهم . وقد اقتضى ذلك جعل الآيات المكية قصيرة تزخر بالرهبة والزجر والوعيد ، وتبعث على الخشية ، وتشعر بمعنى الجلال .

وأما التشريع المدني فيغلب عليه تقرير الأنظمة والأحكام المفصلة للعبادات ، والمعاملات المدنية والعقوبات ، ومتطلبات الحياة الجديدة في إقامة صرح المجتمع الإسلامي في المدينة ، وتنظيم شؤون السياسة والحكم ، وترسيخ قاعدتي الشورى والعدل في إصدار الأحكام ، وتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم في داخل المدينة وخارجها ، وقت السلم والحرب ، بتشريع الجهاد لوجود مسوغاته من إيذاء وعدوان وتشريد وطرد وتهجير ، ثم وضع أنظمة المعاهدات لإقرار الأمن وتوطيد دعائم السلم ، وقد اقتضى ذلك كون الآيات المدنية طويلة هادئة ، ذات أبعاد وغايات دائمة غير وقتية ، تستدعيها عوامل الاستقرار والاطمئنان وبناء الدولة على أمتن الأسس وأقوى الدعائم .

فائدة العلم بأسباب النزول :

إن معرفة أسباب نزول الآيات بحسب الوقائع والمناسبات لها فوائد كثيرة وأهمية بالغة في تفسير القرآن وفهمه على الوجه الصحيح ؛ لأن أسباب النزول

قرائن معبرة توضح غاية الحكم ، وتبين سبب التشريع ، وتعرف أسراره ومراميه ، وتساعد على فهم القرآن فهماً دقيقاً شاملاً ، حتى وإن كانت العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب . ونرى في عالمنا القانوني اليوم ما يسمى بالمذكّرات التوضيحية للقوانين والأنظمة والأحكام ، يبين فيها أسباب إصدارها ، وأهدافها . ويؤكد ذلك أن كل نظام يظل في مستوى الأمور النظرية غير المقنعة كثيراً للناس ، مالم يقترن بالمتطلبات الواقعية ، أو يرتبط بالحياة العملية .

وكل ماسبق يشير إلى أن شريعة القرآن ليست فوق مستوى الأحداث ، أو أنها سامية مثالية لاتقبل التطبيق ، وإنما هي متعاصرة مع كل زمن ، متفاعلة مع الواقع ، تصف العلاج الحاسم لكل داء عضال من أمراض المجتمع ، وشذوذات الأفراد وانحرافاتهم .

أول القرآن وآخره نزولاً :

كان أول مانزل من القرآن الكريم قول الله تعالى من سورة العلق : ﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلقَ ☆ خلقَ الإنسانَ من علقٍ ☆ اقرأ وربُّكَ الأكرم ☆ الذي علّم بالقلم ☆ علّم الإنسانَ مالمْ يعلم ﴾ [العلق ١/٩٧ ـ ٥] ، وذلك يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، سنة إحدى وأربعين من ميلاده ﷺ ، في غار حراء ، حين بدأ الوحي ، بواسطة جبريل الأمين عليه السلام .

وكان آخر مانزل من القرآن في أرجح الأقوال ، قوله تعالى : ﴿ واتّقوا يوماً تُرْجَعونَ فيهِ إلى اللهِ ، ثمَّ تُوفّى كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، وهُمْ لا يُظلمونَ ﴾ [البقرة ٢٨١/٢] ، وذلك قبل وفاته ﷺ بتسع ليالٍ بعدما فرغ من حجّة الوداع ، أخرجه كثيرون عن ابن عباس رضي الله عنهما .

أما ماقيل وروي عن السُّديّ : إن آخر مانزل قوله تعالى : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دِينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً .. ﴾ [المائدة ٣/٥] ،

فغير مسلّم به ؛ لأنّ هذه الآية نزلت باتفاق العلماء يوم عرفة من حجة الوداع قبل نزول سورة النصر ، وآية البقرة السابقة .

جَمْع القرآن :

لم يكن ترتيب القرآن الكريم في آياته وسوره بالنحو التوقيفي في واقعه الموجود في المصاحف الحالية والغابرة متفقاً مع أحوال نزول الوحي به ، فقد نزل بحسب الوقائع والمناسبات ، إما سورة كاملة أو بعض آيات ، أو بعض آية ، كما عرفنا ، ثم جمع ثلاث مرات .

الجمع الأول في عهد النبوة :

حدث الجمع الأول في عهد النّبي ﷺ بحفظه الثابت الراسخ كالنقش في الحجر في صدره عليه الصلاة والسلام ، تحقيقاً لوعد الله تعالى : ﴿ لاتحرّك به لسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إنّ علينا جَمْعَهُ وقُرآنه ، فإذا قَرَأْناهُ فاتّبع قُرْآنه ، ثمّ إنّ علينا بيانَه ﴾ [القيامة ٧٥/١٦ ـ ١٩] ، وقد عرضه النّبي ﷺ مرات على جبريل عليه السلام ، مرة في كل رمضان ، وعرضه عليه مرتين في آخر رمضان قبل الوفاة ، ثم قرأه رسول الله ﷺ على الناس على نحو هذه العرضات ، ثم كتبه الصحابة عنه ، وكان كتّاب الوحي خمساً وعشرين كاتباً ، والتحقيق أنهم كانوا زهاء ستين ، وأشهرهم الخلفاء الأربعة ، وأُبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأخوه يزيد ، والمغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وحفظه أيضاً عدد من الصحابة في صدورهم حبّاً به ، واعتماداً على قوة حافظتهم وذاكرتهم التي اشتهروا بها ، حتى إن حروب المرتدين قتل فيها سبعون من القراء ، وقد عدّ أبو عبيد في كتاب (القراءات) بعض الحفاظ ، فذكر من المهاجرين : الخلفاء الراشدين الأربعة ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن

أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة الأربعة (ابن عمر ، وابن عباس ، وابن عمرو ، وابن الزبير) ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة .

وذكر من الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذاً أبا حليمة ، ومُجَمِّع بن جارية ، وفَضَالة بن عُبَيْد ، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد .

وكان من أشهر الحفاظ : عثمان ، وعلي ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري .

الجمع الثاني في عهد أبي بكر :

لم يجمع القرآن في مصحف واحد على عهد رسول الله ﷺ ، لاحتمال نزول وحي جديد مادام النَّبي ﷺ حيّاً ، ولكن كانت كل آيات القرآن مكتوبة في الرقاع والعظام والحجارة وجريد النخل . ثم استحّر القتل في القراء في وقعة اليمامة في عهد أبي بكر ، كما روى البخاري في فضائل القرآن في الجزء السادس ، فارتأى عمر بن الخطاب جمع القرآن ، ووافقه أبو بكر ، وكلّف زيد بن ثابت بهذه المهمة ، وقال أبو بكر لزيد : « إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه » ، ففعل زيد ما أمر به وقال : « فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف[1] ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة ـ أي مكتوبة ـ مع خُزَيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره : ﴿ لَقَدْ جاءَكُم رسولٌ مِنْ أنفسِكُم ﴾ [التوبة ١٢٨/٩] ، حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر »[2] .

---

(١) العسب : جمع عسيب : وهو جريدة من النخل كشط خوصها . واللِّخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدتها لَخْفة .

(٢) صحيح البخاري : ٢١٤/٦ ـ ٢١٥

يتبين من هذا أن طريقة الجمع اعتمدت على أمرين معاً: هما المكتوب في الرقاع والعظام ونحوها ، وحفظ الصحابة للقرآن في صدورهم . واقتصر الجمع في عهد أبي بكر على أنه جمع القرآن في صحف خاصة ، بعد أن كان متفرقاً في صحف عديدة ، ولم يكتفِ زيد بحفظه القرآن ، وإنما اعتمد أيضاً على حفظ غيره من الصحابة وهم العدد الكثير الذي يحصل به التواتر ، أي اليقين المستفاد من نقل الجمع الكثير الذي يؤمن في العادة تواطؤهم على الكذب .

الجمع الثالث ـ في عهد عثمان بنسخ المصاحف على خط واحد :

اقتصر دور عثمان بن عفان رضي الله عنه على كتابة ست نسخ من المصاحف على حرف واحد وطريقة واحدة ، ووزعها في الأمصار الإسلامية ، فأرسل ثلاثة منها إلى الكوفة ودمشق والبصرة ، وأرسل اثنين إلى مكة والبحرين ، أو إلى مصر والجزيرة ، وأبقى لديه مصحفاً بالمدينة . وأمر بإحراق المصاحف الأخرى المخالفة في العراق والشام فقط . وظل المصحف الشامي محفوظاً بجامع دمشق (الجامع الأموي) عند الركن ، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد رآه ابن كثير كما ذكر في كتابه (فضائل القرآن) في آخر تفسيره ، إلى أن أصابه الحريق الكبير الذي أصاب المسجد الأموي سنة ١٣١٠ هـ ، ورآه قبل الحريق كبار علماء دمشق المعاصرين .

وسبب هذا الجمع يظهر فيما رواه لنا البخاري في فضائل القرآن في الجزء السادس عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن حُذَيفة بن اليمان قَدِم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان :

يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة ، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة :

إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرّق[1] .

وأصبح المصحف العثماني أساساً في نشر وطبع المصاحف المتداولة الآن في العالم ، فبعد أن كان الناس يقرؤون بقراءات مختلفة ، إلى وقت عثمان ، جمع عثمان الناس على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وجعله إماماً ، ولهذا نسب إليه ، ولقّب بأنه جامع القرآن .

والخلاصة : إن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان جمعاً له في نسخة واحدة موثوقة ، وجمع القرآن في عهد عثمان كان نسخاً من صحف حفصة ، لمصاحف ستة بحرف واحد . وكان هذا الحرف ملائماً للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

وأصبح لقراءة رسم المصحف طريقان : موافقة للرسم المكتوب حقيقة ، وموافقة للرسم احتمالاً أو تقديراً .

ولا خلاف بين العلماء في أن ترتيب آيات السور توقيفي منقول ثابت عن النبي ﷺ ، كما أن ترتيب السور أيضاً توقيفي على الراجح . أما دليل ترتيب

(١) صحيح البخاري : ٣/٢١٥ ـ ٢١٦

الآيات فقول عثمان بن العاص رضي الله عنه : « كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوّبه ، ثم قال : « أتاني جبريل ، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ إنّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذي القربى ﴾ [النحل ١٦/٩٠] » .

وأما دليل ترتيب السور فهو حضور بعض الصحابة كابن مسعود ممن حفظوا القرآن عن ظهر قلب ، مدارسة القرآن بين جبريل عليه السلام والنّبي ﷺ ، وشهدوا بأنها كانت على وفق هذا الترتيب المعهود في السور وفي الآيات .

وأركان قرآنية الآية أو الكلمة أو القراءة المقبولة ثلاثة : الموافقة للرسم العثماني ولواحتمالاً ، التوافق مع قواعد النحو العربي ولو بوجه ، النقل المتواتر بواسطة جمع عن جمع عن النّبي ﷺ ، وهذا ما يعرف بصحة السند .

ثانياً ـ طريقة كتابة القرآن والرسم العثماني :

الرسم : طريقة كتابة الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها ، والوقوف عليها .

والمصحف : هو المصحف العثماني الإمام الذي أمر بكتابته سيدنا عثمان رضي الله عنه ، والذي أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم[1] .

والرسم العثماني : هو الطريقة التي كتبت بها المصاحف الستة في عهد عثمان رضي الله عنه . وهو الرسم المتداول المعمول به بعد البدء بطباعة القرآن في البندقية سنة ١٥٣٠ م ، وماتلاها من طبعة إسلامية خالصة للقرآن في سانت بترسبوغ ، في روسيا ، سنة ١٧٨٧ م ، ثم في الآستانة سنة ١٨٧٧ م .

---

(١) المصاحف للسجستاني : ص ٥٠

وللعلماء رأيان في طريقة كتابة القرآن أو الإملاء[١] :

١ ـ رأي جمهور العلماء ومنهم الإمامان مالك وأحمد : أنه يجب كتابة القرآن كما وردت برسمها العثماني في المصحف الإمام ، ويحرم مخالفة خط عثمان في جميع أشكاله في كتابة المصاحف ؛ لأن هذا الرسم يدلّ على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة .

٢ ـ رأي بعض العلماء (وهم أبو بكر الباقلاني وعز الدين بن عبد السلام وابن خلدون) : أنه تجوز كتابة المصاحف بالطرق أو الرسوم الإملائية المعروفة للناس ؛ لأنه لم يرد نص في الرسم ، وإن ما في الرسم من زيادات أو حذوف لم يكن توقيفاً أوحى الله به على رسوله ، ولو كان كذلك لآمنا به وحرصنا عليه ، وإذا كتب المصحف بالإملاء الحديث أمكن قراءته صحيحاً وحفظه صحيحاً .

وقد رأت لجنة الفتوى بالأزهر وغيرها من علماء العصر[٢] الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف ، احتياطاً لبقاء القرآن على أصله لفظاً وكتابة ، وحفاظاً على طريقة كتابته في العصور الإسلامية السابقة ، دون أن ينقل عن أحد من أئمة الاجتهاد تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولاً ، ولمعرفة القراءة المقبولة والمردودة ، فلا يفتح فيه باب الاستحسان الذي يعرض القرآن للتغيير والتحريف ، أو للتلاعب به ، أو العبث بآياته من ناحية الكتابة . لكن لا مانع في رأي جماهير العلماء من كتابة القرآن بطرق الإملاء الحديثة في مجال الدرس والتعليم ، أو عند الاستشهاد بآية أو أكثر في بعض المؤلفات الحديثة ، أو في كتب وزارة التربية والتعليم ، أو أثناء عرضه على شاشة التلفاز .

---

(١) تلخيص الفوائد لابن القاصّ : ص ٥٦ ومابعدها ، الإتقان للسيوطي : ١٦٦/٢ ، البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٣٧٩/١ ، ٢٨٧ ، مقدمة ابن خلدون : ص ٤١٩

(٢) مجلة الرسالة : العدد ٢١٦ ، سنة ١٩٣٧ ، ومجلة المقتطف تموز سنة ١٩٣٣

ثالثاً ـ الأحرف السبعة والقراءات السبع :

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ماتيسر منه »[١] أي سبعة أوجه ، وهو سبع لغات ولهجات من لغات العرب ولهجاتهم ، يجوز أن يقرأ بكل لغة منها ، وليس المراد : أن كل كلمة منه تقرأ على سبعة أوجه وإنما لا يخرج عنها ، فإما أن تكون بلغة قريش ، وهو الغالب ، وإما أن تكون بلغة قبيلة أخرى ؛ لأنها أفصح ، وتلك اللغات التي كانت مشهورة شائعة عذبة اللفظ هي : لغة قريش ، وهُذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر . وهذا هو الأشهر والراجح .

وفي رأي آخر : المراد بالسبعة : أوجه القراءات القرآنية ، فاللفظ القرآني الواحد مهما يتعدد أداؤه وتتنوع قراءته لا يخرج التغاير فيه عن الوجوه السبعة الآتية وهي[٢] :

١ ـ الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها ، أو يغير معناها ؛ مثل (فتلقى آدمُ) قرئ (آدمَ) .

٢ ـ الاختلاف في الحروف ، إما بتغير المعنى مثل (يعلمون وتعلمون) ، وإما بتغير الصورة دون المعنى مثل (الصراط) و (السراط) .

٣ ـ اختلاف أوزان الأسماء فى إفرادها وتثنيتها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها ، مثل (أماناتهم) و (أمانتهم) .

---

(١) أخرجه الجماعة : البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي وأبو داود والنسائي (جامع الأصول : ٣١/٣) .

(٢) تفسير القرطبي : ٤٢/١ ـ ٤٧ ، تفسير الطبري : ٢٣/١ وما بعدها ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ٢٨ وما بعدها ، تاريخ الفقه الإسلامي للسايس : ص ٢٠ وما بعدها ، مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي صالح : ص ١٠١ ـ ١١٦

٤ ـ الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى مثل (كالعهن المنفوش) أو (كالصوف المنفوش) وقد يكون بإبدال حرف بآخر مثل (ننشزها) و (ننشرها) .

٥ ـ الاختلاف بالتقديم والتأخير ، مثل (فيَقْتلون ويُقْتلون) قرئ (فيُقْتَلون ويَقْتُلون) .

٦ ـ الاختلاف بالزيادة والنقص ، مثل (وما خلق الذكر والأنثى) قرئ (والذكر والأنثى) .

٧ ـ اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، وكسر حروف المضارعة ، وقلب بعض الحروف ، وإشباع ميم الذكور ، وإشمام بعض الحركات ، مثل (وهل أتاك حديث موسى) و (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) قرئ بإمالة : (أتى) ، (وموسى) ، (وبلى) وقوله تعالى : (خبيراً بصيراً) بترقيق الراءين ، و (الصلاة) و (الطلاق) بتفخيم اللامين . وقوله تعالى : (قد أفلح) بترك الهمزة ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية إلى آخر الكلمة الأولى ، وهو ما يسمى (تسهيل الهمزة) . وقوله تعالىٰ : (لقوم يعلمون ، نحن نِعلم ، وتِسود وجوه ، ألم إعهد) بكسر حروف المضارعة في جميع هذه الأفعال . وقوله تعالى : (حتى حين) قرأه الهذليون (عتى عين) بقلب الحاء عيناً . وقوله تعالى : (عليهمو دائرة السّوء) بإشباع ميم جمع الذكور . وقوله تعالى : (وغيض الماء) بإشباع ضمة الغين مع الكسر .

والخلاصة : إن الأحرف السبعة : هي اللغات السبع التي اشتملت عليها لغة مضر في القبائل العربية ، وليست هي القراءات السبع أو العشر المتواترة المشهورة ، فهذه القراءات التي انتشرت كثيراً في عصر التابعين ثم اشتهرت في القرن الرابع بعد ظهور كتاب في القراءات للإمام المقرئ ابن مجاهد ، تعتمد على غير

الأصل الذي يتعلق بالأحرف السبعة ، وتتفرع من حرف واحد من الأحرف السبعة ، كما أبان القرطبي .

ثم إن الكلام على الأحرف السبعة أصبح تاريخياً ، فقد كانت تلك الأحرف السبعة توسعة في النطق بها على الناس في وقت خاص للضرورة ، لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ؛ لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، ثم زال حكم تلك الضرورة ، وارتفع حكم تلك الأحرف السبعة ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد ، ولم يكتب القرآن إلا بحرف واحد منذ عهد عثمان ، مما قد تختلف فيه كتابة الحروف ، وهو حرف قريش الذي نزل به القرآن ، كما أوضح الطحاوي وابن عبد البر وابن حجر وغيرهم[1] .

رابعاً ـ القرآن كلام الله وأدلة الإثبات بوجوه الإعجاز :

إن القرآن العظيم المسموع والمكتوب : هو كلام الله القديم العزيز العليم ، ليس شيء منه كلاماً لغيره من المخلوقين ، لا جبريل ، ولا محمد ولا غيرهما ، والناس يقرؤونه بأصواتهم[2] . قال الله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين ، نَزَل به الرُّوحُ الأمينُ ، على قَلْبِك لتكونَ من المنذِرين ، بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء ١٩٢/٢٦ ـ ١٩٥] وقال عز وجل : ﴿ قل : نزَّله روح القدس من ربِّك بالحق ، ليثبِّت الذين آمنوا ، وهُدىً ، وبشرى للمسلمين ﴾ [النحل ١٠٢/١٦] .

والدليل على أن القرآن كلام الله : هو عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، وهذا هو المراد بإعجاز القرآن : أي عجز البشر عن الإتيان بمثله ، في بلاغته ، أو تشريعه أو مغيباته . قال الله تعالى مستثيراً العرب المعروفين بأنهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة ، ومتحدياً لهم بأن يأتوا

---

(١) تفسير القرطبي : ٤٢/١ ـ ٤٣ ، فتح الباري : ٢٤/٩ ـ ٢٥ ، شرح مسلم للنووي : ١٠٠/٦

(٢) فتاوى ابن تيمية : ١١٧/١٢ ـ ١٦١ ، ١٧٢

بمثل القرآن في نظمه ومعانيه وبيانه المشرق البديع الفريد ولو بمثل سورة منه : ﴿ وإن كنتم في رَيْبٍ مما نزّلنا على عبدِنا ، فأتوا بسورةٍ من مِثله ، وادعوا شهداءكم من دونِ الله ، إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وَقودُها الناسُ والحجارةُ ، أُعدّت للكافرين ﴾ [البقرة ٢/٢٣ ـ ٢٤] .

وتتكرر آي القرآن في مناسبات مختلفة مطالبة بمجاراة القرآن وتحدي العرب الذين عارضوا الدعوة الإسلامية ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، ولم يقرّوا بنبوة محمد ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ قل : لئن اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأْتُوا بِمِثْل هذا القرآنِ ، لا يأتون بمِثْلِه ، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾ أي معيناً [الإسراء ١٧/٨٨] . وإذ عجزوا عن الإتيان بالمثيل ، فليأتوا بعَشر سور مثله ، فقال سبحانه : ﴿ أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سُور مِثْلِه مفتَريات ، وادعوا من استطعتم من دونِ الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا أنما أُنزِل بعلْم الله ، وأن لا إلهَ إلا اللهُ ، فهلْ أنتم مُسْلمون ﴾ [هود ١١/١٣ ـ ١٤] .

ثم أكد الحق سبحانه التحدي أو المعارضة بمثل سورة من القرآن بعد العجز عن المثل الكامل أو عن عشر سور منه ، فقال تعالى : ﴿ أم يقولون : افتراه قل : فأتوا بسورةٍ مِثْله ، وادعُوا من استطعتم من دونِ الله ، إن كنتم صادقين ﴾ [يونس ١٠/٣٨] .

قال الطبري[1] : إن الله تعالى ذكْرُهُ جَمَعَ لنبينا محمد ﷺ ولأُمته ، بما أنزل إليه من كتابه معاني لم يجمعهن بكتاب أنزله إلى نبي قبله ، ولا لأمة من الأمم قبلهم ، وذلك أن كل كتاب أنزله جلّ ذكْرُهُ على نبي من أنبيائه قبله ، فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعها كتابه الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ ، كالتوارة

(١) تفسير الطبري : ١/٦٥ ـ ٦٦

التي هي مواعظ وتفصيل ، والزبور الذي هو تحميد وتمجيد ، والإنجيل الذي هو مواعظ وتذكير ، لامعجزة في واحد منها تشهد لمن أنزل إليه بالتصديق .

والكتاب الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ يحوي معاني ذلك كله ، ويزيد عليه كثيراً من المعاني التي سائر الكتب ، غيره منها خال . ومن أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب : نظمه العجيب ، ووصفه الغريب ، وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء ، وكلّت عن وصف شكل بعضه البلغاء ، وتحيرت في تأليفه الشعراء ، وتبلدت قصوراً عن أن تأتي بمثله لديه أفهام الفهماء ، فلم يجدوا له إلا التسليم والإقرار بأنه من عند الله الواحد القهار ، مع مايحوي مع ذلك من المعاني التي هي ترغيب وترهيب ، وأمر وزجر ، وقصص وجدل ومثل ، وما أشبه ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء .

ومظاهر الإعجاز أو أوجه الإعجاز كثيرة : منها ما يخص العرب في روعة بيانه وبلاغة أسلوبه وجزالة ألفاظه أو نظمه ، سواء في اختيار الكلمة القرآنية أو الجملة والتركيب ونظم الكلام ، ومنها ما يشمل العرب وغيرهم من عقلاء الناس بالإخبار عن المغيبات في المستقبل ، وعن الماضي البعيد من عهد آدم عليه السلام إلى مبعث محمد ﷺ ، وبالتشريع المحكم الشامل لكل شؤون الحياة العامة والخاصة . وأكتفي هنا بإيجاز مظاهر الإعجاز وهي عشرة كما ذكر القرطبي[1] :

أ ـ النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيره ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء .

---

(١) تفسير القرطبي : ٧٢/١ ـ ٧٥ ، وانظر دلائل الإعجاز في علم المعاني ، للإمام عبد القاهر الجرجاني : ص ٢٩٤ وما بعدها ، إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٣٣ ـ ٤٧ ، إعجاز القرآن للرافعي : ص ٢٣٨ ـ ٢٩٠ ، تفسير المنار : ١٩٨/١ ـ ٢١٥

٢ـ الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣ـ الجزالة التي لاتصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك في سورة ﴿ قّ ، والقرآن المجيد ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ إلى آخر سورة الزمر ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ إلى آخر سورة [إبراهيم ٤٢/١٤] .

٤ـ التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .

٥ـ الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله على قلب النبي الأمي ﷺ ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية في دهرها ، وذكر ماسأله أهل الكتاب عنه ، وتحدوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذي القرنين ، فجاءهم النبي ﷺ ـ وهو أمي من أمة أمية ، ليس لها بذلك علم ، بما عرفوا من الكتب السالفة ، فتحققوا صدقه .

٦ـ الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس في العيان ، في كل ماوعد الله سبحانه ، وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيد بشرطه ، كقوله : ﴿ ومن يتوكلْ على الله فهو حَسْبُه ﴾ [الطلاق ٣/٦٥] و ﴿ ومن يؤمنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَه ﴾ [التغابن ١١/٦٤] و ﴿ ومن يتقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرجاً ﴾ [الطلاق ٢/٦٥] و ﴿ إنْ يكن منكم عِشْرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال ٦٥/٨] وشبه ذلك .

٧ـ الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي ، ولا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ، من ذلك ماوعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان ، بقوله عز وجل : ﴿ هو الذي أرسل رسولَه

بـالهُـدى ودينِ الحـق ، ليُظهره على الـدّين كلّـه ، ولـو كَرِه المُشْرِكـون ﴾ [التوبة ٣٣/٩] ، ففعل ذلك . ومنه قولـه تعـالى : ﴿ قل للـذين كفروا : ستُغلبون وتُحْشرون إلى جهنّم ، وبِئْسَ المهادُ ﴾ [آل عمران ١٢/٣] . ومنـه قـولـه تعـالى : ﴿ لقد صَدَق اللهُ رسولَه الرُّؤيا بالحقّ ، لتَدْخُلُنّ المسجدَ الحرامَ ، إن شاءَ اللهُ آمنين ﴾ [الفتح ٢٧/٤٨] . ومنـه قـولـه تعـالى : ﴿ الم . غُلِبتِ الرومُ في أدْنى الأرضِ ، وهُم من بَعْدِ غَلَبهم ، سيَغلبون . في بضْعِ سِنين ﴾ [الروم ١/٣٠ ـ ٣] .

فهـذه كلهـا أخبـار عن الغيـوب التي لا يقف عليهـا إلا رب العـالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، وقد عجز الزمان عن إبطال شيء منهـا ، سواء في الخلق والإيجـاد أم في بيـان أخبـار الأمم ، أم في وضع التشريع السوي لكل الأمم ، أم في توضيح كثير من المسائل العلمية والتـاريخيـة ، مثل ﴿ وأرسلنـا الريـاحَ لواقحَ ﴾ [الحجر ٢٢/١٥] وآية ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ [الأنبياء ٣٠/٢١] ، وآيـة ﴿ ومن كلّ شيءٍ خَلَقْنَا زَوْجين ﴾ [الذاريات ٤٩/٥١] وآيـة ﴿ والأرضَ مَـدَدْنَـاهـا وألقينا فيها رواسي ﴾ [الحجر ١٩/١٥] وآية إثبات كروية الأرض : ﴿ يكوّر الليلَ على النهـارِ ويكوّر النهـارَ على الليلِ ﴾ [الزمر ٥/٣٩] والتكوير : اللف على الجسم المستـدير . واختلاف مطـالع الشمس في آيـة ﴿ والشمسُ تَجْري لمستقرٍ لهـا ﴾ إلى قوله ﴿ وكلٌّ في فلكٍ يسبحون ﴾ [يس ٣٨/٣٦ ـ ٤٠] .

٨ ـ ماتضمنه القرآن من العلم الـذي هـو قـوام جميـع الأنـام ، في الحـلال والحرام ، وفي سـائر الأحكام ، فهو يشتمل على العلـوم الإلهيـة ، وأصـول العقـائـد الدينية وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب ، وقواعد التشريع السيـاسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان .

٩ ـ الحِكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي .

١٠ ـ التناسب في جميع ماتضمنه القرآن ظاهراً وبـاطنـاً ، من غير اختلاف ،

قال الله تعالى : ﴿ ولو كانَ من عندِ غيرِ الله ، لوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء ٨٢/٤] .

يظهر من بيان هذه الأوجه في إعجاز القرآن أنها تشمل الأسلوب والمعنى .

أما **خصائص الأسلوب** فهي أربعة :

الأولى ـ النسق البديع والنظم الغريب ، والوزن العجيب المتميز عن جميع كلام العرب ، شعراً ونثراً وخطابة .

الثانية ـ السمو المتناهي في جمال اللفظ ، ورقة الصياغة ، وروعة التعبير .

الثالثة ـ التآلف الصوتي في نظم الحروف ورصفها ، وترتيبها ، وصياغتها ، وإيحاءاتها ، بحيث تصلح خطاباً لكل الناس على اختلاف المستويات الفكرية والثقافية ، مع تسهيل سبيلها وحفظها لمن أراد ، قال تعالى : ﴿ ولقد يسَّرنا القرآنَ لِلذكْرِ فهل من مُدَّكر ﴾ [القمر ١٧/٥٤] .

الرابعة ـ تناسب اللفظ والمعنى ، وجزالة اللفظ وإيفاء المعنى ، ومناسبة التعبير للمقصود ، والإيجاز والقصد دون أي تزيُّد ، وترسيخ المعاني بصور فنية محسوسة تكاد تلمسها ، وتتفاعل معها ، بالرغم من تكرارها بصورة جذابة فريدة .

وأما **خصائص المعنى** فهي أربعة أيضاً :

الأولى ـ التوافق مع العقل والمنطق والعلم والعاطفة .

الثانية ـ قوة الإقناع ، واجتذاب النفس ، وتحقيق الغاية بنحو حاسم قاطع .

الثالثة ـ المصداقية والتطابق مع أحداث التاريخ ، والواقع المشاهد ، وسلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف ، خلافاً لجميع كلام البشر .

الرابعة ـ انطباق المعاني القرآنية على مكتشفات العلوم والنظريات الثابتة .

ويجمع هذه الخصائص آيات ثلاث في وصف القرآن ، وهي قوله تعالى : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فُصّلت من لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾ [هود ١/١١] وقوله سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا بالذِكْرِ لما جاءهم ، وإنه لكتابٌ عزيزٌ ، لا يأتيه الباطلُ من بَيْن يديه ، ولا مِنْ خَلْفه ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾ [فصلت ٤١/٤١ ـ ٤٢] وقوله عز وجل : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيتَه خاشِعاً متصدِّعاً من خَشْيةِ اللهِ ، وتلك الأمثالُ نَضْرِبُها للناسِ لعلّهم يتفكّرُون ﴾ [الحشر ٥٩/ ٢١] .

وسيظل القرآن الكريم ناطقاً بالمعجزات في كل عصر ، فهو ـ كما قال الرافعي[1] ـ كتاب كل عصر ، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز ، وهو معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء ، فهي باقية ما بقيت .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

خامساً ـ عربية القرآن وترجمته إلى اللغات الأخرى :

القرآن كله عربي[2] ، نزل بلسان العرب ، وما من لفظ فيه إلا وهو عربي أصلاً ، أو معرّب خاضع لموازين اللغة العربية وقوالبها ومقاييسها .. وقد زعم بعض الناس أن القرآن ليس عربياً خالصاً ، لاشتماله على بعض كلمات من أصل أعجمي (غير عربي) ، مثل (سندس) و (استبرق) وأنكر بعض العرب ألفاظ (قسورة) و (كُبّارا) ، و (عُجّاب) فدخل شيخ طاعن في السن على رسولِ الله ﷺ ، فقال له الرسول ﷺ : قم ، ثم قال له : اقعد ، كرر ذلك

---

(١) إعجاز القرآن : ص ١٧٣ ، ١٧٥

(٢) تفسير الطبري : ٢٥/١

مرات ، فقال الشيخ : أتهزأ بي ، يا ابن (قسورة) ، وأنا رجل (كبارا) ، إن هذا الشيء (عُجَاب) ! فسألوه ، هل هذا في اللغة العربية ؟ فقال : نعم .

وكان الإمام الشافعي رحمه الله أول من رد بكلامه الفصيح ، وحجته القوية على هذا الزعم ، مبيناً أنه ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب ، مفنداً حجج هؤلاء الزاعمين وأهمها ثنتان :

الأولى ـ أن في القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب .

والثانية ـ أن في القرآن ما ينطق به غير العرب .

ورد على الحجة الأولى : بأن جهل بعض العرب ببعض القرآن ليس دليلاً على عجمة بعض القرآن ، بل هو دليل على جهل هؤلاء ببعض لغتهم ، فليس لأحد أن يدعي الإحاطة بكل ألفاظ اللسان العربي ؛ لأنه أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها لفظاً، ولا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي .

ثم رد على الحجة الثانية : بأن بعض الأعاجم قد تعلم بعض الألفاظ العربية ، وسرت إلى لغاتهم ، ويحتمل أن يوافق لسان العجم أو بعض الألسنة قليلاً من لسان العرب ، وقد يكون بعض الألفاظ العربية من أصل أعجمي ، لكن هذا القليل النادر من أصل غير عربي قد سرى قديماً إلى العرب ، فعرّبوه ، وأنزلوه على طبيعة لغتهم ، وجعلوه صادراً من لسانهم ، بحسب حروفهم ومخارج تلك الحروف وصفاتها في لغة العرب ، وذلك مثل الألفاظ المرتجلة والأوزان المبتدأة لها ، وإن كانت في الأصل تقليداً في تغمتها للغات الأخرى[1] .

وتضافرت الآيات القرآنية بالتصريح بأن القرآن كله عربي ، جملة

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي : ص ٤١ ـ ٥٠ ، ف ١٣٢ ـ ١٧٠ ، وانظر المستصفى للغزالي : ٦٨/١ ، وروضة الناظر : ١٨٤/١

وتفصيلاً ، وأنه نزل بلسان العرب قوم النبي ﷺ ، منها قوله تعالى : ﴿ الر ، تلك آياتُ الكتابِ المبينِ . إنا أنزلناه قرآناً عربياً ، لعلّكم تَعْقِلون ﴾ [يوسف ١/١٢ ـ ٢] ومنها قوله سبحانه : ﴿ وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين . نَزَل به الروحُ الأمينُ . على قَلْبِك لتكونَ من المُنْذِرين . بلسانٍ عربي مبينٍ ﴾ [الشعراء ١٩٢/٢٦ ـ ١٩٥] ومنها : ﴿ وكذلك أنزلناه حُكْماً عربياً ﴾ [الرعد ٣٧/١٣] ومنها : ﴿ وكذلك أوْحينا إليك قُرآناً عربياً ، لتُنْذِرَ أمَّ القُرى ومن حَوْلها ﴾ [الشورى ٧/٤٢] ومنها : ﴿ حم . والكتابِ المبينِ . إنا جعلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تَعْقِلون ﴾ [الزخرف ١/٤٣ ـ ٣] ومنها : ﴿ قرآناً عربياً غيرَ ذي عِوَج ، لعلّهم يتقون ﴾ [الزمر ٢٨/٣٩] .

ورتب الشافعي على عربية القرآن حكماً مهماً جداً ، فقال : فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغَه جهدُه ، حتى يشهد به أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد ، وغير ذلك .

وكان من مزية عربية القرآن وفضله على العرب أمران عظيمان هما :

الأول ـ إن تعلم القرآن والنطق به على أصوله يقوّم اللسان ، ويفصّح المنطق ، ويصحح الكلام ، ويساعد على فهم لغة العرب ، فليس هناك شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة ، حين تتأثر باللهجات العامية المختلفة .

الثاني ـ كان للقرآن الفضل الأكبر في الحفاظ على اللغة العربية ، في مسيرة القرون الأربعة عشر الغابرة ، بما اشتملت عليه من فترات ضعف وتخلف وتسلط المستعمرين الأوربيين على بلاد العرب ، بل إن القرآن عامل أساسي في توحيد العرب ، وباعث قوي ساعد في انتفاضة العرَب ضد المحتل الغاصب والمستعمر البغيض ، مما أعاد الصحوة الإسلامية إلى أوطان العرب والإسلام ، وربط بين

المسلمين برباط الإيمان والعاطفة القوية الصادقة ، لاسيما في أوقات المحنة والحروب ضد المحتلين .

ترجمة القرآن :

يحرم ولا يصح شرعاً ترجمة نظم القرآن الكريم : لأن ذلك متعذر غير ممكن ، بسبب اختلاف طبيعة اللغة العربية التي نزل بها القرآن عن سائر اللغات الأخرى ، ففي العربية المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه والصور الفنية التي لا يمكن صبها بألفاظها في قوالب لغة أخرى ، ولو حدث ذلك لفسد المعنى ، واختل التركيب ، وحدثت العجائب في فهم المعاني والأحكام ، وذهبت قدسية القرآن ، وزالت عظمته وروعته ، وتبددت بلاغته وفصاحته التي هي سبب إعجازه .

لكن يجوز شرعاً ترجمة معاني القرآن أو تفسيره ، على أنه ليس هو القرآن ، فلا تعد ترجمة القرآن قرآناً ، مهما كانت الترجمة دقيقة ، ولا يصح الاعتماد عليها في استنباط الأحكام الشرعية : لأن فهم المراد من الآيات يحتمل الخطأ ، وترجمتها إلى لغة أخرى يحتمل الخطأ أيضاً ، ولا يصح الاعتماد على الترجمة مع وجود هذين الاحتمالين[١] .

ولا تصح الصلاة بالترجمة[٢] ، ولا يتعبد بتلاوتها : لأن القرآن اسم للنظم والمعنى ، والنظم : هو عبارات القرآن في المصاحف . والمعنى : هو ماتدل عليه العبارات ، ولا تعرف أحكام الشرع الثابتة بالقرآن إلا بمعرفة النظم والمعنى .

---

(١) وهذا هو الحادث الآن ، فقد ترجم القرآن الكريم إلى زهاء خمسين لغة ، وكلها ترجمات ناقصة ، أو مشوهة ، وغير موثوقة ، وحبذا لو صدرت ترجمة من ثقات العلماء المسلمين .

(٢) تفسير الرازي : ٢٠٩/١

سادساً ـ الحروف التي في أوائل السور ـ الحروف المقطعة :

بدأ الحق سبحانه وتعالى بعض السور المكية أو المدنية القرآنية ببعض حروف التهجي أو الحروف المقطعة ، منها البسيط المؤلف من حرف واحد ، وذلك في سور ثلاث : صاد وقاف والقلم ، إذ افتتحت الأولى بحرف : ﴿ ص ﴾ والثانية بحرف : ﴿ ق ﴾ ، والثالثة بحرف : ﴿ ن ﴾ .

ومنها فواتح عشر سور مؤلفة من حرفين ، سبع منها متماثلة تسمى : الحواميم ، لابتدائها بحرفي : ﴿ حٰمٓ ﴾ ، وهي سور : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ، وتتمة العشر : هي سور : طه ، وطس ، ويس .

ومنها فواتح ثلاث عشرة سورة مركبة من ثلاثة أحرف ، ست منها بدئت بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ وهي سور : البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة . وخمس منها بلفظ ﴿ الٓرٰ ﴾ : وهي سور : يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحِجْر . واثنتان منها بدئت بـ ﴿ طٰسٓمٓ ﴾ ، وهما سورتا الشعراء والقصص .

ومنها سورتان افتتحتا بأربعة أحرف ، وهما سورة الأعراف وفاتحتها ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ وسورة الرعد وفاتحتها ﴿ الٓمٓرٰ ﴾ .

ومنها سورة واحدة افتتحت بخمسة حروف هي سورة مريم ومستهلها : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ . فصارت مجموعة الفواتح القرآنية تسعاً وعشرين ، وهي على ثلاثة عشر شكلاً ، وحروفها أربعة عشر ، وهي نصف الحروف الهجائية[1]

وقد اختلف أهل التأويل المفسرون في بيان المقصود من فواتح السور[2] ،

---

(١) مباحث في علوم القران للدكتور صبحي الصالح : ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي : ١٥٤/١ وما بعدها .

فقال جماعة : هي سرّ الله في القرآن ، ولله في كل كتاب سر ، وهي مما استأثر الله بعلمه ، فهو من المتشابه الذي نؤمن به ، على أنه من عند الله ، دون تأويل ولا تعليل ، لكنه أمر مفهوم عند النبي ﷺ .

وقال جماعة : لابد أن يكون لذكره معنى وجيه ، والظاهر أنه إيماء إلى إقامة الحجة على العرب وتثبيته في أسماعهم وآذانهم ، بعد أن تحداهم القرآن على أن يأتوا بمثله ، عَلماً بأن القرآن مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم .

فكأنه يقول لهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه ؟ مع أنه كلام عربي ، مكون من حروف هجائية، ينطق بها كل عربي : أمي أو متعلم ، وهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة ، ويعتمدون على هذه الحروف في الكلام : نثره وشعره وخطابته وكتابته ، وهم يكتبون بهذه الحروف ، ومع هذا فقد عجزوا عن مجاراة القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ، فقامت الحجة عليهم أنه كلام الله ، لا كلام بشر ، فيجب الإيمان به ، وتكون الفواتح الهجائية تقريعاً لهم وإثباتاً لعجزهم أن يأتوا بمثله .

لكنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ، كانوا مكابرين معاندين في عدم الإيمان به ، وقالوا ببلاهة وسخف ، وسطحية وسذاجة عن محمد والقرآن : محمد ساحر ، شاعر ، مجنون ، والقرآن : أساطير الأولين . وذلك كله آية الإفلاس ، ومظهر الضعف ، وفقد الحجة ، وكذب المعارضة والممانعة ، وكفر المقلّدة ، والعكوف على التقاليد العتيقة البالية ، والعقائد الوثنية الموروثة الخرقاء .

والرأي الثاني هو رأي جماهير المفسرين والمحققين من العلماء ، وهو المعقول المقتضي فتح الأسماع ، واستماع القرآن ، والإقرار بأنه كلام الله تعالى .

سابعاً ـ التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في القرآن :

إن القرآن الكريم الذي نزل بلسان العرب ، لم يخرج عن طبيعة اللغة العربية

في استعمال اللفظ بطريق الحقيقة تارة (وهي استعمال اللفظ فيما وضع له من المعنى في اصطلاح التخاطب) واستعماله بطريق المجاز (استعمال الكلمة في معنى آخر غير ما وضعت له ، لعلاقة بين المعنى الأصلي للكلمة ، والمعنى الآخر الذي استعملت فيه) ، واستخدام التشبيه (وهو أن شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف ونحوها ، ملفوظة أو ملحوظة) والاعتماد على الاستعارة (وهي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه ، وعلاقته دائماً المشابهة)[1] .

أما التشبيه : فكثير في القرآن ، سواء أكان بحسب وجه الشبه مفرداً أم مركباً ، فمن التشبيه المفرد أو غير التمثيل (وهو ما لا يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد ، بل من مفرد ، مثل زيد أسد ، انتزع وجه الشبه من مفرد ، وهو أن زيداً أشبه الأسد من جهة الشجاعة) : قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون ﴾ [آل عمران ٥٩/٣] .

ومن التشبيه المركب أو تشبيه التمثيل (وهو ما كان وجه الشبه منتزعاً فيه من متعدد ، أو هو كما قال السيوطي في الإتقان : أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض) قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ، ثم لم يَحْمِلُوها ، كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة ٥/٦٢] فالتشبيه مركب من أحوال الحمار ، وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع ، مع تحمل التعب في استصحابه . وقوله تعالى : ﴿ إنما مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناه من السماء ، فاختلطَ به نباتُ الأرْضِ ، مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ ، حتى إذا أخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها ، وازَّيَّنت ، وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تَغْنَ بالأمس ﴾ [يونس ٢٤/١٠] فيه عشر جمل ، وقع التركيب من مجموعها ، بحيث لو سقط منها شيء ، اختل التشبيه ، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح : ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣

تقضيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح ، أتاها بأس الله فجأة ، فكأنها لم تكن بالأمس .

وأما **الاستعارة** التي هي من المجاز اللغوي أي في الكلمة الواحدة لا كالمجاز العقلي فكثيرة أيضاً[1] ، مثل قوله تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفّس ﴾ [التكوير ١٨/٨١] . استعير خروج النفَس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند ظهور الفجر قليلاً ، ومثل قوله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلونَ أموال اليتامى ظُلْماً إنما يَأكلون في بطونهم نَاراً .. ﴾ [النساء ١٠/٤] شبه مال الأيتام بالنار ، بجامع أن أكله يؤذي ، كما تؤذي النار . ومثل قوله تعالى : ﴿ كتابٌ أنْزَلْنَاه إليك لتُخرجَ الناسَ من الظُّلُمات إلى النورِ ﴾ [إبراهيم ١/١٤] أي لتخرج الناس من جهالاتهم وضلالاتهم إلى الدين القيم والعقيدة الحقة والعلم والأخلاق ، شبه الجهالة والضلالة والعداوة بالظلام ، في أن الإنسان لا يهتدي إلى الطريق الواضح في كل منهما ، وشبه الدين القيم بالنور في أن الإنسان يهتدي إلى الطريق الواضح في كل منهما .

وأما **المجاز** : فأنكر جماعة من العلماء وجوده في القرآن (منهم الظاهرية ، وبعض الشافعية كأبي حامد الاسفراييني وابن القاصّ ، وبعض المالكية كابن خُوَيْز مَنْدَاد البصري ، وابن تيمية) وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزه عنه ، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير ، وذلك محال على الله ، فالجدار لا يريد في قوله تعالى : ﴿ يريد أن ينقضّ ﴾ [الكهف ٧٧/١٨] . والقرية لا تسأل في قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف ٨٢/١٢][2] .

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ١٠٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٩

لكن الذين تذوقوا جمال الأسلوب القرآني ، يرون أن هذه الشبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن لسقط منه شطر الحسن ، مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلْ يَدَك مغلولةً إلى عُنُقِك ، ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ ، فتَقْعُدَ ملوماً مَحْسُوراً ﴾ [الإسراء ٢٩/١٧] دلت القرينة على أن المعنى الحقيقي غير مراد ، وأن الآية تنهى عن كل من التبذير والبخل .

والكناية : « وهي لفظ أريد به لازم معناه » كثيرة أيضاً في القرآن ؛ لأنها من أبلغ الأساليب في الرمز والإيماء ، فالله تعالى رمز إلى الغاية من المعاشرة الزوجية ، وهي التناسل ، بلفظ (الحرث) في قوله : ﴿ نساؤكم حرثٌ لكم ، فأتوا حَرْثَكم أنّى شئتم ﴾ [البقرة ٢٢٣/٢] ، ووصف الله العلاقة بين الزوجين ، بما فيها من مخالطة وملابسة ، بأنها لباس من كل منهما للآخر ، في قوله : ﴿ هنّ لباسٌ لكم ، وأنتم لباسٌ لهنّ ﴾ [البقرة ١٨٧/٢] ورمز إلى الجماع بقوله سبحانه : ﴿ أو لامستم النساءَ ﴾ [النساء ٤٣/٤] وقوله : ﴿ أُحلّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم ﴾ [البقرة ١٨٧/٢] . وكنى عن عفة النفس وطهارة الذيل بقوله تعالى : ﴿ وثيابَك فطهر ﴾ [المدثر ٤/٧٤] .

والتعريض : « وهو أن تذكر اللفظ وتستعمله في معناه ، وتلوّح به إلى ماليس من معناه ، لا حقيقة ولا مجازاً » مستعمل أيضاً في القرآن ، مثاله : ﴿ وقالوا : لاتَنْفِروا في الحرّ ، قل : نارُ جهنمَ أشدُّ حراً ﴾ [التوبة ٨١/٩] ليس المراد به ظاهر الكلام وهو ازدياد حر جهنم ، وكونه أشد من حر الدنيا ، ولكن الغرض الحقيقي هو التعريض بهؤلاء المتخلفين عن القتال ، المعتذرين بشدة الحر ، بأنهم سيردون جهنم ، ويجدون حرها الذي لا يوصف . ومنه قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم : ﴿ بل فَعَلَهُ كبيرُهم هذا ﴾ [الأنبياء ٦٣/٢١] نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة ، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم ، من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والإله لا يكون عاجزاً .

فوائد :

القرآن ثلاثون جزءاً ٣٠

عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ١١٤

عدد آي القرآن ٦٢٣٦ على طريقة الكوفيين .

الأمر	١٠٠٠
النهي	١٠٠٠
الوعد	١٠٠٠
الوعيد	١٠٠٠
القصص والأخبار	١٠٠٠
العبر والأمثال	١٠٠٠
الحرام والحلال	٥٠٠
الدعاء	١٠٠
الناسخ والمنسوخ	٦٦

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الاستعاذة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

١ ـ **معناها** : أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان الملعون المذموم أن يغويني ويضلني أو يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحضني على ما نهيت عنه ، فإنه لا يكفه ويمنعه إلا رب العالمين . والشيطان : واحد الشياطين ، وسمي بذلك لبعده عن الحق وتمرده . والرجيم : أي المبعد من الخير ، المهان ، المرمي باللعن والسب .

٢ ـ أمر الله سبحانه بالاستعاذة عند أول كل تلاوة للقرآن ، بقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم ﴾ [النحل ٩٨/١٦] أي إذا أردت أن تقرأ ، فتعوذ ، وقوله : ﴿ ادفعْ بالتي هي أحسنُ السيئةَ ، نحن أعلمُ بما يَصِفُون . وقلْ : رب أعوذُ بك من هَمَزاتِ الشياطين ، وأعوذُ بك ربِّ أن يَحْضرون ﴾ [المؤمنون ٩٦/٢٣ ـ ٩٨] وهذا يوحي إلى أن القرآن جعل دفع السيئة بالحسنة علاجاً لشيطان الإنس ، والاستعاذة علاجاً لشيطان الجن .

وتطبيقاً لهذا الأمر في السنة ورد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ « أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح ، ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثه »[1] وقال ابن المنذر : « جاء عن النبي ﷺ ـ فيما رواه ابن مسعود ـ أنه كان يقول قبل القراءة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . وهذا اللفظ هو الذي عليه جمهور العلماء في التعوذ ؛ لأنه لفظ كتاب الله .

٣ ـ الاستعاذة مندوبة في رأي جمهور العلماء في كل قراءة في غير الصلاة .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي (نيل الأوطار : ١٩٦/٢ وما بعدها) .

أما في الصلاة ، فقال المالكية : يكره التعوذ والبسملة قبل الفاتحة والسورة ، إلا في قيام رمضان ، لحديث أنس : « أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين »[1] وقال الحنفية : يتعوذ في الركعة الأولى فقط .

ورأي الشافعية والحنابلة : أنه يسن التعوذ سراً في أول كل ركعة قبل القراءة .

٤ ـ أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ، ولا آية منه .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) متفق عليه بين البخاري ومسلم .

البسملة : بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ **معناها** : أبدأ بتسمية الله وذكره وتسبيحه قبل كل شيء ، مستعيناً به في جميع أموري ، فإنه الرب المعبود بحق ، واسع الرحمة ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، المتفضل بدوام الفضل والرحمة والإحسان .

٢ ـ **حكمتها** : ابتدأ الله تعالى بالبسملة سورة الفاتحة وكل سور القرآن ، ماعدا سورة التوبة ، تنبيهاً على أن ما في كل سورة حق ، ووعد صادق للعباد ، فهو سبحانه يفي لهم بجميع ماتضمنت السورة من وعد ولطف وبر ، وإرشاداً إلى استحباب البدء بالبسملة في كل الأعمال ، التماساً لمعونة الله وتوفيقه ، ومخالفة لغير المؤمنين الذين يستفتحون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو زعمائهم .

قال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمنت جميع الشرع ؛ لأنها تدل على الذات وعلى الصفات[1] .

٣ ـ **هل هي آية من السورة** ؟ اختلف العلماء في البسملة ، أهي آية من الفاتحة وغيرها من السور أم لا ؟ على ثلاثة أقوال :

فقال المالكية والحنفية : ليست البسملة بآية من الفاتحة ولا غيرها ، إلا من سورة النمل في أثنائها ، لحديث أنس رضي الله عنه قال : « صليت مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فلم أسمع أحداً منهم ،

---

(١) وأما حديث « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع » فهو ضعيف ، رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة .

يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم »[١] أي أن أهل المدينة كانوا لا يقرؤون البسملة في صلاتهم في مسجد المدينة ، إلا أن الحنفية قالوا : يقرأ المنفرد : بسم الله الرحمن الرحيم ، مع الفاتحة ، في كل ركعة سراً ، فهي قرآن ، لكنها ليست بعض السورة ، وإنما هي للفصل بين السور . وقال المالكية : لا يقرؤها في الصلاة المكتوبة ، جهراً كانت أو سراً ، لا في الفاتحة ، ولا في غيرها من السور ، ويجوز قراءتها في النافلة . وقال القرطبي : الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد ، وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه[٢] ، لكن هذا غير ظاهر ؛ لأنه ليس بلازم تواتر كل آية .

وقال عبد الله بن المبارك : إنها آية من كل سورة ، لما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسماً ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : « نزلت علي آنفاً سورة » فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾ [الكوثر ١/١٠٩ ـ ٣] .

وقال الشافعية والحنابلة : البسملة آية من الفاتحة ، يجب قراءتها في الصلاة ، إلا أن الحنابلة قالوا كالحنفية : يقرأ بها سراً ، ولا يجهر بها . وقال الشافعية : يُسِرُّ بها في الصلاة السرية ، ويجهر بها في الصلاة الجهرية ، كما يجهر في سائر الفاتحة . ودليلهم على كونها آية في الفاتحة : ما رواه الدارقطني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا قرأتم : الحمد لله رب العالمين ، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » وإسناده صحيح .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) تفسير القرطبي : ٩٣/١

ودليل الجهر بها لدى الشافعية : ما روى ابن عباس رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ جهر ببسم الله الرحمن الرحيم »[١] ولأنها تقرأ على أنها آية من القرآن ، بدليل أنها تقرأ بعد التعوذ ، فكان سنتها الجهر كسائر الفاتحة .

وتردد قول الشافعي في كون البسملة آية في سائر السور ، فمرة قال : هي آية من كل سورة ، ومرة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها ، والأصح أنها آية من كل سورة كالفاتحة ، بدليل اتفاق الصحابة على كتبها في أوائل كل سورة ، ماعدا سورة براءة ، مع العلم بأنهم كانوا لا يكتبون في المصاحف ماليس من القرآن . وبغض النظر عن الخلاف الفقهي السابق ، اتفقت الأمة على أن البسملة آية في سورة النمل ، وعلى جواز كتب البسملة في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل ، فإن كان الكتاب ديوان شعر فمنعه الشعبي والزهري ، وأجازه سعيد بن جبير وأكثر المتأخرين[٢] .

فضل البسملة : قال علي كرم الله وجهه في قوله « بسم الله » : إنه شفاء من كل داء ، وعونٌ على كل دواء . وأما « الرحمن » فهو عون لكل من آمن به ، وهو اسم لم يسم به غيره . وأما « الرحيم » فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

ملاحظة : أثبتُّ النص القرآني برسم المصحف العثماني ، فمثلاً : « وأولوا » و « يتلوا » فيها ألف ، و « الصلوٰة » و « يريكم » هكذا ، أما في الإملاء الحديثة فلا تكتب الألف في الكلمتين ، وتكتب « الصلاة » و « يراكم » اليوم هكذا ، وأما في شرحي أو تفسيري فأتقيد بالقواعد الجديدة .

كذلك لا أعرب بعض الكلمات المعروفة ، مثل ﴿ ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين ﴾ [المرسلات ١٧-١٨] لم أعرب « نتبعهم » التي هي فعل مضارع مرفوع ؛ لأنه كلام مستأنف ، وليس مجزوماً مثل « نهلك » .

---

(١) تكتب « بسم الله » بغير ألف ، استغناء عنها بباء الإلصاق ، في اللفظ والخط ، لكثرة الاستعمال ، بخلاف قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك » فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال .

(٢) تفسير القرطبي : ٩٧/١

أمل ودعاء وغاية

اللهم اجعل كل ماتعلّمته ـ حفظته أو نسيته ، وعلّمته ، طوال حياتي ، وكتبته أو ألّفته[١] من فيض فضلك ، ومن حركة القلم الذي أكتب به ، وومضة الفكر وإشعاعاته ، وإجهاد العقل ونتاجه ، وعناء النفس ليل نهار ، ونور البصيرة والبصر ، وإصغاء السمع ، ووعي القلب ... ذخراً لي عندك ، مُخْلصاً لك فيه عملي ، ومن أجل إعلاء كلمتك ونشر دينك ، وتيسير العلم لأهله على وفق أذواق العصر والمعاصرين ، وبقصد مرضاتك ووجهك الكريم ، مبعداً عني بُعْد المشرقين كل ما يشوب ذلك من رياء أو سمعة أو شهرة ، تفيض به علي من جودك وإحسانك ، واحتساباً للأجر والثواب الواسع من لدنك وجنابك ، فتقبّل مني ياكريم قليلي في كثيرك ، ويسيري في سعتك ، فإني في عصر لم أتمكن فيه من القيام بجهاد مثلما قام به السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وأجزلْ به الأجر والنفع المنشود في حياتي وبَعْدَ مماتي ، وحتى يوم العرض الأكبر عليك ، وثقّل به ميزان حسابي ، وحقق لي بفضلك ورحمتك النجاة يوم المعاد ، يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، ياأكرم مسؤول ، والحمد لله رب العالمين .

أ ـ د : وهبة مصطفى الزحيلي

---

(١) التي منها أكثر من عشرين بحثاً (للموسوعة الفقهية في الكويت ، ولمؤسسة آل البيت في الأردن ، ولمجمع الفقه الإسلامي في جدة ـ موسوعة الفقه ـ وللموسوعة العربية السورية) ، ومنها الموسوعات العلمية الثلاث : أصول الفقه الإسلامي في مجلدين ، والفقه الإسلامي وأدلته في ثمانية مجلدات ، وهذا التفسير الذي ركزت فيه على فقه الحياة الأكبر في القرآن الكريم ، ومؤلفات أخرى .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأنفال ٨ / ٢٤

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه

في جامعة دمشق

الجزء الأول


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة الفاتحة

مكية وآياتها سبع
نزلت بعد المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة معاني القرآن العظيم ، واشتملت على أصول الدين وفروعه ، وتناولت العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والإيمان بالبعث وبصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والإرشاد إلى طلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، وتجنب طريق المنحرفين عن هداية الله تعالى .

أسماؤها :

للفاتحة اثنا عشر اسماً ذكرها القرطبي ، وهي الصلاة ، للحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين »[1] ، وسورة الحمد ؛ لأن فيها ذكر

---

(١) رواه مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

الحمد ، وفاتحة الكتاب ؛ لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً وكتابة ، وتفتتح بها الصلوات ، وأم الكتاب في رأي الجمهور ، وأم القرآن في رأي الجمهور ، لقوله ﷺ : « الحمد لله : أمُّ القرآن ، وأمُّ الكتاب ، والسبعُ المثاني »[١] ، والمثاني ؛ لأنها تثنى في كل ركعة ، والقرآن العظيم ، لتضمنها جميع علوم القرآن ومقاصده الأساسية ، والشفاء لقوله ﷺ : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم »[٢] ، والرُّقْية ، لقوله ﷺ لمن رقى بها سيد الحي : « ما أدراك أنها رقية »[٣] ، والأساس ، لقول ابن عباس : « ... وأساس الكُتُب : القرآن ، وأساس القرآن : الفاتحة ، وأساس الفاتحة : بسم الله الرحمن الرحيم » ، والوافية ؛ لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال ، فلو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز عند الجمهور ، والكافية ؛ لأنها تكفي عن سواها ، ولا يكفي سواها عنها . هذه هي أسماء سورة الفاتحة ، وأشهرها ثلاث : الفاتحة ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني . والسورة : طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات ، فأكثر ، لها اسم يعرف بطريق الرواية الثابتة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فضلها :

ثبت في الأحاديث الصحيحة فضل الفاتحة ، منها قوله ﷺ : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي ـ كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي ـ مقسومة بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل »[٤] .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة .

(٢) رواه الدارمي عن عبد الملك بن عمير ، بلفظ : « في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء »

(٣) أخرجه الأئمة عن أبي سعيد الخدري .

(٤) رواه الترمذي عن أبي بن كعب ، ورواه أيضاً عنه الإمام أحمد في المسند بلفظ : « والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

ومنها أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلّى : « لأعلّمنك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته »[1] . وهذان الحديثان يشيران إلى قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيمَ ﴾ [الحِجْر ٨٧/١٥] لأنها سبع آيات تثنى في الصلاة ، أي تعاد .

الإعراب :

الباء من ﴿ بسم الله ﴾ زائدة بمعنى الإلصاق ، والراجح أنها بمعنى الاستعانة ، والجار والمجرور خبر مبتدأ محذوف عند البصريين ، وتقديره : ابتدائي بسم الله ، أي كائن باسم الله ، أو في موضع نصب بفعل مقدر عند الكوفيين ، وتقديره : ابتدأت بسم الله .

و ﴿ الحمد لله ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿ رب العالمين ﴾ صفة الله .

و ﴿ مالك ﴾ مجرور على البدل ، لا على الصفة ؛ لأنه نكرة ، بسبب أنه اسم فاعل لا يكتسب التعريف من المضاف إليه ، إذا كان للحال أو الاستقبال . و ﴿ يوم الدين ﴾ ظرف زمان .

و ﴿ إياك ﴾ ضمير منصوب منفصل ، والعامل فيه ﴿ نعبد ﴾ والكاف للخطاب .

و ﴿ اهدنا ﴾ سؤال وطلب ، فعل أمر يتعدى إلى مفعولين .

و ﴿ صراط الذين ﴾ بدل من الصراط الأول . و ﴿ الذين ﴾ اسم موصول . و ﴿ غير ﴾ مجرور على البدل من ضمير ﴿ عليهم ﴾ : وهذا ضعيف ، أو من ﴿ الذين ﴾ أو مجرور على الوصف للذين . و ﴿ لا ﴾ في ﴿ ولا الضالين ﴾ زائدة للتوكيد عند البصريين ، وبمعنى « غير » عند الكوفيين . وأما « آمين » فدعاء ، وليس من القرآن ، وهو اسم فعل ومعناه : اللهم استجب .

البلاغة :

﴿ الحمد لله ﴾ جملة خبرية لفظاً ، إنشائية معنى ، أي قولوا : الحمد لله ، وهي مفيدة قصر الحمد عليه تعالى .

و ﴿ إياك نعبد ... ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وتقديم المفعول يفيد القصر ، أي لا نعبد سواك .

---

(١) خرّجه البخاري .

و ﴿ اهدنا الصراط ﴾ أي ثبتنا عليه ، فالمراد به دوام الطلب واستمراره .

و ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ فيه حذف ، تقديره : غير صراط المغضوب عليهم .

المفردات اللغوية :

﴿ الحمد ﴾ الثناء بالجميل على الفعل الاختياري ، وهو أعم من الشكر ؛ لأن الشكر يكون مقابل النعمة . ﴿ الله ﴾ : علم على الذات العلية المقدسة ، ومعناه : المعبود بحق ، وقيل : إنه اسم الله الأعظم ، ولم يتسمّ به غيره . أما « الإله » فهو المعبود بحق أو باطل ، يطلق على الله تعالى وعلى غيره . ﴿ رب ﴾ الرب : المالك والسيد المعبود والمصلح والمدبر والجابر والقائم ، فيه معنى الربوبية والتربية والعناية بالمخلوقات . ﴿ العالمين ﴾ جمع عالَم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، وهو أنواع كعالم الإنسان والحيوان والنبات والذر والجن . ولفظ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، مثل رهط وقوم .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ صفتان لله مشتقتان من الرحمة ، لوحظ في كل منهما معنى معين ، فالرحمن : صيغة مبالغة بمعنى : عظيم الرحمة ، وهو اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، وأكثر العلماء على أن ﴿ الرحمن ﴾ اسم مختص بالله عز وجل ، ولا يجوز أن يسمى به غيره . و ﴿ الرحيم ﴾ بمعنى دائم الرحمة . ولما كان في اتصافه تعالى بـ ﴿ رب العالمين ﴾ ترهيب ، قرنه بـ ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ .

﴿ مالك يوم الدين ﴾ أي مالك يوم الحساب والمكافأة والجزاء على الأعمال ، والأمر كله في قبضته يوم القيامة ، ومن عرف أن الله ملك يوم الدين ، فقد عرفه بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى .

﴿ إياك نعبد ﴾ نخصك بالعبادة ولا نعبد غيرك ، ومعناه نطيع ، والعبادة : الطاعة والتذلل ﴿ وإياك نستعين ﴾ أي نطلب العون والتأييد والتوفيق ، ونخصك بطلب المعونة ، فأنت مصدر العون والفضل والإحسان ، ولا يملك القدرة على عوننا أحد . وقد جاء الفعلان « نعبد ونستعين » بصيغة الجمع ، لا بصيغة المفرد « إياك أعبد وإياك أستعين » للاعتراف بقصور العبد وحده عن الوقوف أمام الله ، فكأنه يقول : لا يليق بي الوقوف وحدي وبمفردي في مناجاتك ، وأخجل من تقصيري وذنوبي ، بل أنضم إلى سائر المؤمنين ، وأتوارى بينهم ، فتقبل دعائي معهم ، فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ عرفنا ووفقنا ودلنا على الطريق الموصل إلى الحق ، وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُربك . والصراط المستقيم : الطريق المعتدل : طريق الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك ، وختمت برسالاتهم رسالة خاتم النبيين ، وهو جملة ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، من عقائد وأحكام وآداب وتشريع ديني ، كالعلم الصحيح بالله والنبوة وأحوال الاجتماع .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ أي طريق من أنعمت عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين السابقين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً . ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ أي لا تجعلنا مع أولئك الحائدين عن طريق الاستقامة ، المبعدين عن رحمة الله ، المعاقبين أشد العقاب ؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه ، وضلوا الطريق . ويرى الجمهور أن المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالين هم النصارى . والحق : أن المغضوب عليهم : هم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه الله لعباده ، فرفضوه ونبذوه . والضالون : هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهم الذين لم تبلغهم رسالة أو بلغتهم بنحو ناقص .

التأمين : « آمين » دعاء ، أي تقبل منا واستجب دعاءنا ، وهي ليست من القرآن ، ولم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام ، ويسن ختم الفاتحة بها ، بعد سكتة على نون ﴿ ولا الضالين ﴾ ليتميز ماهو قرآن مما ليس بقرآن . ودليل سنيتها ما رواه مالك والجماعة (أحمد والأئمة الستة) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمّن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة ، غُفر له ماتقدم من ذنبه » .

آراء العلماء في الجهر والإسرار بالتأمين :

للعلماء رأيان : قال الحنفية ، والمالكية في الراجح : الإخفاء أو الإسرار بآمين أولى من الجهر بها ؛ لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ادعوا ربّكم تضرُّعاً وخُفْيةً ﴾ [الأعراف ٥٥/٧] وقال ابن مسعود : « أربع يخفيهن الإمام : التعوذ ، والتسمية ، والتأمين ، والتحميد » أي قول : ربنا لك الحمد .

ورأى الشافعية والحنابلة : أن التأمين سراً في الصلاة السرية ، وجهراً فيما يجهر فيه بالقراءة ، ويؤمن المأموم مع تأمين إمامه ، لحديث أبي هريرة المتقدم : « إذا أمّن الإمام فأمنوا ... » ودليلهم على هذا التفصيل : حديث أبي هريرة : « كان رسول الله ﷺ إذا تلا : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : آمين ، حتى يسمع من يليه من الصف الأول »[1] وحديث وائل بن حُجْر : « سمعت

(١) رواه أبو داود وابن ماجه ، وقال : حتى يسمعها أهل الصف الأول ، فيرتج بها المسجد .

النبي ﷺ قرأ : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقال : آمين ، يمدُّ بها صوته »[١] .

التفسير والبيان :

أرشدنا الله تعالى إلى أن نبدأ كل أعمالنا وأقوالنا بالبسملة ، فهي مطلوبة لذاتها ، محققة للاستعانة باسمه العظيم . وعلمنا سبحانه كيف نحمده على إحسانه ونعمه ، فهو صاحب الثناء بحق ، فالحمد كله لله دون سواه ، لأنه مالك الملك ورب العوالم والموجودات كلها ، أوجدها ورباها وعني بها ، وهو صاحب الرحمة الشاملة الدائمة ، ومالك يوم الجزاء والحساب ليقيم العدل المطلق بين العباد ، ويحقق للمحسن ثوابه ، وللمسيء عقابه . فهذه الصفات تقتضينا أن نخص الله بالعبادة وطلب المعونة ، والخضوع التام له ، فلا نستعين إلا به ، ولا نتوكل إلا عليه ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ؛ لأنه المستحق لكل تعظيم ، والمستقل بإيجاد النفع ودفع الضر .

وقد تعصف الأهواء بالنفوس ، وتزيغ بالعقول ، فلا غاصم من التردي في الشهوات ومتاهات الانحراف إلا الله ، لذا أرشدنا الحق سبحانه إلى طلب الهداية والتوفيق منه ، حتى نسير على منهج الحق والعدل ، ونلتزم طريق الاستقامة والنجاة ، وهو طريق الإسلام القديم المستمر الذي أنعم الله به على النبيين والصديقين والصالحين . وهذا شأن العبد العابد الناسك العاقل العارف حقيقة نفسه ومصيره في المستقبل ، لا شأن الكافر الجاحد الضال المنحرف ، الذي أعرض عن طريق الاستقامة عناداً ، أو ميلاً مع الأهواء ، أو جهلاً وضلالاً ، وما أكثر الضالين عن طريق الهداية ، المتنكبين منهج الاستقامة ، الذين استحقوا الغضب والسخط الإلهي !

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

فاللهم أدم علينا البقاء في طريق الهداية ، وتقبل ثناءنا ودعاءنا واحفظنا من الغواية والضلال .

وبه تبين أن الناس فريقان : فريق الهدى ، وفريق الضلال[١] . وقد منح الله تعالى للإنسان خمس هدايات يتوصل بها إلى سعادته[٢] .

١ ـ هداية الإلهام الفطري : وتكون للطفل منذ ولادته ، فهو يحس بالحاجة إلى الطعام والشراب ، فيصرخ طالباً له إن غفل عنه والداه .

٢ ـ هداية الحواس : وهي متممة للهداية الأولى ، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان ، بل هما في البداية أكمل في الحيوان من الإنسان ، إذ إلهام الحيوان يكمل بعد ولادته بقليل ، ويكتمل في الإنسان تدريجياً .

٣ ـ هداية العقل : وهي أسمى من الهدايتين السابقتين ، فالإنسان خلق مدنياً بالطبع ليعيش مع غيره ، ولا يكفي الحس الظاهر للحياة الاجتماعية ، فلا بد له من العقل الذي يوجهه إلى مسالك الحياة ، ويعصمه من الخطأ والانحراف ، ويصحح له أغلاط الحواس ، والانزلاق في تيارات الهوى .

٤ ـ هداية الدين : وهي الهداية التي لا تخطئ ، والمصدر الذي لا يضل ، فقد يخطئ العقل ، وتنجرف النفس مع اللذات والشهوات ، حتى توردها موارد الهلاك ، فيحتاج الإنسان إلى مقوّم مرشد هادٍ لا يتأثر بالأهواء ، فتسعفه هداية الدين لإرشاده إلى الطريق الأقوم ، إما بعد الوقوع في الخطأ أو قبله ، وتظل هذه الهداية هي الحارس الأمين الذي يفيء إليها الإنسان للتزود بمفاتيح الخير ، والتسلح بمغلاق الشر ، فيأمن العثور ، ويضمن النجاة ، وتُعرّفه بحدود ما يجب

---

(١) الضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، ويضاده الهداية .

(٢) تفسير المنار : ٦٢/١ ، تفسير المراغي : ٣٥/١

عليه لسلطان الله الذي يخضع له في أعماق نفسه ، ويحس بالحاجة الملحة لصاحب ذلك السلطان ، الذي خلقه وسواه ، وأنعم عليه نعماً ظاهرة وباطنة ، لا تعد ولا تحصى . فصارت هذه الهداية أشد ما يحتاج إليها الإنسان ، لتحقيق سعادته .

وقد أشار القرآن إلى تلك الهدايات في آيات كثيرة ، منها ﴿ وهديناه النَّجْدين ﴾ [البلد ١٠/٩٠] أي بينا له طريقي الخير والشر ، والسعادة والشقاء .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وأما ثمودُ فهدَيْنَاهم ، فاستحبُّوا العَمَى على الهُدَى ﴾ [فصلت ١٧/٤١] أي أرشدناهم إلى طريق الخير والشر ، فاختاروا الثاني .

٥ ـ هداية المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة : وهي أخص من هداية الدين ، وهي التي أمرنا الله بدوام طلبها في قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي دلنا دلالة ، تصحبها من لدنك معونة غيبية ، تحفظنا بها من الضلال والخطأ .

وهذه الهداية خاصة به سبحانه ، لم يمنحها أحداً من خلقه ، بل نفاها عن النَّبي ﷺ في قوله : ﴿ إنَّكَ لا تهدي مَنْ أحبَبْتَ ، ولكنَّ الله يهدي منْ يشاءُ ﴾ [القصص ٥٦/٢٨] ، وقوله : ﴿ ليسَ عليكَ هُدَاهم ، ولكنَّ الله يَهْدي مَنْ يشاءُ ﴾ [البقرة ٢٧٢/٢] ، وأثبتها لنفسه في قوله : ﴿ أولئكَ الَّذينَ هدى الله فبهُدَاهم اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام ٩٠/٦] .

أما الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحق ، فأثبتها الله للنَّبي ﷺ في قوله : ﴿ وإنَّكَ لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [الشورى ٥٢/٤٢] .

والخلاصة : الهداية في القرآن نوعان : هداية عامة : وهي الدلالة إلى مصالح العبد في معاده ، وهذه تشمل الأنواع الأربعة السابقة ، وهداية خاصة : وهي الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة ، مع الدلالة ، وهي النوع الخامس .

والإضلال نوعان[١] :

أحدهما ـ أن يكون سببه الضلال : إما بأن يضل عنك الشيء كقولك : أضللتُ البعير ، أي ضلّ عني ، وإما أن تحكم بضلاله . والضلال في هذين سبب الإضلال .

والثاني ـ أن يكون الإضلال سبباً للضلال : وهو أن يزين للإنسان الباطل لِيَضِلَّ .

وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين : إما الحكم عليه بالضلال ، أو التّمكين من البقاء في الضلال .

والأول ـ سببه الضلال : وهو أن يضل الإنسان ، فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا ، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة ، وذلك إضلال هو حق وعدل ؛ لأن الحكم على الضال بضلاله والعدول به عن طريق الجنة إلى النار عدل وحق .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

والثاني ـ سببه اختيار الإنسان : وهو أن يختار الإنسان طريق الانحراف ، فيمده الله في ضلاله ، ويمكّنه من البقاء في طغيانه ، ويخلق له القدرة على الاستمرار في كفره وفساده ، لذا نسب الله الإضلال للكافر والفاسق ، دون المؤمن ، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن ، فقال : ﴿ وما كان الله لِيُضِلَّ قوماً بعد إذ هَدَاهُمْ ﴾ [التوبة ١١٥/٩] ، ﴿ فلن يُضِلَّ أعمالَهم ، سيهديهم ﴾ [محمد ٤/٤٧ ـ ٥] ، وقال في الكافر والفاسق : ﴿ فتعساً لهم وأضلَّ أعمالهم ﴾ [محمد ٨/٤٧] ، ﴿ وما يُضِلُّ به إلاّ الفاسقينَ ﴾ [البقرة ٢٦/٢] ، ﴿ كذلكَ يُضِلُّ الله الكافرينَ ﴾ [غافر ٧٤/٤٠] ، ﴿ ويُضِلُّ الله الظالمينَ ﴾ [إبراهيم ٢٧/١٤] ، وعلى هذا النحو

---

(١) مفردات الراغب للأصفهاني : ص ٣٠٧

تقليب الأفئدة في قوله تعالى : ﴿ ونُقَلِّبُ أفئدتَهم ﴾ [الأنعام ١١٠/٦] ، والختم على القلب في قوله : ﴿ ختمَ اللهُ على قلوبهم ﴾ [البقرة ٧/٢] ، وزيادة المرض في قوله : ﴿ في قلوبهم مرضٌ ، فزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة ١٠/٢] ، فمن اختار الضلالة ، أبقاه الله فيها ، ومنع عنه نفوذ الهداية إلى قلبه ، عقاباً له من الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

لا يوجد في القرآن آية بدون معنى أو فائدة أو حكمة أو تشريع ، فهو كلام الله المعجز دستور الحياة البشرية ، وبناءً عليه ، يقصد بالآيات القرآنية تحقيق فائدة الإنسان في حياته الدينية والدنيوية والأخروية ، وتربطه بالحياة . وتكون بالتالي الأحكام المستفادة من معاني الآيات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً إما بالعقيدة أو بالعبادة أو بالأخلاق والسلوك أو بالتشريع الصالح للفرد والجماعة ، وهذا المعنى الأعمّ هو الذي عنيته بفقه الحياة في القرآن الكريم .

والمعاني أو الأحكام المستفادة من الفاتحة تشمل صلة الإنسان بالله ، وتحدد طريق مناجاته ، وترسم له نوع مسيرته في الحياة ، وتلزمه باتّباع المنهج الأقوم والطريق الأعدل ، الذي لا انحراف فيه قيد أنملة عن جادّة الاستقامة ، ولا قبول بأي لون من ألوان الضلال والغيّ والانحراف . ومعنى البسملة في الفاتحة : أنّ جميع ما يقرر في القرآن من الأحكام وغيرها هو لله ومنه ، ليس لأحد غير الله فيه شيء .

١ ـ كيفية حمد الله : الفاتحة ذلك النشيد العاقد للصلة مع الله ، والذي علّمنا الله إياه ، يقرؤه المؤمن في كل المناسبات ، في الصلاة وغيرها ؛ لأن بدايته على تأويل : قولوا : الحمد لله ربّ العالمين ، وذلك يقضي أن الله أمرنا بفعل الحمد ، وعلمنا كيف نحمده ونثني عليه ، وكيف ندعوه ، ويفهم منه أنّ من آداب الدعاء : أن يبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ليكون ذلك أدعى إلى الإجابة .

٢ ـ قراءة الفاتحة في الصلاة : للعلماء رأيان في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة .

الرأي الأول ـ للحنفية : وهو عدم وجوب قراءة الفاتحة ، وإنما الواجب للإمام والمنفرد مطلق قراءة ، وهو قراءة آية من القرآن ، وأقلها عند أبي حنيفة آية بمقدار ستة أحرف ، مثل : ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ [المدثر ٢١/٧٤] ولوتقديراً ، مثل : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ إذ أصله : « لَمْ يولد » [الإخلاص ٣/١١٢] . وقال الصاحبان : فرض القراءة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة .

واستدلوا بالكتاب والسنة والمعقول .

أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسَّرَ مِنَ القرآنِ ﴾ [المزمل ٢٠/٧٣] ، وهو أمر بمطلق قراءة ، فتتحقق بأدنى ما يطلق عليه اسم القرآن .

وأما السنة : فحديث المسيء صلاته : « إذا قمت إلى الصلاة ، فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبِّر ، ثم اقرأ ماتيسر معك من القرآن »[(١)] . وأما حديث : « لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[(٢)] ، فمحمول على نفي الفضيلة ، لانفي الصحة ، أي لاصلاة كاملة .

وأما المعقول : فهو أنه لاتجوز الزيادة بخبر الواحد الظني على ماثبتت فرضيته بالدليل القطعي في القرآن ، ولكن خبر الواحد يقتضي وجوب العمل به ، لاالفرضية ، فقالوا بوجوب قراءة الفاتحة فقط ، أي أن الصلاة تصح بتركها ، مع الكراهة التحريمية .

ولاقراءة مطلقاً على المقتدي عند الحنفية ، سواء أكانت الصلاة سرية أم

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث متواتر .

(٢) رواه الأئمة الستة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

جهرية ، واستدلوا أيضاً بالكتاب والسنة والقياس .

أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿ وإذا قُرئ القرآنُ ، فاستمعوا لَهُ وأنصتوا ، لعلكم ترحمونَ ﴾ [الأعراف ٢٠٤/٧] ، وهي تأمر بالاستماع والإنصات ، والاستماع خاص بالجهرية ، والإنصات يعمّ السريّة والجهريّة .

وأما السّنة : فقول النّبي ﷺ : « من صلّى خلف إمام ، فإن قراءة الإمام له قراءة »[1] ، وهو يشمل السرية والجهرية .

وأما القياس : فهو أنه لو وجبت القراءة على المأموم ، لما سقطت عن المسبوق ، كسائر الأركان ، فقاسوا قراءة المؤتم على قراءة المسبوق في حكم الصلاة ، فتكون غير مشروعة .

الرأي الثاني ـ للمالكية والشافعية والحنبلية : وهو وجوب قراءة الفاتحة بعينها في الصلاة للإمام والمنفرد ، لقوله ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، وحملوا النفي على نفي الحقيقة ؛ لأن الأصل والأقوى أن النفي على العموم ، أي لا صلاة صحيحة ، ونفي الصحة أقرب إلى نفي الحقيقة . وقوله عليه الصلاة والسلام أيضاً : « لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب »[2] ، ولفعله ﷺ كما روى مسلم ، مع خبر البخاري : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . قال القرطبي : الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعينة في كل ركعة ، لكل أحد على العموم .

وتتعين عند الشافعية قراءة الفاتحة ، في كل ركعة ، للإمام والمأموم والمنفرد ، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية ، فرضاً أم نفلاً ، لحديث :

---

(١) رواه أبو حنيفة عن جابر رضي الله عنه ، وهو ضعيف ، كما ذكر القرطبي (تفسير القرطبي : ١٢٢/١) .

(٢) رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحها .

« لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، وحديث : « صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف ، قال : إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم ؟ » قال : قلنا : يارسول الله ، إي والله ، قال : « لاتفعلوا إلاّ بأُمّ القرآن ، فإنه لاصلاة لمن لم يقرأ فيها »[١] ، فهو نص صريح خاص بقراءة المأموم ، دال على فرضيتها ، وظاهر النفي متجه إلى الإجزاء ، أي لاتجزئ ، وهو كالنفي للذات في المآل ، وقراءة الفاتحة مستثناة من النص القرآني الآمر بالاستماع إلى القرآن والإنصات له .

ورأى المالكية والحنابلة : أنه لا يقرأ المأموم الفاتحة في الصلاة الجهرية ، وإنما يستحب أن يقرأها في السرية ؛ لأن الأمر القرآني بالاستماع والإنصات للقرآن خاص بالصلاة الجهرية ، بدليل « أن النَّبي ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : هل قرأ أحد منكم آنفاً ؟ فقال رجل : نعم ، يارسول الله ، قال : فإني أقول : مالي أُنازَعُ القرآن ، فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما يجهر فيه من الصلوات بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ »[٢] . وهذا صريح في كراهة القراءة للمؤتم حالة الجهر .

وأما دليلهم على استحباب القراءة في حالة السرّ : فهو قول النَّبي ﷺ : « إذا أسررت بقراءتي فاقرءوا »[٣] .

٣ ـ استحضار معاني الفاتحة : على المصلي أن يستحضر في صلاته كل معاني الفاتحة من كون الله أعظم من كل عظيم ، وأكبر من كل شيء ، وأن كل ثناء جميل هو لله تعالى استحقاقاً وفعلاً ، من حيث إنه الرَّب خالق العالمين ومدبّر جميع

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وأحمد وابن حبان .

(٢) رواه أبو داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة ، وقال : حديث حسن .

(٣) رواه الدارقطني والترمذي .

أمورهم ، وأنّ رحمة الله مقرونة بعظمته وملكه وسلطانه وتصرفه دون غيره يوم الحساب ، فهو المستحق للعبادة وحده ، ومنه وحده تطلب المعونة على العبادة وعلى جميع الشؤون ، وهو سبحانه الدّال بتوفيقه ومعونته إلى طريق الخير والحق في العلم والعمل ، وللمؤمن في مناجاته قدوة حسنة وهم أولئك الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، كما أن أمامه عبرة وعظة وهم الذين غضب الله عليهم بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشّر على الخير ، والضّالون عن طريق الحق والخير بجهلهم ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فمصيرهم إلى جهنم وساءت مصيراً .

وأما الذين جاءوا على فترة من الرّسل كأهل الفترة في عصر الجاهلية ، فلا يكلفون في رأي الجمهور بشريعة ، ولا يعذبون في الآخرة ، لقوله تعالى : ﴿ وما كُنّا مُعَذِّبينَ حتّى نَبْعَثَ رَسولاً ﴾ [الإسراء ١٥/٧] . وقال جماعة من العلماء : إنهم يكلّفون ويعذّبون ؛ لأن العقل وحده كاف في التكليف ، فمتى أوتيه الإنسان ، وجب عليه النظر في ملكوت السموات والأرض ، والتدبُّر والتفكُّر في خالق الكون ، وما يجب له من عبادة وإجلال ، بقدر ما يهديه عقله ، ويصل إليه اجتهاده ، وبذلك ينجو من العذاب .

٤ ـ قراءة غير العربي : أجمع الفقهاء على أنه لا تجزئ قراءة القرآن بغير العربية ، ولا الإبدال بلفظها لفظاً عربياً ، سواء أحسن قراءتها بالعربية أو لم يحسن ، لقوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً ﴾ [يوسف ٢/١٢] ، وقوله سبحانه : ﴿ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ ﴾ [الشعراء ١٩٥/٢٦] ، ولأن القرآن معجزة بلفظه ومعناه ، فإذا غُيِّر خرج عن نظمه ، فلم يكن قرآناً ولا مثله ، وإنما يكون تفسيراً له ، والتفسير غير المفسر ، وليس هو مثل القرآن المعجز المتحدى بالإتيان بسورة مثله .

وأجاز القرطبي المالكي للعاجز عن العربية أن يذكر في موضع القراءة ما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله . وأجاز الكاساني لعاجز عن القراءة بالعربية أن يقرأ الفاتحة بغير العربية[١] .

٥ ـ تأمين المصلي : يؤمن المنفرد اتّفاقاً . وأما الإمام : فيؤمن سرّاً عند أبي حنيفة وفي الراجح عند المالكية ؛ لأنه دعاء . وروي عن مالك أنه قال : لا يؤمن وإنما يقول ذلك من خلفه ، وقال الشافعية والحنابلة : يجهر الإمام بالتأمين في الصلاة الجهرية ، كما بيّنا سابقاً . وقال ابن العربي والقرطبي[٢] : والصحيح تأمين الإمام جهراً ، فإن ابن شهاب الزهري قال : وكان رسول الله ﷺ يقول : آمين ، خرجه البخاري ومسلم وغيرهما ، وفي البخاري : حتى إن للمسجد لَلَجّة[٣] من قول الناس : آمين . وأما المأموم : فيؤمّن سرّاً عند الحنفية والمالكية ، وجهراً فيما يجهر فيه بالقراءة ، ويخفيه فيما يخفي فيه القراءة عند الشافعية والحنابلة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) تفسير القرطبي : ١٢٦/١ ، البدائع : ١١٢/١

(٢) أحكام القرآن : ٧/١ ، تفسير القرطبي : ١٢٩/١

(٣) اللجة : الجلبة ، يعني أصوات المصلين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

مَدَنيّة إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى في حَجّة الوَداعِ

وآياتُها مئتان وست وثمانون وهي أول سورة نزلتْ بالمدينة

ماشتملت عليه السورة :

سورة البقرة أطول سورة في القرآن ، وهي مدنية ، قال عكرمة : « أول سورة أنزلت بالمدينة : سورة البقرة »[1] . وتُعنى كغيرها من السور المدنية بالتشريع المنظم لحياة المسلمين في المجتمع الجديد بالمدينة ، مجتمع الدين والدولة معاً ، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وإنما هما متلازمان تلازم الجسد والروح ، لذا كان التشريع المدني قائماً على تأصيل العقيدة الإسلامية ، ومبدؤها الإيمان بالله ، وبالغيب ، وبأن مصدر القرآن هو الله عز وجل ، والاعتقاد الجازم بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء السابقين ، وبأن العمل الصالح ترجمان ذلك الإيمان ، ويتمثل العمل بعقد صلة الإنسان مع ربه بواسطة الصلاة ، وبتحقيق أصول التكافل الاجتماعي بواسطة الإنفاق في سبيل الله .

ويقتضي تقرير العقيدة التحدث عن صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين ، لعقد مقارنة بين أهل النجاة وبين أهل الدمار والهلاك . كما يُقتضي التحدث عن قدرة الله عز وجل ، ببدء الخليقة وتكريم آدم أبي البشر بسجود الملائكة له ، وترتيب المولى ماحدث معه وزوجه في الجنة ، ثم الهبوط إلى الأرض .

---

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص ١١

واستوجب التحذير الإلهي للمؤمنين التحدث في هذه السورة بما يزيد عن ثلثها عن جرائم بني إسرائيل ، من الآية ٤٧ ـ ١٢٣ ، فهم كفروا بنعمة الله ، ولم يقدّروا نجاتهم من فرعون ، وعبدوا العجل ، وطالبوا موسى عليه السلام بطلبات على سبيل العناد والمكابرة والتحدي ، وبالرغم من تحقيق مطالبهم المادية كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، ونقضوا العهود والمواثيق ، فاستحقوا إنزال اللعنة وغضب الله عليهم ، وجعلهم الله أذلاء منبوذين مطرودين من رحمته .

ثم انتقلت السورة من خطاب أهل الكتاب إلى خطاب أهل القرآن ، بالتذكير بما هو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد عليهما السلام من نسب إبراهيم والاتفاق على فضله ، واستئصال كل مزاعم الخلاف على القبلة ، وبيان الأساس الأعظم للدين وهو توحيد الألوهية ، بتخصيص الخالق بالعبودية ، وشكر الإله على ماأنعم به من إباحة الاستمتاع بطيبات الرزق وإباحة المحرّمات حال الضرورة ، وبيان أصول البرّ في آية : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ ﴾ [في البقرة ١٧٧/٢] .

ثم أوضحت السورة أصول التشريع الإسلامي للمؤمنين به ، في نطاق العبادات والمعاملات ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد في سبيل الله وتنظيم أحكام القتال ، واعتماد الأشهر القمرية في التوقيت الديني ، والإنفاق في سبيل الله ؛ لأنه وسيلة للوقاية من الهلاك ، والوصية للوالدين والأقربين ، وبيان مستحقي النفقات ، ومعاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة ، وتنظيم شؤون الأسرة في الزواج والطلاق والرضاع والعدة ، والإيلاء من النساء ، وعدم المؤاخذة بيمين اللغو ، وتحريم السحر ، والقتل بغير حق وإيجاب القصاص في القتلى ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم الخمر والميسر والربا ، وإتيان النساء في المحيض وفي غير مكان الحرث وإنجاب النسل ، أي في الدبر .

وتضمنت السورة آية عظيمة في العقيدة والأسرار الإلهية ، وهي آية الكرسي ، وحذرت من يوم القيامة الرهيب في آخر ما نزل من القرآن ، وهي آية ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٨١/٢] .

وتضمنت هذه السورة أطول آية في القرآن هي آية الدَّين ، التي أبانت أحكام الدَّين من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجال فيها ، والرهان ، ووجوب أداء الأمانة ، وتحريم كتمان الشهادة .

وختمت السورة بالتذكير بالتوبة والإنابة إلى الله ، وبالدعاء العظيم المشتمل على طلب اليسر والسماحة ، ورفع الحرج والأغلال والآصار ، وطلب النصرة على الكفار .

فالسورة كلها منهاج قويم للمؤمنين ، ببيان أوصافهم ، وأوصاف معارضيهم ومعاديهم من الكفار والمنافقين ، وتوضيح مناهج التشريع في الحياة الخاصة والعامة ، واللجوء في الخاتمة إلى الله والدعاء المستمر له في التثبيت على الإيمان ، والإمداد بالإحسان والفضل الإلهي ، وتحقيق النصر على أعداء الله والإنسانية .

ومن توجيهات السورة أن مناط السعادة في الدنيا والآخرة هو اتباع الدين ، وأصول الدين ثلاثة : هي الإيمان بالله ورسوله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح . والولاية العامة يجب أن تكون لأهل الإيمان والاستقامة ، لكن الإكراه على الدين ممنوع .

سبب التسمية :

سميت هذه السورة « سورة البقرة » لاشتمالها على قصة البقرة ، التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها ، لاكتشاف قاتل إنسان ، بأن يضربوا الميت بجزء منها ،

فيحيا بإذن الله ، ويخبرهم عن القاتل ، والقصة تبدأ بالآية [(٦٧) من سورة البقرة] وهي قصة مثيرة فعلاً ، يعجب منها السامع ، ويحرص على طلبها .

فضلها :

فضل هذه السورة عظيم ، وثوابها جسيم ، ويقال لها : « فسطاط القرآن » لعظمها وبهائها ، وكثرة أحكامها ومواعظها ، قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة »[١] وقال أيضاً : « اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة »[٢] أي السحرة . وفي صحيح البُسْتي عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء سَناماً ، وإن سَنام القرآن سورة البقرة ، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ، ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام » .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

صفات المؤمنين وجزاء المتقين

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي .

الإعراب :

﴿ الٓمٓ ﴾ أحرف مقطعة مبنية غير معربة ، وكذلك سائر حروف الهجاء في أوائل السور .

﴿ ذلك ﴾ ذا : اسم إشارة مبني في موضع رفع ، وهو إما مبتدأ و ﴿ الكتاب ﴾ خبره ، وإما خبر مبتدأ مقدر ، وتقديره : هو ذلك الكتاب . و ﴿ الكتاب ﴾ بدل من ذلك أو عطف بيان . ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا : نافية للجنس ، و ﴿ ريب ﴾ اسمها المنصوب . و ﴿ فيه ﴾ متعلق بمحذوف خبر تقديره : كائن . ﴿ هدى ﴾ إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر ، وتقديره : هو هدى ، أو منصوب على أنه حال من ﴿ ذا ﴾ أو من ﴿ الكتاب ﴾ أو من الضمير في ﴿ فيه ﴾ .

﴿ الذين يؤمنون ﴾ إما بالجر صفة للمتقين أو بدل منهم ، وإما بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره ﴿ أولئك على هدى ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ مقدر ، وتقديره ﴿ هم الذين ﴾ وإما بالنصب على تقدير « أعني » و ﴿ يؤمنون ﴾ صلته .

﴿ أولئك على هدى ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ ، و ﴿ على هدى ﴾ خبره ، أو خبر ﴿ الذين يؤمنون ﴾ إذا جعل ﴿ الذين يؤمنون ﴾ مبتدأ .

البلاغة :

﴿ ذلك الكتاب ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للتنبيه على علو شأنه .

﴿ هدى للمتقين ﴾ مجاز مرسل أو عقلي ، أسند الهداية للقرآن ؛ لأنه سبب الهداية ، والهادي في الحقيقة هو الله تعالى .

﴿ أولئك على هدى ﴾ ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ للعناية بشأن المتقين . ﴿ هم ﴾ للحصر فيهم(☆) .

المفردات اللغوية :

﴿ الكتاب ﴾ القرآن العظيم . ﴿ ذلك الكتاب ﴾ قال عامة المفسرين : تأويل قول الله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ : هذا الكتاب ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا شك في أنه من عند الله ﴿ هدى ﴾ هداية ورشاد ﴿ للمتقين ﴾ الذين وقوا أنفسهم مما يضرها ، فالتزموا الأوامر الإلهية وتجنبوا النواهي والمحظورات .

(☆) **ملاحظة عامة** : اعتمدت في الإعراب على كتاب « البيان في غريب إعراب القرآن » لأبي البركات بن الأنباري ، واستفدت كثيراً في البلاغة من كتاب « صفوة التفاسير » للأستاذ محمد علي الصابوني ، والمعول في الأصل على تفسير الكشاف والقرطبي وغيرهما في الأمرين .

﴿ يؤمنون ﴾ الإيمان : هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها ، ويدل عليه العمل . و﴿ الغيب ﴾ ماغاب عن الإنسان من حساب وجزاء وجنة ونار وغيرها . ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الإتيان بها مستكملة شروطها وأركانها .

﴿ يوقنون ﴾ اليقين : هو الاعتقاد الذي لا يقبل الشك ، وهو حقيقة العلم .

التفسير والبيان

معنى البسملة إعلان بأن جميع مافي السورة من الله تعالى ، لا من إنسان ، أنزلها برحمته لهداية الناس إلى مافيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة . وهي لاشك آية من القرآن بإجماع الصحابة الذين حرصوا عند جمع المصحف ألا يكتبوا فيه أي شيء من غير القرآن .

وقد استفتح الله هذه السورة بالحروف المقطعة ، تنبيهاً لوصف القرآن وإشارة إلى إعجازه ، وتحدياً دائماً على الإتيان بأقصر سورة من مثله ، وإثباتاً قاطعاً إلى أنه كلام الله الذي لا يضارعه شيء من كلام البشر ، فكأن الله يقول للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله ، مع أنه كلام عربي ، مركب من الحروف الهجائية التي ينطق بها كل عربي ، ومع ذلك عجزتم عن مجاراته . هذا هو رأي المحققين من العلماء الذين قالوا : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها ، بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها[1] .

قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن ، وإنما كررت ليكون

(١) تفسير ابن كثير : ٣٨/١

أبلغ في التحدي والتبكيت ، كما كررت قصص كثيرة ، وكرر التحدي بالصريح في أماكن[١] .

ومما يدل على كون ﴿ الٓمٓ ﴾ مكونة من الحروف المقطعة : قول النبي ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لاأقول : الٓمٓ حرف ، لكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[٢] .

ثم وصف الله تعالى القرآن بأوصاف ثلاثة :

الأول ـ أنه الكتاب الكامل في كل ما اشتمل عليه من معان ومقاصد وقصص وعبر وتشريعات غير قابلة للنقض .

والثاني ـ أنه لاشك في كونه حقاً من عند الله ، لمن أمعن النظر وأصغى بقلبه .

والثالث ـ أنه مصدر هداية وإرشاد للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون عذاب الله ، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فهم المنتفعون به .

ثم أبان الله تعالى أربع صفات للمتقين الذين ينتفعون بالقرآن ، وهم الذين يؤمنون ويصدقون بالغيبيات التي أخبر عنها القرآن من البعث والحساب والصراط والجنة والنار وغيرها ، فلا يقفون عند مجرد الماديات والمحسوسات التي يدركها العقل إدراكاً قريباً ، وإنما يدركون أيضاً ما وراء المادة من عوالم أخرى كالروح والجن والملائكة ، وعلى رأسها وجود الله ووحدانيته .

ثم يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها وآدابها وخشوعها ،

---

(١) تفسير الكشاف : ٧٩/١

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فالصلاة بدون خشوع وتأمل في المقروء فيها وتدبر للمعاني القرآنية وخشية لله جسم بلا روح .

ثم ينفقون في وجوه البر والإحسان من الأموال كالزكاة والصدقة وسائر النفقات الواجبة شرعاً ، فيتحقق الرخاء لجميع الناس ، وتتطهر الأموال مما شابها من شبهات ، ويكتمل البناء المنشود شرعاً : بناء الفرد بالصلاة التي هي عماد الدين ، وبناء المجتمع بالزكاة وتوابعها التي هي أساس التقدم ورقي الحياة وسعادة الأمة . فالآية عامة في كل غيب أخبر به الرسول ﷺ أنه كائن ، وعام في كل صلاة فرضاً كانت أو نفلاً ، وعام في كل نفقة .

ثم إن أولئك المتقين هم الذين يصدقون بجميع ماأنزل على النبي محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ويصدقون أيضاً تصديقاً جازماً لاشك فيه بالآخرة وما تضمه من بعث الأجساد والأرواح معاً من القبور ، وحساب وجزاء وميزان وصراط وجنة ونار .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وهؤلاء الموصوفون بما ذكر من الإيمان الحق بالغيب ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بالقرآن وبالكتب المنزلة قبله (وهي التوراة والإنجيل والزبور والصحف) ، هم على نور وهداية من ربهم ، وعلى منزلة عالية عند الله ، وهم الفائزون بالدرجات العالية في جنات الخلود .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه صفات المؤمنين ومنهاجهم وقانونهم في الحياة الإسلامية : إيمان شامل كامل بكل ماغاب علمه عنهم ، كذات الله تعالى وملائكته والدار الآخرة ، مما أخبر عنه القرآن العظيم وأرشد إليه الدليل السليم ، والإيمان مقرون بالعمل الصالح : وهو إقامة الصلاة المفروضة ، والإنفاق في سبيل الله في الجهاد ، وعون

الفقراء والمساكين وصدقة التطوع ، والنفقة الواجبة على الأهل والولد وذي القربى . ولا يتجزأ الإيمان بما أنزل الله ، فلا بد من الإيمان التفصيلي بكل ماأنزله الله تعالى في القرآن ، والإيمان الإجمالي بالكتب والصحف السماوية السابقة ، هذا مع العلم بأنه لا يعتد بما دون اليقين في الإيمان .

وأرشدت الآيات إلى أن التقوى : وهي الخوف من المخالفة ، فيها جماع الخير كله ، وهي وصية الله في الأولين والآخرين ، وهي خير ما يستفيده الإنسان ، كما قال أبو الدرداء .

فمن اتصف بأوصاف المؤمنين المذكورة ، كان القرآن هدى له ، أي أنه إمامه في أعماله وأحواله ، لا يحيد عن نهجه ، وقد ضمن لنفسه النجاة في عالم الآخرة ، والسعادة والطمأنينة في الدنيا . والمشار إليه عند الجمهور وهم المؤمنون واحد ، وكرر الإشارة للإعلام بأنه لابد من تحقق الوصفين لتحقق الحكم بأنهم على هدى ، وأنهم هم المفلحون . قال مجاهد : في أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين .

صفات الكافرين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

الإعراب :

﴿ سواء ﴾ إما مبتدأ ، وخبره : ﴿ أأنذرتهم .. ﴾ ، أو خبر ﴿ إن ﴾ وما بعده ، والتقدير فيه : إن الذين كفروا مستوٍ عليهم الإنذار وتركه . وإنما وحّد ﴿ سمعهم ﴾ ولم يجمعه

كـ ﴿ قلوبهم ﴾ و ﴿ أبصارهم ﴾ إما لأن السمع مصدر ، والمصدر : اسم جنس يقع على القليل والكثير ، أو على تقدير مضاف بلفظ الجمع ، أي مواضع سمعهم ، أو اكتفاء باللفظ المفرد لما أضافه إلى الجمع ، وهو يفيد العموم ، والمراد به الجمع .

البلاغة :

﴿ سواء عليهم أأنذرتهم .. ﴾ فيه التيئيس من إيمان الكفار ، بسبب عدم استعدادهم للإيمان .

﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ استعارة تصريحية ، شبه قلوبهم لتأبيها عن الحق بالوعاء المختوم عليه ، واستعارة لفظ الختم بطريق الاستعارة التصريحية ، للتصريح بلفظ المشبه به وحذف المشبه وأداة التشبيه ووجه الشبه .

﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ : التنكير فيه للتعظيم والتهويل ، ثم وصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حدّ العظمة كمّاً وكيفاً ، فهو شديد الإيلام ، وطويل الزمان .

المفردات اللغوية :

الكفر : ستر الشيء وتغطيته ، ومن كفر فقد غطى الحقيقة وستر نعم الله عليه ، وكل من لم يؤمن بالقرآن فهو كافر .

﴿ أأنذرتهم ﴾ الإنذار : الإعلام مع التخويف .

﴿ ختم الله ﴾ طبع الله عليها بالخاتم ، والمراد : أغلقت قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ونور .

﴿ غشاوة ﴾ غطاء وستر ، والمقصود : التعامي عن النظر إلى آيات الله .

المناسبة وسبب النزول :

أتبع الله تعالى هذه الآية بعد بيان أحوال المؤمنين ، لعقد مقارنة بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر ؛ لأن الكفر ضد الإيمان ، والمؤمنون ناجون ، والكفار هالكون خالدون في نار جهنم .

وسبب النزول في أصح الروايات : ماأخرجه الطبري عن ابن عباس والكلبي أن هاتين الآيتين نزلتا في رؤساء اليهود ، منهم حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما[1] .

(١) تفسير الطبري : ٨٤/١ ، تفسير القرطبي : ١٨٤/١

التفسير والبيان :

إن الذين كفروا وجحدوا بآيات الله وكذبوا بالقرآن ، وبمحمد ﷺ يستوي عندهم الإنذار وعدمه ، فلاتتأثر قلوبهم به ؛ لأنها مغلقة لا يصل إليها النور الإلهي ، ولا يشرق فيها إيمان ، بسبب تعاميهم عن الحق وآيات الله ، فلا ينفذ إليها أثر الهداية والموعظة ، ولأنهم عطلوا وسائل المعرفة والنظر والتفكير وإعمال السمع والبصر ، فأصبحوا يرون الحق فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه ، فكان جزاؤهم عذاباً عظيماً شديداً لا ينقطع ، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

في هاتين الآيتين تسلية للنَّبي ﷺ عن تكذيب قومه له ، فلاتحسُّر عليهم ، ولاطمع في إيمانهم ، ولالوم عليه فيهم .

والختم على القلوب بمعنى عدم وعي الحق ، وإلقاء الغشاوة على المسامع والأبصار : بمعنى عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم ، أو بمعنى عدم نظرهم في مخلوقات الله ، أو بمعنى أنهم دُعوا إلى وحدانية الله فلم يؤمنوا ، وكل ذلك إنما كان بسبب كفرهم وجحودهم ، لا بسبب في القرآن أو تقصير من محمد أو أحد بعده في هدايتهم ، فهم المتسببون لكل ذلك ، المعرضون عن استخدام وسائط المعرفة السليمة في اعتقاد الحق والعمل به .

فدلّ تعبير الختم والطبع على القلوب والأسماع والأبصار على تمكُّن الكفر في قلوبهم ، حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي ترشدهم إلى النظر والتفكُّر في أدلّة الإيمان ومحاسنه ، وأصبحوا في هيئة أو عادة تألف الجحود والعصيان . وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى أسماعهم وأبصارهم إلى الله تعالى ، تنبيهاً على سنة الله في أمثالهم ، لا على أنهم مجبورون على الكفر ، ولا على منع الله تعالى إياهم من الإيمان بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرُّسهم على الكفر وإعماله في قلوبهم ،

بأنه استحوذ عليها وملك أمرها ، حتى لم يعد فيها استعداد لغيره ، وكان فعل الله ذلك عدلاً فيمن خذله وأمدّ له في ضلاله ، إذ لم يمنعه حقاً وجب له ، فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم .

ويوضحه آيتان أخريان هما : ﴿ وقالوا : قلوبُنا غُلْفٌ ، بلْ لعنهم اللهُ بكفرِهم ، فقليلاً ما يؤمنون ﴾ [البقرة ٨٨/٢] ، ﴿ فأعْرضَ أكثرُهم فهُمْ لا يَسْمَعونَ ، وقالوا : قلوبُنا في أكنّةٍ مِمّا تَدْعونا إليهِ ، وفي آذانِنا وَقْرٌ ، ومِنْ بَيْنِنا وبينِكَ حِجابٌ ﴾ [فصلت ٤/٤١ ـ ٥] ، فهم باستكبارهم وعنادهم لا يخرجون عن سلطان الله ، وأن الله سبحانه خالق كل شيء من الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ، والإنسان هو الذي يختار أحد المنهجين .

صفات المنافقين

- ١ -

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

الإعراب :

﴿ من يقول ﴾ وحُد الضمير في الفعل مراعاة للفظ « من » وتجوز مراعاة المعنى ، فيجمع .

﴿ يخادعون الله ﴾ أي نبيّ الله ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ الباء تتعلق بفعل مقدّر ، أي استقر لهم . و « ما » مع الفعل بعدها في تقدير المصدر ، أي بكونهم يكذبون .

البلاغة :

﴿ وماهم بمؤمنين ﴾ المتبادر أن يقال : « وماآمنوا » ليطابق قوله ﴿ من يقول آمنا ﴾ ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم ، لإخراجهم من عداد المؤمنين ، وأكده بالباء مبالغة في تكذيبهم .

﴿ يخادعون الله ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانها ، واستعير المشبه به للمشبه بطريق الاستعارة .

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ كناية ، كنّى بالمرض في القلب عن النفاق : لأن المرض فساد للجسد ، والنفاق فساد للقلب .

المفردات اللغوية :

﴿ اليوم الآخر ﴾ هو من وقت الحشر إلى مالا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . والنفاق : اسم شرعي جعل سمة لمن يظهر الإيمان ويسرُّ الكفر .

﴿ يخادعونَ ﴾ يعملون عمل المخادع ، والخداع : صرف الغير عما يقصده بحيلة ، والمراد هنا : إظهار الإسلام وإضمار الكفر .

﴿ مرض ﴾ المرض : العلة ، والمراد هنا شك ونفاق وتكذيب وجحود . ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ : شكاً .

التفسير والبيان :

هؤلاء هم الصنف الثالث من الناس ، وقد وصف الله حال الذين كفروا في آيتين ، وحال المنافقين في ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم ، وفضَحَهُم ، واستهزأ بهم ، وتهكم بفعلهم ، ودعاهم صمّاً بكماً عمياً ، وضرب لهم الأمثال ، فهم أشدّ خطراً على الإسلام من الكفار صراحة .

ولا تقتصر أوصاف المنافقين على المعاصرين للنّبي ﷺ فقط ، بل في كل عصر إذا وجدت صفاتهم .

وأول هذه الصفات النطق بالإيمان باللسان ، وامتلاء القلب بالكفر والضلال . وكان عبد الله بن أُبيّ بن سَلول زعيم المنافقين في عصر النّبوة ، وكان

أكثر أصحابه من اليهود ، وكانوا يدّعون الإيمان ، فردّ الله عليهم دعواهم ، وأنهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، وإن تظاهروا به ، ولا شكّ أنهم بهذا في صورة المخادعين لله ، والله يعلم عنهم ذلك ، فهم أشد ضرراً من الكفار ، ولهم في الآخرة عذاب أليم بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر .

ونظراً لقصور عقولهم تصوّروا أنهم يخدعون الله تعالى ، وهو منزّه عن ذلك ، فإنه لا يخفى عليه شيء ، وهذا دليل على أنهم لم يعرفوه ، ولوعرفوه لعرفوا أنه لا يُخْدَع ، وليس خداعهم إلا وبالاً عليهم ، والله قادر على كشف أمرهم للمسلمين .

ومع كل ذلك يأمر الله بإجراء أحكام الإسلام عليهم ، كأنه يخادعهم ، على سبيل المشاكلة والمحاكاة والمشابهة لفعلهم ، وكأن المسلمين حيث امتثلوا أمر الله فيهم مخادعون لهم ، من باب التشبيه والتمثيل ، للإشارة إلى أن المنافقين هم الخادعون المخدوعون .

والصحيح ـ كما قال ابن العربي[1] ـ أن النبي ﷺ لم يقتلهم وأعرض عنهم لمصلحة تألف القلوب عليه ، ومخافة من سوء المقالة الموجبة للتنفير ، لئلا تنفر عنه القلوب ، وقد أشار هو ﷺ إلى هذا المعنى ، فقال : « أخاف أن يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه » وهذا كما كان يُعْطِي الصدقة للمؤلفة قلوبهم ، مع علمه بسوء اعتقادهم تألفاً لهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن النفاق مرض خطير ، وإن المنافقين شوكة مؤذية تطعن المجتمع من الداخل ، وكان المتبادر إلى الذهن في تقديرنا أن تستأصل شأفة النفاق

---

(١) أحكام القرآن : ١٢/١ ، وانظر تفسير القرطبي : ١٩٨/١ ومابعدها .

والمنافقين ، حتى ترتاح الدولة منهم ، وكذلك تفعل الدول الآن ، إلا أن للوحي الإلهي والتشريع السماوي حكمة عميقة الأثر ، بعيدة المدى ، تنتظر أحداث المستقبل ، ليظهر للناس قصور علمهم أمام سعة العلم الإلهي ، فكثيراً ما لاقى النَّبي ﷺ الأذى من المنافقين ولكنه انتصر في النهاية عليهم ، ولعل ذلك من أصدق البراهين التاريخية على أن النفاق واليهودية شيئان متلازمان ؛ لأنه ينشأ عن جبن حقيقي ولؤم طبعي ، فالمنافق يلتوي مع الناس في أقواله وأفعاله ، ويظهر النعومة ، ولكنها السّم الزعاف في الدسم .

وتشير الآيات إلى أن الكذب هو شعار المنافقين ، لذا حذر الله المؤمنين منه أشد التحذير ، فما فشا في أمة إلا كثرت فيها الجرائم ، وشاعت فيها الرذائل ، قال النَّبي ﷺ : « إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب للإيمان »[1] .

وإذا كان الكذب شعار المنافقين ، فإن الصراحة في القول ، والجرأة في العمل الموافق للاعتقاد شعار المؤمنين الصادقين ، الذين يستحقون كل تكريم ، فتكون العظة بإيراد صفات المنافقين أشد أثراً ، وأحكم أمراً للمؤمنين أنفسهم ، إذ امتازوا بالثبات على الحق ، وظل المنافقون في نفاقهم وزاد تمسكهم بما هم عليه ، وأبوا الإيمان ، وأعرضوا عن القرآن ، وازداد مرض قلوبهم ، وتحرقت نفوسهم بعدما جاءهم البشير النذير ، وعلا مجده وكثر أتباعه ، على مافاتهم من الزعامة ، وحسداً للنَّبي ﷺ وصحبه .

---

(١) حديث حسن رواه أحمد في مسنده ، وأبو الشيخ في التوبيخ ، وابن لال في مكارم الأخلاق عن أبي بكر .

صفات المنافقين

ـ ٢ ـ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الإعراب :

﴿ وإذا ﴾ إذا : ظرف زمان مستقبل ، وهو مبني لتضمنه معنى الحرف ﴿ لهم ﴾ في موضع رفع نائب فاعل لكلمة ﴿ قيل ﴾ : هذا رأي ابن الأنباري ، والصحيح أنه جار ومجرور متعلق بالفعل السابق ، ﴿ إنما ﴾ كافّة ، ليس للجملة بعدها موضع من الإعراب ﴿ نحن ﴾ ضمير مرفوع منفصل ، وهو مبني لأنه مُضْمَر .

﴿ ألا إنهم ﴾ ألا : حرف استفتاح ، وكسرت « إن » لأنها مبتدأة .

﴿ هم ﴾ ضمير فصل لا موضع له من الإعراب أو توكيد للهاء والميم في ﴿ إنهم ﴾ . « والمفسدون » خبر « إن » .

﴿ كما ﴾ مصدرية تقديره : كإيمان الناس .

البلاغة :

﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ قصر الموصوف على الصفة ، أي نحن مصلحون ليس إلا .

﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ تنويع التأكيد ، جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات هي « ألا و « إن » وضمير الفصل : « هم » و « المفسدون » .

المفردات اللغوية :

﴿ لا تفسدوا ﴾ الفساد : ضد الصلاح ، والمراد النهي عن الأسباب المؤدية إلى الفساد ، بإثارة

الفتن ، وإفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وإغرائهم بالمؤمنين ، وتنفيرهم من اتباع محمد ﷺ ، والكفر والصد عن سبيل الله .

﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ الصلاح ضد الفساد ، أي ليس شأننا الإفساد أبداً ، ولا شأن لنا إلا الإصلاح ، وإنما نحن أناس مصلحون ، بعيدون عن شوائب الإفساد ، نسعى للخير والصلاح ، باتباعنا رؤساءنا ، وهكذا شأن المفسدين في كل زمان ، يدّعون في إفسادهم أنه هو الإصلاح بعينه .

﴿ السفهاء ﴾ ضعفاء العقول ، والمراد هنا الجهلاء وضعفاء الناس . وأصل السفه : الخفة .

التفسير والبيان :

إذا قيل للمنافقين : إن مؤامراتكم الدنيئة ومخططاتكم الخبيثة بإثارتكم الفتن ، والتجسس لحساب الكفار ، وتأليب العرب على المسلمين فساد ، قالوا : ليس الأمر كما تزعمون ، فإنما نحن مصلحون ، لانبغي إلا الإصلاح ، فرد الله عليهم بأنهم وحدهم هم المفسدون ، ولكنهم لا يدركون خطورة عملهم ، ولا يشعرون بهذا الإفساد ؛ لأنه أصبح غريزة لهم ، مركزة في طباعهم .

وكان المسلمون ينصحونهم بشتى الوسائل ، ويدعونهم إلى الإيمان ، كإيمان الذين أصغوا للعقل السليم ، وسلكوا سبيل الرشاد كعبد الله بن سَلاَم وأشباهه ، فإذا قالوا لهم : ادخلوا في ساحة الإيمان كغيركم من الناس ، أجابوا مترفعين : أنؤمن بالقرآن وبمحمد ، كما آمن السفهاء : أتباع النبي ﷺ ، ضعفاء الناس من العبيد والفقراء ، وضعفاء العقل من الجهلاء ؟ مع أن العاقل هو من يرى طريق الخير والنور أمامه فيسلكه . فرد الله عليهم بأنهم وحدهم هم السفهاء دون من نسبوهم إلى السفه ، فليس عندهم إدراك صحيح للإيمان ، ولا يعلمون حقيقته وأثره .

والسبب في أنه قيل في الإفساد : ﴿ لا يشعرون ﴾ والشعور : إدراك ماخفي ، وفي الإيمان : ﴿ لا يعلمون ﴾ والعلم : اليقين ومطابقة الواقع : هو أن الإفساد في الأرض أمر محسوس ، ولكن لاحسّ لهم حتى يُدركوه ، وأما الإيمان

فهو أمر قلبي ، لا يدركه إلا من علم حقيقته ، ولا يتم الإيمان إلا بالعلم اليقيني ، والعلم : معرفة المعلوم على ماهو به ، ولكن لاعلم لديهم حتى يصلوا إلى حقيقة الإيمان .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن قلب الحقائق ، وتغيير الوقائع سمة الجبناء الضعفاء ، أما الأقوياء وهم المؤمنون الذين استخدموا وسائط المعرفة السليمة للوصول إلى الحقائق ، فهم الخالدون الباقون ، وهم الذين يحبون الإنسانية بحق وصدق ، فيدعونهم إلى إصلاح السلوك ، وتقويم الأخلاق ، والثبات على المبدأ الحق الذي يرشد إليه العقل ، وتقتضيه الفطرة ، وتؤيده البراهين الحسية والتاريخية .

وقد دلت الآيات : ﴿ ومن الناس من يقول : آمنا ﴾ على أن الإيمان ليس هو الإقرار ، دون الاعتقاد ؛ لأن الله تعالى قد أخبر عن إقرارهم بالإيمان ، ونفى عنهم سَمْته بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾[1]

صفات المنافقين

- ٣ -

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٢٥/١

الإعراب :

﴿ يعمهون ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من « هم » في ﴿ يمدهم ﴾ والعامل فيه الفعل ، وهو « يمدّ » وتقديره : يمدهم عَمِهين ، وإن شئت « عامهين » فقد قالوا : عَمِه ، فهو عَمِهٌ وعامة : إذا تحير .

البلاغة :

﴿ الله يستهزئ ﴾ سمى الجزاء على الاستهزاء استهزاء بطريق المجاز أو المشاكلة : وهي اتفاق الجملتين في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، أو هي مقابلة الكلام بمثله وإن لم يكن في معناه ، كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها ﴾ [الشورى ٤٠/٤٢] والثانية ليست سيئة ولكنه لما قابل بها السيئة أجرى عليها اسمها ، وقوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة ١٩٤/٢] والثاني ليس باعتداء . وقوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ [النحل ١٢٦/١٦] والأول ليس بعقاب ، وإنما هو على مقابلة اللفظ بمثله ومزاوجته له ، وتقول العرب : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء .

﴿ اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ استعارة تصريحية ، استعار لفظ الشراء لاستبدال الغي بالرشاد ، والكفر بالإيمان ، فخسرت صفقتهم ، ثم زاده توضيحاً بقوله ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ وهذا هو الترشيح : وهو ذكر ما يلائم المشبه به .

المفردات اللغوية :

﴿ خلوا إلى شياطينهم ﴾ انصرفوا إليهم أو انفردوا معهم ، وشياطينهم : إخوانهم في الكفر ورؤساؤهم وكبراؤهم ﴿ مستهزئون ﴾ الاستهزاء : الاستخفاف والسخرية ، وهذا فعل اليهود .

﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ أي أنه سيجازيهم عليه بالإمهال ، ثم بالنكال ، على سبيل المشاكلة (اتفاق اللفظ واختلاف المعنى) ليزدوج الكلام ، فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما . ﴿ يمدهم ﴾ يزيدهم أو يُمهلهم . ﴿ طغيانهم ﴾ تجاوزهم الحد وغلوهم في الكفر . ﴿ يعمهون ﴾ أي يتحيرون أو يعمَوْن عن الرشد ، من العمه : وهو ضلال البصيرة .

سبب نزول الآية ١٤ :

أورد المفسرون أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين إذ امتدح أبا بكر وعمر وعلياً بعد أن قال فيهم لأصحابه : انظروا كيف أردّ عنكم هؤلاء السفهاء ؟ فنزلت الآية ، لكن قال السيوطي : هذا الإسناد واه جداً .

التفسير والبيان :

هذا في عصر النبوة موقف أو مشهد آخر من مواقف ومشاهد المنافقين من اليهود ، الذين هم كالشياطين ، بل أشد ، وهو موقف لا يحسدون عليه ، لأنه سينكشف الحق قريباً ، وتتجلى الحقيقة ، فإن كل كاذب قليل الإدراك قصير النظر ، لا ينظر إلى المستقبل . فهم إذا خلوا مع بعضهم وزعمائهم تضامنوا معهم ، وقالوا : إنا معكم . وإذا رأوا المؤمنين أعلنوا إيمانهم ، وقد فضح الله أوضاعهم ، ولم يعبأ بهم ، وسيجازيهم أشد الجزاء ، ويزيدهم حيرة وضلالاً في أمورهم .

ثم إنهم بإهمالهم العقل في فهم كتاب الله ، وتركهم الطريق المستقيم ، وأدلة صحة هذا الدين حسداً وبغياً ، كأنهم أقدموا على صفقة خاسرة ، ودفعوا الهدى ثمناً للضلال ، وباعوا النور بالكفر وضلالات الأهواء ، فما ربحوا في هذه التجارة ، لما ينتظرهم من عذاب جهنم . قال ابن عباس : « أخذوا الضلالة وتركوا الهدى » أي استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أورده بلفظ الشراء توسعاً ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء .

وأسند الله تعالى الربح إلى التجارة ، على عادة العرب في قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ، والمعنى ربحت وخسرت في بيعك . وما كانوا مهتدين في اشترائهم الضلالة .

فقه الحياة أو الأحكام :

الجزاء والعقاب واقع على كل من بدل بالإيمان كفراً ، وبالهدى والقرآن والنور والمنهج المستقيم ضلالاً وبطلاناً وظلاماً والتواء ، إذ إن هؤلاء أضاعوا رأس المال وهو ما كان لهم من الفطرة السليمة ، والاستعداد العقلي لإدراك الحقائق . ومن المعلوم أن الناس يصفون التاجر الخاسر الذي ضيع كل رأس ماله ، ولم

يتدارك ماقد خسره في صفقة ما بأنه غبي أحمق ، وهذا هو حال المنافق . ثم إن المعول عليه في دستور القرآن الحكم بصدق الإسلام هو الإخلاص بالقلب ، لا مجرد القول باللسان .

والخلاصة : أن الله تعالى ذكر أربعة أنواع من قبائح المنافقين ، وكل نوع منها كاف وحده في إنزال العقاب بهم وهي ما يأتي[1] :

١ ـ مخادعة الله ، والخديعة مذمومة ، والمذموم يجب أن يميز من غيره كيلا يفعل الذم .

٢ ـ الإفساد في الأرض بإثارة الفتنة والتأليب على المسلمين وترويج الإشاعات الباطلة .

٣ ـ الإعراض عن الإيمان والاعتقاد الصحيح المستقر في القلب ، الموافق للفعل .

٤ ـ التردد والحيرة في الطغيان وتجاوز الحدود المعقولة ، بالافتراء على المؤمنين ووصفهم بالسفاهة ، مع أنهم هم السفهاء بحق ؛ لأن من أعرض عن الدليل ، ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة فهو السفيه ، ولأن من باع آخرته بدنياه فهو السفيه ، ولأن من عادى محمداً عليه الصلاة والسلام ، فقد عادى الله ، وذلك هو السفيه ، فالسفه محصور فيهم ، ومقصور عليهم ، ولديهم شعور ما : بأنهم ركبوا هواهم ، ولم يتبعوا هدي سلفهم ، واعتمدوا في نجاتهم وسعادتهم على الأماني والتعلات ، كقولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ [البقرة ٢/٨٠] وقولهم : ﴿ نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾ [المائدة ٥/١٨] أي شعبه وأصفياؤه .

(١) تفسير الرازي : ٢/٦٢ ـ ٦٨

إيراد الأمثال للمنافقين

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

الإعراب :

﴿ استوقد ﴾ و ﴿ وتركهم ﴾ أعاد الضمير إلى الأول بالإفراد ، وإلى الثاني بالجمع ؛ لأنه نزّل ﴿ الذي ﴾ منزلة « من » و « من » يرد الضمير إليها تارة بالإفراد ، وتارة بالجمع . و ﴿ استوقد ﴾ : إما بمعنى « أوقد » فيكون متعدياً إلى مفعول واحد ، وهو قوله : ﴿ ناراً ﴾ ، وإما أن تكون السين فيه للطلب ، فيكون متعدياً إلى مفعولين ، والتقدير ؛ استوقد صاحبه ناراً . « لما » ظرف زمان ، العامل فيه : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ . ﴿ ماحوله ﴾ اسم موصول بمعنى الذي ، وحوله : الصلة ، وهو في موضع نصب ؛ لأنه مفعول « أضاءت » . وأضاءت : يكون لازماً ومتعدياً ، والأفعال التي تكون لازمة ومتعدية تُنيِّف على ثمانين فعلاً . ﴿ لا يبصرون ﴾ جملة فعلية منفية في موضع نصب على الحال ، من ضمير ﴿ تركهم ﴾ .

﴿ صم بكم عمي ﴾ : مرفوع خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هم .

﴿ أو كصيِّب ﴾ أو : ههنا للإباحة ، كصيب : مرفوع لكونه خبراً لقوله : ﴿ مثلهم ﴾ ، وتقديره : مثلهم كمثل أصحاب صيب ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه . ﴿ فيه ظلمات ﴾ في موضع جر على الوصف لصيب . و ﴿ يجعلون أصابعهم ﴾ جملة فعلية في موضع جر ، صفة لأصحاب المقدر . ﴿ حذر الموت ﴾ مفعول لأجله .

﴿ يكاد البرق ﴾ مضارع كاد ، من أفعال المقاربة ، ينفي في الإيجاب ويوجب في النفي . ﴿ كلما ﴾ منصوب لأنه ظرف .

البلاغة :

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ تشبيه تمثيلي ، شبه المنافق بمستوقد النار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار . وكذلك ﴿ أو كصيب .. ﴾ تشبيه تمثيلي ، شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به ، وشبه شبهات الكفار بالظلمات .

﴿ صم بكم عمي ﴾ تشبيه بليغ ، أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس . ﴿ يجعلون أصابعهم ﴾ مجاز مرسل من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، أي رؤوس أصابعهم . « ويكذبون .. مصلحون .. يعمهون » : توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وهو من المحسنات البديعية . والخلاصة : اشتملت الآيات على قوة التعبير وشدة التأثير وروائع التشبيه ، ففيها تشبيه القرآن بالمطر إذا أمطر يحيي الأرض ، والقرآن يحيي موات النفوس ، ويرى أصحاب الأهواء أن في القرآن شبهاً هي كالظلمات العارضة مع المطر . وفي الآيات أيضاً وعد ووعيد كالرعد قوة وشدة .

المفردات اللغوية :

« المثل » الصفة التي أضحت كالمثل ، أو مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة . ﴿ استوقد ﴾ أوقد ناراً للاستدفاء والإضاءة ، أو طلب إيقاد النار ﴿ أضاءت ﴾ أظهرت ما حولها ، « ترك » صيّر . والصمم : آفة تمنع السماع ، والبكم : الخرس ، والعمى : عدم البصر عما من شأنه أن يبصر .

﴿ كصيب ﴾ الصيب : المطر الكثير . ﴿ رعد ﴾ الرعد : صوت احتكاك الهواء الذي يسمع في السحاب عند تجمعه . والبرق : هو الضوء الذي يلمع في السحاب غالباً بسبب احتكاك الهواء واتحاد كهربية السحاب الموجبة بالسالبة . والصاعقة : نار عظيمة تنزل أحياناً أثناء المطر والبرق بسبب تفريغ كهربية السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والخطف : الأخذ بسرعة .

﴿ قاموا ﴾ : وقفوا وثبتوا في أماكنهم متحيرين منتظرين تغير الحال ، للوصول إلى النجاة . والظلمات : هي ظلمة الليل وظلمة السحب وظلمة الصيّب نفسه .

سبب نزول الآية ١٩ :

أخرج الطبري عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما في نزول هذه الآية : قالوا : كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين ، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله : فيه رعد شديد وصواعق وبرق ، فكان كلما أضاءت لهما الصواعق ، جعلا أصابعهما في آذانهما من الفَرَق (الخوف) أن

تدخل الصواعق في مسامعها ، فتقتلها ، وإذا لمع البرق مشوا في ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا ، وقاما مكانهما لا يمشيان ، فجعلا يقولان : ليتنا قد أصبحنا ، فنأتي محمداً ، فنضع أيدينا في يده ، فأصبحا فأتياه ، فأسلما ووضعا أيديهما في يده ، وحسن إسلامهما ، فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين ، مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة .

وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ ، جعلوا أصابعهم في آذانهم فَرَقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء ، أو يذكروا بشيء ، فيقتلوا ، كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما ، وإذا أضاء لهم مشوا فيه . فإذا كثرت أموالهم وولد لهم الغلمان ، وأصابوا غنيمة أو فتحاً ، مشوا فيه ، وقالوا : إن دين محمد ﷺ دين صدق ، فاستقاموا عليه ، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، وكانوا إذا هلكت أموالهم وولدهم وأصابهم البلاء قالوا : هذا من أجل دين محمد ، فارتدوا كفاراً ، كما قام ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما[1] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

التفسير والبيان :

ضرب الله تعالى في هذه الآيات مَثَلين لتوضيح حال المنافقين وبيان شناعة أعمالهم وسوء أفعالهم ، تنكيلاً بهم ، وفضحاً لأمورهم ، إذ كانوا فتنة للبشر ، ومرضاً في الأمة . وضرب الأمثال هو منهج القرآن لتوضيح المعاني وإبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجلية ، وهذان المثلان يصوران حالة القلق والحيرة والاضطراب عند المنافقين وسرعة انكشاف أمرهم :

المثل الأول ـ لسرعة انكشاف أمرهم : وهو أن مثل المنافقين وحالهم في إظهار الإسلام زمناً قليلاً وأمنهم على أنفسهم وأولادهم ، كحال الذين أوقدوا

(١) تفسير الطبري : ١١٩/١

ناراً ، لينتفعوا بها ، فلما أضاءت ما حولهم من الأمكنة والأشياء ، وأبصروا زمناً يسيراً ، أطفأها الله بنحو مطر شديد أو ريح عاصف ، فصيرهم لا يبصرون شيئاً ؛ وتركهم في ظلمة الليل وظلمة السحب المتراكمة وظلمة إطفاء النار ؛ لأن النور قد زال .

والمنافقون عطلوا مشاعرهم وإحساساتهم ، إنهم عطلوا منفعة السمع ، فلم يسمعوا عظة واعظ وإرشاد مرشد ، بل لا يفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صُمٌّ عن الحق لا يسمعون . وعطلوا منفعة الكلام والسؤال والمناقشة ، فلم يطلبوا برهاناً على قضية ، ولا بياناً عن مسألة ، فكأنهم بُكْمٌ لا يتكلمون ، وعطلوا منفعة البصر ، فلم ينظروا ولم يعتبروا بما حل بهم من الفتن وبما تعرضت له الأمم ، فكأنهم عُمْي عن الهدى . وهم لا يعدلون أصلاً عن حالهم من الضلالة إلى الهدى ، فلا تأس عليهم ولا تحزن .

والمثل الثاني ـ لحيرتهم وقلقهم وانتهازيتهم : وهو أن القرآن قد أتاهم بالإرشادات الإلهية ، ولكنهم أعرضوا عنها ، فحالهم تشبه حال قوم نزل عليهم المطر الغزير ، المصحوب بالمخاوف من ظلمات المطر والسحب والليل ، والرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، وفي هذا الجو القاتم تلمسوا سبيل النجاة ، وعقدوا الأمل على ما لاح في الأفق من نور ، فعزموا على اتباع الحق الذي جاءت به الآيات البينات ، ثم مالبثوا أن وقعوا في الظلام ، فأصابهم القلق والاضطراب ، والله محيط بهم ، قادر عليهم ، فلو شاء لأذهب أسماعهم بقوة الرعد ، وأبصارهم بوميض البرق الخاطف ، ولكن لحكمة ومصلحة ، لم يشأ ذلك ، لإمهالهم وإعطائهم الفرصة ليثوبوا إلى رشدهم .

والخلاصة : قد يضيء النفاق لصاحبه الدرب حيناً قصيراً ، ثم سرعان ما ينطفئ كما تنطفئ النار ، مما يجعل النفاق لا دوام له ولا استمرار . وقد يجد المنافق الأمل في نفاقه لتحقيق غرض أو مكسب مادي رخيص ، ثم تتبدد

الآمال ، ويبقى المنافقون في قلق واضطراب ، إذ إن فرحهم الظاهري بنزول آية ، وسيرهم مع المسلمين ، يسقطه الامتحان عندما يطالبون بالجهاد مع المؤمنين ، وإن التلون بالدم حين الخير ، والنقمة والكفر حين الشر ، مثل المنافق غير المؤمن .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ثم كفروا فذهب الله بنورهم . فما يظهره المنافقون من الإيمان الذي تثبت به أحكام المسلمين في الزواج والميراث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، واغترارهم لما آمنوا بكلمة الإسلام ، لافائدة له في أحكام الآخرة ؛ لأنهم يصيرون إلى العذاب الأليم ، كما أخبر التنزيل : ﴿ إن المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ ﴾ [النساء ١٤٥/٤] فَمَثَل استضاءتهم بضوء إقرارهم بالإسلام مع إسرار الكفر كإضاءة النار الموقوتة أو كمثل مطر مظلم . والمنافقون عطلوا بحق وسائل المعرفة الصحيحة والإيمان الراسخ ، فهم صمٌّ عن استماع الحق ، بُكْمٌ عن التكلم به ، عُمْيٌ عن الإبصار له ، وأشد من ذلك أنهم لا يرجعون في النهاية إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ، لا بقهر وإجبار . ومع نفاقهم فلم يعجل الله عقابهم في الدنيا ، وقد استنبط الجصاص من ذلك : أن عقوبات الدنيا ليست موضوعة على مقادير الإجرام ، وإنما هي على ما يعلم الله من المصالح فيها ، وعلى هذا أجرى الله تعالى أحكامه[1] .

والقرآن ممتلئ بالخير والآيات الدالة على كونه من عند الله كالصيّب ، وما فيه من الوعيد والزجر كالرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً تبهر المنافقين كالبرق ، وما فيه من الدعوة إلى القتال في العاجل والوعيد في الآجل كالصواعق .

---

(١) أحكام القرآن : ٢٦/١ ـ ٢٧

والله محيط بجميع الكائنات وبالكافرين ، فلن يفلت من حسابه أو قدرته أو مشيئته أحد ، ولو شاء الله لأطلع المؤمنين على المنافقين ، فذهب منهم عز الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم . وهو سبحانه المتميز بالقدرة الشاملة لكل شيء ، فهو جل وعز قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم ، ويجب على كل مكلف (بالغ عاقل) أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فَعَل ، ويفعل ما يشاء على وَفْق علمه واختياره ، ويجب عليه أيضاً أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة ، وأنه غير مستبد بقدرته .

هذه هي الآيات العشرون ، أربع منها في وصف المؤمنين ، وآيتان في وصف الكافرين ، وبقيتها في المنافقين[1] .

الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

الإعراب :

﴿ يأيها الناس ﴾ : ياحرف نداء ، وأي : اسم منادى مضموم ، وها للتنبيه ، وكثرة النداء في القرآن بهذا الأسلوب للتأكيد والمبالغة ، لأن كل مانادى الله به عباده من أوامر ونواه وعظات من

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص ١١

الأمور العظام الموجبة للتيقظ . والناس : بدل من المنادى ؛ لأن مافيه أل بدل من المنادى إذا كان جامداً ، ونعت أو صفة إذا كان مشتقاً ، وعبارة القرطبي : الناس : مرفوع صفة لأي عند جماعة النحويين . ﴿ الذي جعل ﴾ : إما منصوب صفة ﴿ ربكم ﴾ أو مفعول ﴿ تتقون ﴾ أو منصوب على المدح بتقدير فعل ، أو منصوب صفة للفظ الله في قوله تعالى : ﴿ إن الله .. ﴾ (٢٠) . وإما مرفوع خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو الذي ، أو مبتدأ خبره : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ (٢٢) ، أو صفة لفظ ﴿ الله ﴾ في قوله : ﴿ ولو شاء الله .. ﴾ (٢٠) .

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أيتم : ضمير مرفوع منفصل مبتدأ ، و ﴿ تعلمون ﴾ جملة فعلية في موضع الخبر ، والجملة من المبتدأ والخبر حال من ضمير ﴿ تجعلوا ﴾ .

البلاغة :

﴿ ربكم ﴾ الإضافة للمخاطبين للتعظيم .

﴿ جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ﴾ مقابلة بين الأرض والسماء ، والفراش والبناء ، من أنواع المحسّنات البديعية .

المفردات اللغوية :

« يا » : لنداء البعيد أو الساهي أو الغافل ، فإن نودي به القريب فهو بقصد تعظيم المنادى به ، وإيقاظ النفوس ، واجتذاب الأنظار ، واستمالة القلوب الغافلة ، فاقتضى الحال أن ينادوا بالأكد الأبلغ . وأما نداء القريب فيكون بكلمة « أي » ﴿ خلقكم ﴾ الخلق : الإيجاد والاختراع بلا مثال سابق .

﴿ فراشاً ﴾ : الفراش : البساط للاستقرار ، والمراد أنه مهد الأرض للإقامة فيها والاستقرار عليها وذلك مثل المذكور في آيتين أخريين : ﴿ الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾ [غافر ٦٤/٤٠] ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ ٦/٧٨] . ﴿ بناء ﴾ سقفاً مرفوعاً مبنياً محكماً . ﴿ أنداداً ﴾ جمع ند وهو النظير ، أي أمثالاً من الآلهة تعبدونها من دون الله . والمراد بعبادة المؤمنين : ازديادهم منها وإقبالهم عليها وثباتهم فيها . وأما عبادة الكفار فشروط فيها مالابد لها منه وهو الإقرار بالشهادتين ، وما لابد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به ، وإن لم يذكر ، كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرها .

مناسبة الآيات :

بعد أن ذكر الله تعالى أصناف الناس الثلاثة : وهم المؤمنون ، والكافرون ،

والمنافقون ، أمر جميع الناس ومنهم مشركو مكة بعبادته والاستكانة والخضوع له بالطاعة ، وإفراد الربوبية والوحدانية له ، وعبادته دون الأوثان والأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها ؛ لأنه تعالى هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم ، وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم ، ولأنه المنعم المتفضل على جميع الخلائق بخيرات الأرض والسماء .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى جميع الناس من مشركي مكة وغيرهم بعبادته وحده ، كما أمرهم على لسان الأنبياء السابقين في قوله تعالى : ﴿ ولقد بَعَثْنا في كل أمّةٍ رَسُولاً أن اعبدُوا الله ، واجْتَنِبوا الطاغوت ﴾ [النحل ٣٦/١٦] أي الأوثان . وأصل العبادة : الخضوع والتذلل ، ويراد بها هنا توحيد الله والتزام شرائع دينه ، ونبذ عبادة الأصنام . والسبب أن هذا الرب العظيم يستحق إفراده بالعبادة ؛ لأنه خالق العباد جميعهم ، المأمورين وأسلافهم ، ومدبر شؤونهم ، وواهبهم ما يحتاجونه من طرق الهداية ووسائل المعرفة . وللعبادة ثمرة مؤكدة هي الوصول للتقوى والظفر بالفوز والنجاح والهدى وبلوغ درجة الكمال ؛ لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلقه ليتقي ، ومن عبد الله حق العبادة تحققت تقواه التي يحبها الله من عباده . وبما أن الأصل في كلمة « لعل » للترجي والتوقع ، وهو مستحيل من الله القدير الأعلى للعبد الضعيف الأدنى ، فكان المراد به : افعلوا ذلك راجين الوصول للتقوى ، أو لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا .

والأمر بالعبادة أيضاً لأنه سبحانه جعل الأرض مهاداً وقراراً للاستقرار عليها ، والحياة والإقامة فيها بهدوء واطمئنان ، بالرغم من دورانها وكرويتها ، فهي ثابتة بالجبال الراسيات : ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ [النبأ ٧/٧٨] ، ولأنه جعل السماء سقفاً مرفوعاً فوق الأرض كالقبة ، تُظلُّ الناس بالخير والبركة ، وأحكم

بناءها مع مافيها من أفلاك وأجرام ، وأحكم النّسب بينها بسنة الجاذبية ، فلا يختل نظامها ، ولا يسقط منها جرم عظيم على الأرض ، ولا تصطدم ببعضها ، وأنزل منها أي من السحاب ماء مباركاً ومطراً عذباً ينبت به الزرع والعشب ، ويحيي الأرض بعد موتها ، ويغسل به الجو الذي تلوث بالتراب وغيره من كل ما يؤذي ويضر ويعكر صفو الحياة وصفاء الهواء .

فمن اتصف بالخلق والإبداع والتكوين للإنسان ، والإمداد له بالنعم والأرزاق ، وبخلق السماء والأرض لخير البشر ، جدير بالعبادة والتعظيم والخضوع له ، فلا يليق اتخاذ الشركاء الضعفاء معه من الأصنام والبشر ، الذين لا يخلقون شيئاً ولا يقدمون رزقاً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ، ولا يدفعون عن ذواتهم ضراً ، وتقدس الله تعالى عن اتخاذ الأنداد والشركاء والأولاد ، إذ لاحاجة له بهم ، فمن كانت له حقيقة القدرة ، ودلت عليه دلائل الربوبية والوحدانية هو المستحق وحده للطاعة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وأما اتخاذ المشركين الأصنام أنداداً توسلاً بها إلى الله ، واتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، في التشريع وتحليل المنكرات ، وتحريم بعض الطيبات ، فهو محض الافتراء والكذب ، ومغالطة الواقع ، مع أن الكل متفقون على أن الخالق والرازق هو الله ، وحال جميع الكافرين والمنافقين يعلمون في الحقيقة بطلان شرائع وأنظمة الآلهة المزعومة ؛ قال تعالى : ﴿ ولئن سألتَهم من خَلَق السمواتِ والأرضَ ، وسخَّر الشمسَ والقمرَ ، ليقولُن اللهُ ، فأنّى يُؤْفَكُون ﴾ [العنكبوت ٦١/٢٩] أي يصرفون . وقال سبحانه مندداً باتخاذ الوسائط إلى الله ، وبإبطال التقرب بغير ما شرع الله : ﴿ ما نعبُدهم إلا ليقرّبُونا إلى الله زُلْفَى ﴾ [الزمر ٣/٣٩] .

فقه الحياة أو الأحكام :

العبادة التي هي توحيد الله والتزام شرائع دينه لاتكون إلا لله الخالق الرازق ، وملازمة العبادة الخالصة لله مدعاة لغرس أصول التقوى لله عز وجل ، فلا يجرؤ المتقون على مخالفة الأوامر ، واقتحام المعاصي .

وليس المراد بكون الأرض فراشاً ، أي وطاء للافتراش والاستقرار عليها ، هو الفراش المعهود المستخدم للنوم ، فمن حلف لا ينام على فراش ، فنام على الأرض ، لايحنث في رأي الحنفية والشافعية ؛ لأن اللفظ لا ينصرف إليها عرفاً ، والأيمان محمولة على المعتاد المتعارف من الأسماء ، وليس في العادة إطلاق هذا اللفظ على الأرض . وأما المالكية فيحملون الأيمان على النية أو السبب أو بساط الحال التي جرت عليه اليمين (أي سبب اليمين) ، فإن عدم ذلك فالعرف ، فإن لم يكن شيء من ذلك فيحمل اليمين على مطلق اللفظ المراد في اللغة .

ودلت الآية على توحيد الله ، وإثبات الصانع الذي لا يشبهه شيء ، القادر الذي لا يعجزه شيء . ومن مظاهر قدرته رفع السماء ووقوفها بغير عمد نراه ، ودوامها على طول الدهر ، دون تبدل ولا تغير ، كما قال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا السماءَ سَقْفاً مَحْفوظاً ، وهم عن آياتِها مُعْرِضُون ﴾ [الأنبياء ٢١/٣٢] وكذلك ثبات الأرض ووقوفها على غير سند بالرغم من تحركها ، ودورانها في الفضاء ، من أعظم الدلالات على التوحيد ، وعلى قدرة خالقها ، وأنه لا يعجزه شيء ، وفي ذلك تنبيه على الاستدلال بها على الله وتذكير بالنعمة ، فقد أخرج الله من الأرض ألواناً من الثمرات ، وأنواعاً من النبات ، طعاماً للإنسان ، وعلفاً للدواب ، وقد بين الله هذا في قوله تعالى : ﴿ أنا صَبَبْنا الأرضَ صَبّاً ، ثم شَقَقْنا الأرضَ شَقّاً ، فأنْبَتْنَا فيها حَبّاً ، وعِنَباً وقَضْباً ، وزيتوناً ونَخْلاً ، وحدائقَ غُلْباً ، وفاكهةً وأبّاً[1] ، متاعاً لكم ولأنعامِكم ﴾ [عبس ٨٠/٢٥ ـ ٣٢] .

---

(١) القضب : علف رطب للدواب كالبرسيم ، والأب : الكلأ والعشب ، أو هو التبن خاصة .

وأرشدت هذه الآية إلى أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ، وقد أشار عليه السلام إلى هذا المعنى : « والله لأن يأخذ أحدكم حَبْلَه ، فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يسأل أحداً ، أعطاه أو منعه »[١] . قال القرطبي : ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنايع وغيرها ، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله ، بسبب الحرص والأمل ، والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً[٢] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد ؛ لأن المشركين يعلمون في الحقيقة أن المنعم عليهم هو الله دون الأنداد ، ويعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبروا ونظروا وأعملوا عقولهم وأفكارهم ، فلا داعي للوسائط المزعومة في قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلفى ﴾ [الزمر ٣/٣٩] .

تحدي الجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

(١) أخرجه مسلم .

(٢) تفسير القرطبي : ٢٣٠/١

الإعراب :

الهاء في ﴿ مثله ﴾ إما أن تكون عائدة على ﴿ عبدنا ﴾ فتكون ﴿ من ﴾ ابتدائية ، وتقديره : ابتدئوا في الإتيان بالسورة من مثل محمد ، وإما أن تكون عائدة على ﴿ مانزّلنا ﴾ وهو القرآن ، فتكون ﴿ من ﴾ زائدة للبيان ، وتقديره : فأتوا بسورةٍ مثله . و ﴿ من مثله ﴾ متعلق بسورة صفة لها ، أي بسورة كائنة من مثله . قال الزمخشري : ورد الضمير إلى المنزّل أوجه ، لقوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ [يونس ٣٨/١٠] ، ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ [هود ١٣/١٤] ، ﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء ٨٨/١٧] ، ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب ، والكلام مع ردّ الضمير إلى « المنزّل » أحسن ترتيباً ، وذلك أن الحديث في المنزل ، لا في المنزل عليه .

﴿ أعدت ﴾ إما حال للنار على معنى معدّة ، وأضمرت معه قد ، كما قال : ﴿ أو جاءوكم حصرت صدورهم ﴾ [النساء ٩٠/٤] ، أي قد حصرت ، وإما بكلام منقطع عما قبله .

البلاغة :

﴿ على عبدنا ﴾ إضافة تشريف وتخصيص . ﴿ فأتوا بسورة ﴾ الأمر خرج إلى معنى التعجيز ، وتنكير السورة لإرادة العموم والشمول .

﴿ ولن تفعلوا ﴾ يفيد دوام التحدي في الماضي والحاضر والمستقبل . ﴿ فاتقوا النار ﴾ إيجاز صارف إلى الغاية المقصودة جوهرياً ، أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بالإيمان بالقرآن وبالنّبي محمد عليه الصلاة والسلام .

المفردات اللغوية :

﴿ ريب ﴾ شك . ﴿ عبدنا ﴾ محمد . ﴿ من مثله ﴾ أي المنزل ، أي هي مثله في البلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب . ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ أحضروا آلهتكم أو نصراءكم ورؤساءكم ، أو من يشهد لكم يوم القيامة . ﴿ من دون الله ﴾ أي غيره لتعينكم . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أن محمداً قاله من عند نفسه ، فإنكم عرب فصحاء مثله . والسورة : قطعة أو طائفة من القرآن ، لها أول وآخر ، أقلها ثلاث آيات .

المناسبة :

بعد أن صنّف القرآن الناس إلى أقسام ثلاثة : متقين موحدين ، وجاحدين معاندين ، ومنافقين مذبذبين ، وبعد أن أثبت الوحدانية والربوبية لله ، ونفى الشركاء بالمنطق والبرهان ، أثبت الله تعالى أن القرآن كلام الله ، وأنه نزل من عنده ، بدليل أنه معجز ، لم يتمكن أحد من الجن أو الإنس مجاراته والإتيان بمثله ، مع أن العرب فرسان البلاغة ، وأساطين الفصاحة ، ولا فخر لهم إلا بالكلام شعراً ونثراً وخطابة ، وبما أنهم عجزوا ، ولم يستطيعوا الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن ، فقد ثبت صدق محمد ﷺ فيما ادعاه من النّبوة ، وماأتى به من الرسالة الإلهية . وكان منكر نبوته ورسالته مستحقاً العقاب والجزاء في نار جهنم .

التفسير والبيان :

إن كنتم أيها العرب وغيركم من الجاحدين في شك من صدق القرآن ، الذي أنزله الله على عبده ورسوله النّبي الأميّ محمد بن عبد الله ، وزعمتم أنه من كلام البشر ، فأتوا بمثله ، كما يقدر سائر البشر ، وذلك إن كنتم صادقين في أنه مختلق ومن كلام البشر ، وأنكم تقدرون على المعارضة لقولهم : ﴿ لو نشاءُ لقُلْنا مثلَ هذا ﴾ [الأنفال ٣١/٨] ، واستعينوا بمن شئتم من الرؤساء والأشراف والآلهة المزعومة ، لمعارضة القرآن ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله ، وحيث عجزتم ولم تقدروا على الإتيان بسورة تماثل القرآن في البيان الغريب والبلاغة المتفوقة ، وعلو حسن النظم ، وسلامة المنطق ، وروعة التشريع والأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ، والإخبار بالمغيبات ، ويظل العجز دائماً في المستقبل ، فلن تقدروا على الإتيان بمثله ، مع أنه كلام عربي من جنس كلام العرب في الشعر والخطابة والنثر والأسلوب ، وفي العرب البلغاء والفصحاء والشعراء والخطباء وأعلام البيان والقول .

وحيث ظهر العجز فعلاً ، فارجعوا إلى الحق ، والإيمان بالقرآن ، والتصديق برسالة النّبي محمد ﷺ ، ففي ذلك وحده النجاة من عذاب الله في النار التي وقودها الناس الكفار والحجارة (الأصنام) مادة الاشتعال ، فهي لا يماثلها أعلى فرن ناري عالي التوتر لصهر الحديد وغيره من المواد الصلبة ، ولا تقدَّر درجات حرارتها بأفران الدنيا على الإطلاق ، وقد أعدها الله وهيأها للكافرين الجاحدين المنكرين رسالة الإسلام ، جزاءً وفاقاً لكفرهم وجحودهم . قال تعالى : ﴿ إنكم وماتَعْبُدون من دونِ الله حَصَب جَهنَّم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء ٩٨/٢١] .

والخلاصة : إذا بان العجز التام عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن ، مع المحاولة وبذل الجهود واستمرار التحدي في المستقبل ، فاحذروا العناد ، واعترفوا بكون القرآن من عند الله ، لئلا تكونوا مع أصنامكم وقوداً لنار جهنم التي أعدت لأمثالكم الكافرين .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية ﴿ وإن كنتم في ريب .. ﴾ على صحة نبوة نبيّنا عليه الصلاة والسلام من وجوه :

الوجه الأول ـ أنه تحداهم بالإتيان بمثل القرآن ، وقرَّعهم بالعجز عنه ، مع ماهم عليه من الأَنَفَة والْحَمِيَّة ، وأنه كلام موصوف بلغتهم ، فلوقدروا على معارضته لكانت معارضته أبلغ الأشياء في إبطال دعواه وتفريق أصحابه عنه . فلما ظهر عجزهم عن معارضته ، دلّ ذلك على أن القرآن من عند الله الذي لا يعجزه شيء ، وأنه ليس في مقدور العباد مثله . وهذه معجزة باقية لنبيّنا عليه الصلاة والسلام بعده إلى قيام الساعة ، وقد كانت هذه المعجزة تتناسب مع اعتزاز العرب بالفصاحة والبلاغة بما لم يتهيأ لغيرهم ، فجعل الله تعالى آية محمد الكبرى كتاباً معجزاً لهم ولسائر الخلق في نظمه وأسلوبه ، وفصاحته وبلاغته ،

فكانت عليهم الحجة بأقوى مما قامت به المعجزات المادية السابقة مثل عصا موسى ويده في عصر السحر ، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص وإحياء الموتى في عصر الطب .

والوجه الثاني ـ كان معلوماً عند الناس قاطبة : المؤمنين والجاحدين لنبوة النّبي ﷺ أنه كان من أتمّ الناس عقلاً ، وأكملهم خلقاً ، وأفضلهم رأياً ، فما طعن عليه أحد في كمال عقله ، ووفور حلمه ، وصحة فهمه ، وجودة رأيه ، فلا يجوز على من كان هذا وصفه أن يدّعي النّبوة ، ويجعل علامة نبوته كلاماً يقدر كل واحد من العرب على مثله ، فيظهر حينئذٍ كذبه ، وبطلان دعواه ، فدلّ ذلك على أنه تحداهم بكلام هو من عند الله لا يقدر العباد على مثله .

والوجه الثالث ـ أخبر تعالى بقوله : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ أنهم لا يعارضونه ، وذلك إخبار بالغيب ، وتحقق الخبر مع مضي الزمان . قال أبو بكر الجصاص[1] : وقد تحدى الله الخلق كلهم من الجن والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ ، لا يأتونَ بِمِثْلِهِ ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً ﴾ [الإسراء ٨٨/١٧] ، فلما ظهر عجزهم قال : ﴿ فأتوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرياتٍ ﴾ [هود ١٣/١٤] ، فلما عجزوا قال : ﴿ فليَأْتُوا بحديثٍ مِثْلِهِ إنْ كانوا صادقين ﴾ [الطور ٣٤/٥٢] ، فتحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه ، فلما ظهر عجزهم عن ذلك ، وقامت عليهم الحجة ، وأعرضوا عن طريق المحاجة ، وصمموا على القتال والمغالبة ، أمر الله نبيه بقتالهم .

والخلاصة : أن التحدي كان متنوعاً ، مرة بالنظم والمعنى ، ومرة بالنظم دون المعنى ، بافتراء شيء لا معنى له ، وفي كل الأحوال ظهر فشلهم .

---

(١) أحكام القرآن : ٢٩/١

وأرشدت الآية : ﴿ فإنْ لم تفعلوا .. ﴾ على ظهور العجز التام عن المعارضة ، وعلى استحقاق الكافرين النار لإنكارهم نبوة النَّبي ﷺ ، ولعدم تصديقهم بالقرآن ، وعلى أن من اتقى النار ترك المعاندة ، وعلى أن النار حالياً ومن القديم مخلوقة مهيأة موجودة معدّة للعصاة والفسّاق والكفّار . قال القرطبي[1] : فيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ، خلافاً للمبتدعة في قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن .

جزاء المؤمنين العاملين

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

الإعراب :

﴿ متشابهاً ﴾ منصوب على الحال من الضمير في ﴿ به ﴾ والعامل فيه : ﴿ أتوا ﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في المنظر ، ويختلف في الطعم . ﴿ ولهم فيها أزواج ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم . ﴿ مطهرة ﴾ نعت للأزواج ، ومطهرة في اللغة : أجمع من طاهرة وأبلغ . ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ « هم »: مبتدأ ، و « خالدون » خبره ، والظرف ملغى . ويجوز في غير القرآن نصب « خالدين » على الحال .

والسبب في تنكير جنات وتعريف الأنهار : أن الجنة اسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين ، لكل طبقة منهم جنات من تلك

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٣٦/١

الجنان . وأما تعريف الأنهار : فلأن إيراد الجنس ، كما تقول : لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب وألوان الفاكهة ، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب ، أو المراد أنهارها ، فعوّض التعريف باللام من تعريف الإضافة ، كقوله : ﴿ واشتعلَ الرأسُ شَيْباً ﴾ [مريم ٤/١٩] ، أو لأنه يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى : ﴿ فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسن ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طَعْمُه .. ﴾ [محمد ١٥/٤٧] .

المفردات اللغوية :

﴿ وبشّر ﴾ أخبر . ﴿ الذين آمنوا ﴾ صدقوا بالله . ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ من الفروض والنوافل . ﴿ أن ﴾ أي بأن . ﴿ جنات ﴾ حدائق ذات شجر ومساكن ، وهي دار الخلود للمؤمنين ، وسميت جنة ، لأنها تُجنُّ من فيها أي تستره بشجرها . ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي تحت أشجارها وقصورها . ﴿ الأنهار ﴾ المياه فيها . ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة ﴾ أُطعموا من تلك الجنات . ﴿ رزقنا من قبل ﴾ أي قبله في الجنة لتشابه ثمارها . ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ يشبه بعضه بعضاً لوناً ويختلف طعماً . ﴿ ولهم فيها أزواج ﴾ من الحور وغيرها . ﴿ مطهرة ﴾ من الحيض والبصاق وسائر الأقذار . ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ ماكثون أبداً لا يَفْنَون ولا يخرجون ، والخلود : البقاء ، ومنه جنة الخلد .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

يعقد القرآن عادة مقارنات بين الأشياء المتضادة ، فلما ذكر الله جزاء الكافرين والعصاة ، أردف ذلك ببيان جزاء المؤمنين الأتقياء الأطهار ، ليظهر الفرق بين الفريقين ، وليكون ذلك أدعى للعبرة والعظة ، والامتثال من مقارنة الأحوال .

التفسير والبيان :

بشّر يا محمد أنت وورثتك من العلماء : المؤمنين المتقين ، الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات والحسنات أن لهم حدائق ذات أشجار ومساكن ، تجري من تحت

قصورها ومساكنها أنهار الجنة[١] ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ، وفيها - كما ورد في الصحيحين - ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّةِ أعينٍ ، جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة ١٧/٣٢] .

فيها الأرزاق الدائمة والثمار الشهية المتنوعة ، كلما قدمت لهم ثمرة منها في أول النهار وآخره ، قالوا متعجبين : هذه الثمرة كالتي رزقناها في الدنيا ، فإذا أكلوها وجدوا لها طعماً غير الطعم المعتاد ، وأدركوا أنها تشبه ثمار الدنيا في المنظر والشكل والجنس فقط ، وتختلف في الذوق والطعم والحجم ، فهي مما لم يروه أبداً ، وجيئوا بها مشابهة لثمار الدنيا المألوفة ، مع اختلاف المادة والطعم ، قال ابن عباس : « ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء » ، وقال الطبري[٢] : « أولى التأويلات تأويل من قال : وأُتوا به متشابهاً في اللون والمنظر ، والطعم مختلف ، يعني بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا في المنظر واللون ، مختلفاً في الطعم والذوق .

ومن الأمور الغيبية التي نؤمن بها كما أخبر الله أن في الجنة للمؤمنين زوجات من الحور العين ، مقصورات في الخيام ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، مطهرات من الأقذار والأدناس المنفرة : الحسية والمعنوية ، كالحيض والنفاس ، والحدث من البول والغائط ، والتنُّخم أو البصاق ، وشرور النفس والهوى . روى مسلم أن النّبي ﷺ قال : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتْفلون ولا يبولون ، ولا يتغوّطون ولا يتمخّطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك ، ويُلهمون التسبيح والتحميد ، كما تلهمون النَّفَس » .

---

(١) روى أبو هريرة أن النّبي ﷺ قال : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » .

(٢) تفسير الطبري : ١٢٥/١ ومابعدها ، ومثله تفسير الرازي : ١٣٠/٢

لكن ورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنّ يوم القيامة أفضل من الحور العين ، المذكورات في قول الله تعالى : ﴿ إنّا أنشأناهُنّ إنشاءً ☆ فجعلناهُنّ أبكاراً ☆ عُرُباً أتْراباً ☆ لأصحاب اليمينِ ﴾ [الواقعة ٣٥/٥٦ ـ ٣٨] . روى الترمذي عن أم سلمة : « .. قلت : يارسول الله ، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظهارة على البطانة . قلت : يارسول الله ، وبِمَ ذاك ؟! قال : بصلاتهن وصيامهم وعبادتهن الله عزّ وجلّ »[1] . وثبت في الصحيح أيضاً : أن لكل رجل في الجنة زوجتين اثنتين . قال العلماء : إحداهن من نساء الدنيا ، والأخرى من نساء الجنة .

وتمتاز الجنة عن الدنيا بأنها دار الخلود أي الدوام والبقاء والمكث الطويل ، الذي لابديل عنه ، وهو تمام السعادة ، وأمل المؤمنين .

فقه الحياة أو الأحكام :

تتوالى البشائر القرآنية المفرحة للنفوس ، المحرّكة للقلوب ، بأن الجنة دار النعيم الدائم المقيم هي المخصصة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات . والإيمان بمجرده لا يكفي ، بل لابدّ من أن ينضم إليه الطاعة والعمل الصالح . ونعيم الجنة غير محدود ورزقها لا ينقطع ، وإنما أراد الله أن يقرب لعقولنا ماأعدّ فيها ، بهذه الآية وغيرها ، وبما أن طبيعة البشر تتعلق عادة بالماديات ، أغراهم الله بما تميل إليه نفوسهم ، فوعدهم بالحقائق المادية ، المعبر عنها في آية أخرى بإيجاز : ﴿ وفيها ماتشتهيه الأنفسُ ، وتَلَذُّ الأعينُ ، وأنتُم فيها خالدونَ ﴾ [الزخرف ٧١/٤٣] ، ويظل الإنسان في عالم الآخرة إنساناً لامَلَكاً ، وإنما تكون لذاته الإنسانية أكمل مما كان في الدنيا ، وأسلم من المنغصات .

وأما الأعمال الصالحة التي تبوّئ أصحابها الجنان : فهي كل خير أقره العرف

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢٩١/٤

والشرع والعقل والفطرة السليمة ، منها المذكور في أوائل سورة « المؤمنون » : ﴿ قد أفلحَ المؤمنونَ ☆ الذينَ هُمْ في صلاتِهم خَاشِعون ☆ والذينَ هُمْ عَنِ اللَّغو مُعْرِضونَ ☆ والذينَ هُمْ للزَّكاةِ فاعلونَ ☆ والذينَ هُمْ لفُروجهم حافظونَ ☆ إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم ، فإنهم غيرُ ملومينَ ☆ فمن ابتغى وراءَ ذلكَ ، فأولئكَ هُمُ العادونَ ☆ والذينَ هم لأماناتِهم وعهدِهم راعونَ ☆ والذينَ هم على صلواتِهم يحافظونَ ☆ أولئكَ هم الوارثونَ ☆ الذينَ يرثونَ الفِرْدَوْسَ هم فيها خالدونَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/ ٧ ـ ١١] .

وخلود المؤمنين في الجنة ، وخلود الكفار في النار : معناه في الشرع : الدوام الأبدي ، أي لا يخرجون منها ، ولا هي تفنى بهم ، فيزولوا بزوالها ، وإنما هي حياة أبدية لا نهاية لها .

فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ
بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ
مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ۚ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

الإعراب :

﴿ لا يستحيي ﴾ جملة فعلية منفية في موضع رفع خبر ﴿ إن ﴾ . ﴿ أن يضرب ﴾ في موضع نصب بفعل ﴿ يستحيي ﴾ وحذف حرف الجر هنا ؛ لأن ﴿ أن ﴾ هنا مصدرية . ﴿ مثلاً ﴾ مفعول أول ، و ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ مثلاً ما بعوضة ﴾ إما زائدة لتأكيد الخسة أي مثلاً بعوضة ، و ﴿ بعوضةً ﴾ بالنصب على البدل من ﴿ مَثَل ﴾ ، وإما نكرة موصوفة بما بعدها بدل من ﴿ مَثَل ﴾ أي مثلاً شيئاً بعوضة فهو مفعول ثانٍ ، وإما بمعنى « الذي » و « بعوضةً » مرفوع خبر مبتدأ مقدّر ، أي الذي هو بعوضة . ﴿ فما فوقها ﴾ ما : عطف على ﴿ ما ﴾ الأولى ، أو على ﴿ بعوضة ﴾ إن جعلت « ما » زائدة . ﴿ فأما ﴾ حرف فيه معنى الشرط ، فوقع في جوابها الفاء . ﴿ ماذا ﴾ إما كلمة واحدة للاستفهام في موضع نصب بأراد ، والمعنى : أيّ شيء أراد الله بهذا المثل . وإما أن تجعل ﴿ ذا ﴾ بمعنى « الذي » فتكون ﴿ ما ﴾ في موضع مبتدأ ، وما بعدها الخبر ، فهو استفهام إنكاري . ﴿ مثلاً ﴾ إما منصوب على التمييز ، أو منصوب على الحال من « ذا » في « هذا » .

﴿ أن يوصل ﴾ إما في موضع نصب على البدل من ﴿ ما ﴾ أو في موضع جرّ على البدل من الهاء في ﴿ به ﴾ . و ﴿ الذين ﴾ نعت . و ﴿ أن يوصل ﴾ بدل من ضمير ﴿ به ﴾ .

البلاغة :

﴿ لا يستحيي ﴾ المعنى : لا يترك ، فعبر بالحياء عن الترك ؛ لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه ، كما قرر الزمخشري في (تفسيره : ٢٠٤/١) فهو مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

﴿ ينقضون عهد الله ﴾ فيه استعارة مكنية ، حيث شبه العهد بالحبل ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو النقض ، وسمي العهد حبلاً على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الصلة بين المتعاهدين ، كما قال الزمخشري : ٢٠٧/١ ، أي أن أصل استعمال النقض هو في الحبل ، ثم استعمل في العهد ؛ لأنه يشبهه .

المفردات اللغوية :

﴿ لا يستحيي ﴾ لا يترك ضرب المثل . والحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب عليه ويذم ، فإذا ورد الحياء في حق الله تعالى ، فليس المراد منه ذلك الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته ، بل ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته . ﴿ أن يضرب ﴾ يجعل ﴿ مثلاً ﴾ المثل في اللغة : الشبيه والنظير ، وضرب المثل في الكلام : أن يذكر لحال ما يناسبها ، فيُظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً . ﴿ بعوضة ﴾ الناموسة المعروفة . ﴿ فما فوقها ﴾ ما زاد عليها أو كان أكبر منها ،

أي لا يترك بيانه لما فيه من الحكم . ﴿ الحق ﴾ هو الشيء الذي يحقّ ويجب ثبوته ، ولا يجد العقل سبيلاً لإنكاره . والفسق لغة : الخروج ، يقال : فسقت الرطبة عن قشرها : إذا خرجت . والنقض : الفسخ وفكّ التركيب لحبل وغزل ونحوهما . والميثاق : ما يوثق به الشيء ، ويكون محكماً يعسر نقضه . وميثاق العهد : توكيده ، والمراد : العهد المؤكد باليمين . وعهد الله : ما أخذه على عباده من فهم السنن الكونية بالنظر والاعتبار ، وهو ما أوصاهم به في الكتب السابقة من الإيمان بمحمد إذا ظهر . وطريق الإيمان : استخدام نعمة العقل والحواس المرشدة إلى الفهم .

ونقض الميثاق : عدم استعمال تلك المواهب فيما خلقت له ، حتى كأنهم فقدوها أو عطلوها ، فالمراد بقوله : ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ توكيده عليهم . والمأمور بوصله : هو الإيمان بالنبي ﷺ والرحم وغير ذلك . والإفساد في الأرض : بالمعاصي والتعويق عن الإيمان .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره : ١٣٨/١ عن جماعة من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين : قوله : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ ، وقوله : ﴿ أو كصيّبٍ من السماء ﴾ الآيات الثلاث ، قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله : ﴿ إنّ الله لا يستحيي أنْ يضربَ مثلاً ما بعوضةً .. ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئكَ هم الخاسرونَ ﴾[1] . قال السيوطي في الجلالين : هذا القول أصح إسناداً وأنسب بما تقدم أول السورة .

التفسير والبيان :

إن الله سبحانه وتعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ونحوها بما هو دونها أو أكبر منها ، ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها ، فلاغرابة ولا حرج ولا عيب في الإتيان بالأمثال والأشباه سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ؛ لأن العظمة فيها جميعها شيء واحد وهو الخلق والإبداع ، ولأن المثل جعل لكشف المعنى وتوضيحه بما هو معروف مشاهد ، وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء

(١) انظر أيضاً تفسير القرطبي : ٢٤١/١ ، أسباب النزول للواحدي : ص ١٢

المحسوسة لتأنس بها النفوس ، وتنكشف أمامها الغوامض ، وتزول الأوهام عن معارضة العقل . والله الحكيم يفعل ما يحقق المصلحة بضرب المثل في العظائم والمحقرات حسب الأحوال والمناسبات ، فإن كان الأمر عظيماً كالحق والإسلام ضرب مثله بالنور والضياء ، وإن كان الأمر مهيناً حقيراً كالأصنام ضرب مثله في عدم النفع وانعدام الفائدة بما يشبهه من الذباب والبعوض والعنكبوت .

فأما المؤمنون الذين يصدقون بأن الله خالق الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، فيقولون : هذا كلام الله حق ، لا يقول غير الحق ، والكل لديه سواء ، وهذا المثل لمصلحة وحكمة . وأما الكافرون الذين يستهزئون بالأمثال بالمحقرات فيقولون متعجبين : ماذا أراد الله بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ فهم في حيرة من أمرهم ، وخسارة في نهايتهم ، ولوآمنوا لعرفوا الحق ووجه الحكمة في ذلك ، قال تعالى : ﴿ ليستيقنَ الذينَ أُوتوا الكتابَ ، ويزدادَ الذينَ آمنوا إيماناً ، ولا يرتابَ الذينَ أُوتوا الكتابَ والمؤمنون ، ولِيَقولَ الذينَ في قُلوبهم مرضٌ والكافرونَ : ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً ﴾ [المدثر ٣١/٧٤] .

ثم ردّ الله تعالى على المتسائلين بأن هذا المثل كان سبباً في زيادة ضلال كثير من الكافرين لكفرهم بالله ، وزيادة هداية كثير من المؤمنين لإيمانهم بالله ، ولا يضلّ بضرب المثل أو بغيره من القرآن ، إلا الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله وعن سنته في خلقه وجحد آياته ، وتعطيل عقولهم ومشاعرهم عن إدراك المصالح والغايات .

وفي هذا إشارة إلى أن علّة إضلالهم خروجهم عن السّنن الكونية التي جعلها الله عبرة لمن تذكر ، فإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ؛ لأنه لما ضرب المثل ، فضلّ به قوم ، واهتدى به قوم ، تسبب لضلالهم وهداهم[1] . قال

---

(١) الكشاف : ٢٠٦/١ ومابعدها .

تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربُها للناسِ ، وما يَعْقِلُها إلاّ العالمونَ ﴾ [العنكبوت ٤٣/٢٩] ، والعالمون : هم المؤمنون المهتدون بهدي الحق .

ثم أردف تعالى ذلك ببيان أوصاف هؤلاء الفاسقين ، فهم ينقضون الميثاق ، فلا يستعملون مواهبهم من عقل ومشاعر وحواس لإرشادهم إلى المقصود ، وينقضون ماعاهدوا الله عليه عهداً فطرياً[1] من الإيمان بمحمد والتصديق به وبجميع الرسل الكرام ، والعمل بشرائع الله ، قال تعالى : ﴿ لهم قلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها ، ولهم أعينٌ لا يُبْصرونَ بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمَعونَ بها ، أولئكَ كالأنعامِ ، بلْ هُمْ أضلُّ ، أولئكَ هُمُ الغافلونَ ﴾ [الأعراف ١٧٩/٧] .

وهم يقطعون ماأمر الله به أن يوصل من الإيمان بالله بعد قيام الأدلة الكونية على وجوده ، فقطعوا الصلة بين الدليل والمدلول ، والإيمان بجميع الأنبياء ، ففرقوا بين نبي ونبي ، وقد أمر الله بوصل الإيمان بجميع الأنبياء ، وهم لا يصلون الرحم والقرابات المادية بين الأقارب ، والمعنوية بين الرسل وموالاة المؤمنين . ومشركو العرب بتكذيبهم النبي ﷺ نقضوا عهد الفطرة ، وأهل الكتاب نقضوا العهدين : عهد الفطرة والعهد الديني الذي أخذه الله عليهم في كتبهم من الإيمان بالنبي محمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ وإنّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقَّ ، وهم يَعْلمونَ ﴾ [البقرة ١٤٦/٢] ، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم ، فهو ناقض لعهد الله تعالى .

وهم يفسدون في الأرض بالمعاصي ، والفتن بين الناس ، والصدّ عن الإيمان ،

---

(١) العهد الفطري أو عهد الله : هو ماركز في قلوب ومشاعر وعقول الناس قاطبة من ظهور الحجة على توحيد الإله ، وهو بمثابة أمر وصام الله به ووثقه عليهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وأشْهَدَهُمْ على أنفسهم ، ألستُ بربّكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ﴾ [الأعراف ١٧٢/٧] . والعهد الديني : هو أخذ الميثاق على أهل الكتاب بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصدقه الله بمعجزاته ، صدقوه واتبعوه .

والتضليل في العقائد ، وإثارة الشبهات حول القرآن ، إبقاءً على نفوذهم ومراكزهم .

وهم في النهاية الخاسرون في الدنيا بافتضاحهم وتخبطهم وخزيهم ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم وغضب الله عليهم ، فلاسعادة لهم في دنياهم وأخراهم ؛ لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، والنار بالجنة ، والنقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح ، والعقاب بالثواب .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن اشتمال القرآن الكريم على ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل ونحوها من المحقرات مما قد لا يليق ـ في زعم المشركين ـ بكلام الفصحاء ، لا يقدح في فصاحة القرآن ، ولا يخلّ بكونه معجزاً ؛ لأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملاً على حكم بالغة . وهذا وجه مناسبة الآية لما قبلها .

وإذا ورد الحياء في حق الله تعالى ، فليس المراد منه الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته ، بل ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته . وكذلك ليس المراد بالغضب في حقّ الله تعالى شهوة الانتقام وغليان دم القلب ، بل المراد تلك النهاية ، وهو إنزال العقاب . وهذا هو القانون الكلي في هذا الباب[1] .

وكلام الله حقّ مطلق ، لانقص فيه في حدّ ذاته ، ولا في جانب من جوانبه ، وإنما هو حق ؛ لأنه مبين للحق ومقرر له ، وسائق إلى الأخذ به ، بماله من التأثير في النفس .

وضرب الأمثال والأشباه في القرآن الكريم يراد به كشف الغوامض ، وتنبيه

(١) تفسير الرازي : ١٣٢/٢ ومابعدها .

الأذهان إلى الحقائق ، وإبانة المصالح ، وتقرير الحكم البالغة ، وهو من الأمور المستحسنة في العقول والتربية والتعليم . وأما الذين كفروا فيجادلون في الحق بعدماتبيّن ، ويمارون بالبرهان وقد تعيّن ، فيخرجون من الموضوع ، ويعرضون عن الحجة .

وليس الإيمان أو الكفر أمراً وراثياً ، أو قهرياً جبرياً ، وإنما للإرادة والاختيار والعقل دخل فيه ، وسببه هو استخدام طاقات الإنسان من حواس ومشاعر وأفكار ، وليس للمثل ـ كما يزعم الكفار ـ تأثير في تفريق الناس إلى ضلالة وهدى ، فالله تعالى لا يضلّ أحداً من المؤمنين المهتدين بهداية العقل والدين ، وإنما يضلّ الفاسقين الخارجين عن الطاعة وصراط الله السوي ، الذين سبق في علم الله تعالى أنهم غير هداة ، فيكون إسناد الإضلال إلى الله تعالى من قبيل إسناد الفعل إلى السبب ؛ لأنه لما ضرب المثل ، فضلّ به قوم ، واهتدى به قوم ، كان ذلك سبباً في ضلال الناس وهداهم ، فكانت علة ضلالهم : هي الفسوق ، أي الخروج عن هداية الله تعالى في سننه في خلقه ، التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر ، وبكتابه بالنسبة إلى الذين أوتوه .

وصفات الفاسقين الذين أضلوا أنفسهم بأنفسهم كثيرة منها ماذكرته الآية (٢٧) : نقض عهد الله من بعد توكيده : وهو وصية الله تعالى إلى خلقه ، وأمرُه إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنة رسله . ونقضهم ذلك : ترك العمل به .

ومنها : قطع ماأمر الله به أن يوصل : وهو الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده ، فهي عامة في كل ماأمر الله تعالى به أن يوصل ، وهو قول الجمهور . والرحم : جزء من هذا .

ومنها : الإفساد في الأرض : أي عبادة غير الله تعالى ، والجور في الأفعال ،

واتّباع الشهوات ، وهذا غاية الفساد .

والفسق موجب حتماً للخسارة ، كما أن الطاعة توصل إلى الربح ، وليس المراد بالفاسقين هنا ماهو معروف شرعاً وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصي ، فإنه لا يصح هنا .

وفي الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهد جائز ، ألزم المرء نفسه به ، هو أمر واجب شرعاً وعقلاً ، فلايحلّ له نقضه ، سواء أكان بين مسلم أم بين غيره ؛ لذمّ الله تعالى من نقض عهده ، وقد قال : ﴿ ياأيها الذينَ آمنوا أوْفوا بالعُقُودِ ﴾ [المائدة ١/٥] ، وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإمّا تَخَافنّ مِنْ قومٍ خِيانةً ، فانبذْ إليهم على سَواءٍ ، إنّ الله لايحبُّ الخائنينَ ﴾ [الأنفال ٥٨/٨] ، فنهاه عن الغدر ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد .

والمؤمنون المهتدون على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين ، على كثرتهم . فإذا أشعرت الآية بأن المهتدين في الكثرة كالضالين ، مع أن هؤلاء أكثر ، فليس الظاهر مراداً ؛ لأن العبرة بالكيف لا بالكم ، قال تعالى : ﴿ وقليلٌ مِنْ عباديَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ ١٣/٣٤] .

وقدم الله تعالى الإضلال على الهداية في قوله : ﴿ يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ لأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود ، فكان ذلك مناسباً لحال الكفرة ، ليكون أول ما يقرع سمعهم من الجواب أمراً يفتّ في أعضادهم ، ويهزّ جنابهم ، وعبّر عن ذلك بصيغة المضارع المفيدة للاستقبال إيذاناً بالتجدد والاستمرار .

مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسماء

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

الإعراب :

﴿ كيف ﴾ اسم استفهام ، منصوب هنا على الحال بـ ﴿ تكفرون ﴾ . ﴿ جميعاً ﴾ نصب على الحال من الموصول الثاني : ﴿ ما ﴾ .

﴿ سبع سموات ﴾ إما منصوب على البدل من الهاء والنون في ﴿ سواهن ﴾ أو منصوب على أنه مفعول « سوّى » على تقدير : فسوّى منهن سبع سماوات ، فحذف حرف الجر ، فصار ﴿ سواهنّ ﴾ مثل قوله : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف ١٥٥/٧] أي من قومه ، ثم حذف حرف الجر ، فاتصل الفعل : ﴿ سواهن ﴾ بما بعده ، فنصبه ، وأعاد الضمير بلفظ الجمع على السماء . وقال الزمخشري : الوجه العربي أن ضمير ﴿ سواهن ﴾ مبهم . وكلمة ﴿ ثم استوى ﴾ لا للتراخي في الوقت هنا ، وإنما لبيان مابين الخلقين من التفاوت ، وفضل خلق السموات على خلق الأرض . وإنما كان العطف الأول بالفاء ، والبواقي بثم : لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بلاتراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة ، وعن الحياة الثانية .

البلاغة :

﴿ كيف تكفرون ﴾ التفات من كلام الغيبة إلى الحضور للتوبيخ والتقريع .

﴿ عليم ﴾ من صيغ المبالغة التي وصف تعالى نفسه بها ، مثل : عالم وعلام ، ومعناه : الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء . ولا يجوز وصف الله تعالى بعلاّمة ، التي أدخل العرب عليها الهاء للمبالغة . ﴿ فسوّاهن ﴾ أتمّ خلقهن مستويات ، لاتشقق فيهن ولاعوج ، فمعنى تسويتهن : تعديل خلقهن وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور ، أو إتمام خلقهن . ﴿ ثمّ استوى ﴾ الاستواء في اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء . ﴿ بكل شيء عليم ﴾ بأحوالهن إجمالاً وتفصيلاً ، بعد أن خلق

السموات خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت ، وخلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم .

المفردات اللغوية :

﴿ كيف تكفرون ﴾ يا أهل مكة ، مثله في قولك : « أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ، ويدعو إلى الإيمان ؟ » والاستفهام للإنكار والتعجب من كفرهم مع قيام البرهان أو للتوبيخ .

﴿ كنتم أمواتاً ﴾ نطفاً في الأصلاب . ﴿ فأحياكم ﴾ في الأرحام والدنيا ، بنفخ الروح فيكم . ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انتهاء آجالكم . ﴿ ثم يحييكم ﴾ بالبعث ، فيجازيكم بأعمالكم . ودخلت الواو على جملة ﴿ كنتم أمواتاً ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه قيل : كيف تكفرون بالله ، وقصتكم هذه ، وحالكم أنكم كنتم أمواتاً ، نطفاً في أصلاب آبائكم ، فجعلكم أحياء ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم .

﴿ ما في الأرض ﴾ الأرض وما فيها . ﴿ جميعاً ﴾ لتنتفعوا به وتعتبروا . ﴿ ثمّ استوى إلى السماء ﴾ بعد خلق الأرض : قصد وعمد إليها بإرادته تعالى ، قصداً مستوياً خاصاً بها .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

بعد أن ذكر الله صفات الفاسقين وموقف الكفار من القرآن ، وجّه الخطاب إلى الكفار في هاتين الآيتين على طريق الإنكار والتعجب والتوبيخ على موقفهم وصفة كفرهم ، بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان : وهي النعم الدالة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى منتهاه ، من إحيائهم بعد الإماتة ، ثم الإماتة والإحياء ، وخلق جميع الخيرات المكنونة في الأرض ليتمتعوا بجميع ما في ظاهرها وباطنها ، وخلق سبع سموات مزينة بمصابيح ، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، أفبعد هذا كله يكفرون بمحمد وبرسالته ؟!

التفسير والبيان :

عجيب حالكم أيها الكفار ، كيف تنكرون وجود الله وقدرته مع أن الله

سبحانه أوجدكم في هذه الحياة بعد الموت ، وأتمّ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ووهبكم أفضل مقومات الحياة من العقل والحواس والمشاعر ، وأمدكم بالأرزاق التي تكفل بقاء الحياة ، ثم أماتكم عند انقضاء الأجل ، ثم يحييكم بالبعث من القبور ، ثم ترجعون إلى الله وحده للحساب والجزاء ، ليجزي كل امرئ بما قدّم ، ولتُحاسب كل نفس على النعمة التي أنعم الله بها عليكم . فهاتان موتتان وحياتان ، لاتدع لكم عذراً في البقاء على الكفر ، والاستهزاء بأمثال القرآن ، وإنكار نبوّة محمد ﷺ .

قال ابن عباس وابن مسعود : أي كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخلقوا ، فأحياكم ـ أي خلقكم ـ ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . ويؤيده آية أخرى : ﴿ قالوا : ربّنا أمَتّنا اثنتين ، وأحييتَنا اثنتين ﴾ [غافر ١١/٤٠] . قال ابن عطية : وهذا القول : هو المراد بالآية ، وهو الذي لامحيد للكفار عنه لإقرارهم بها ، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها ، قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لاحجة عليها[1] .

ثم بعد ذكر المبدأ والمنتهى ، ذكر الله تعالى برهاناً على البعث ، وعلى توجيه النفوس نحو الإيمان ، فأبان أنه خلق لكم الأرض ومافيها ، لتنتفعوا بكل مافيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ، فيكون الانتفاع إما مادياً بالاستفادة من الموجودات العينية في حال المعيشة ، وإما معنوياً بالنظر والاعتبار فيها لاسلطة لأيديكم عليه ، ويتم في الحالتين غذاء الأجساد والأرواح .

ومكّن الله تعالى للإنسان الحياة في الأرض بإظلاله بالسقف المحفوظ وهو السموات السبع ، التي رفعها بقدرته ، وسوّاها محكمة البناء ، وأوجدها بحكمته ،

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٤٩/١

وأودع فيها بدائع الكواكب والنجوم لإنارة الأرض في الليل ، وعلم سبحانه وحده حقيقتها وروائع مافيها ، والله عالم بكل ماخلق في الأرض وفي السماء ، وذلك كله دليل القدرة الباهرة الدالة على وجود الإله الخالق ، وهو وحده القادرة على إعادة الخلق والحياة . فهل بعد هذا يسوّغ الكفر أو الإلحاد وإنكار وجود الله ؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

وصف الكفر ينطبق على كل من لم يصدّق بنبوّة محمد ﷺ فيما جاء به ، وإن آمنوا بكتاب سماوي سابق ؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله ، ومن زعم أن القرآن كلام البشر ، فقد أشرك بالله ، وصار ناقضاً للعهد . وقالت المعتزلة : آية ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ تدلّ على أن الكفر من قبل العباد[1] .

والأدلة على قدرة الله ووجوده كثيرة منها ماذكرته هذه الآية : وهو خلق الأرض ومافيها ، والسماوات ومأبدع فيها ، وخلق الإنسان من العدم ، ثم إماتته ، ثم إحياؤه ، ثم حسابه على ماقدم في مسيرة الحياة البشرية ، كما قال تعالى : ﴿ كما بَدَأْنا أوّلَ خَلْق نُعِيدُه ﴾ [الأنبياء ٢١/١٠٤] ، فإعادتهم كابتدائهم ، فهو رجوع ، فيكافأ المؤمنون بالجنان ، لإيمانهم وعملهم الصالح ، ويعذب الكفار لكفرهم .

والترتيب في قوله تعالى ﴿ ثم ﴾ التي تقتضي التراخي ، ليس مراداً ، وإنما المقصود من كلمة ﴿ ثم ﴾ ترتيب الإخبار وتعديد النعم ، فهي لاتعارض آية : ﴿ والأرضَ بعدَ ذلكَ دحاها ﴾ [النازعات ٧٩/٣٠] ، لأن كلمة ﴿ بعد ﴾ فيها بعدية في الذكر وترتيب الإخبار ، لا في الزمان ولا لترتيب الأمر في نفسه ، مثاله : قول الرجل لغيره : أليس قد أعطيتك النعم العظيمة ، ثم رفعت قدرك ، ثم دفعت الخصوم عنك ؟ وربما يكون بعض ماأخره متقدماً حدوثه .

---

(١) تفسير الرازي : ١٤٩/٢

وقد يجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك ، فلاتعارض ، كما ذكر ابن جزي . لكن قال ابن كثير : هذه الآية (أي ٢٩ من البقرة) دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء ، كما قال في آية السجدة [فصلت ٩/٤١ ـ ١٠] : ﴿ قُل : أئنكم لتكفرونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يومين .. ﴾ الآية ، فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء ، وهذا مالاأعلم فيه نزاعاً بين العلماء ، إلا ماتقله ابن جرير الطبري عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لآية : ﴿ والأرضَ بعدَ ذلكَ دحاها ﴾[1] [النازعات ٣٠/٧٩] .

ونبهت آية ﴿ هو الذي خلق لكم مافي الأرض ﴾ على القدرة الإلهية المهيئة للأرض من أجل نفع الإنسان وتحقيق مصلحته ورعاية حاجة الخلق ، وعاتب الله تعالى الكفار على جهالتهم بما في الأرض وتصريف المخلوقات[2] ، كما قال تعالى : ﴿ أئنكم لتكفرون بالذي خَلَقَ الأرضَ في يومين ، وتَجْعَلونَ لهُ أنْداداً ، ذلكَ ربُّ العالمينَ ☆ وجَعَلَ فيها رواسيَ من فوقِها ، وبارَكَ فيها ، وقدَّر فيها أقواتَها ، في أربعةِ أيامٍ ، سواءً للسائلين ﴾ [فصلت ٩/٤١ ـ ١٠] ، فالمراد بالآية الاعتبار والاتعاظ بدليل ماقبلها ومابعدها من الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتهن .

ولكن وإن كان الهدف الأصلي من إيراد الآية هو ماذكر ، فقد استدل بها علماء الأصول أيضاً على أن « الأصل في الأشياء الإباحة حتى يأتي دليل الحظر »[3] ، أي أن الأصل إباحة الانتفاع بكل ماخلق الله في الأرض ، حتى يأتي

---

(١) انظر تفسير الطبري : ١٥٢/١ ومابعدها ، تفسير القرطبي : ٢٥٥/١ ومابعدها ، تفسير ابن كثير : ٦٨/١

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ١٤/١ ، تفسير الرازي : ١٥٤/٢

(٣) تفسير القرطبي : ٢٥١/١

دليل المنع ، فليس لمخلوق حقّ في تحريم شيء أباحه الله إلا بإذنه ، كما قال : ﴿ قُل : أرأيتم ما أنزلَ اللهُ لكم مِنْ رِزْقٍ ، فَجَعَلْتُم منهُ حَرَاماً وحَلالاً ، قُل : آللهُ أذِنَ لكم ، أم على الله تفترونَ ﴾ [يونس ٥٩/١٠] .

وعلم الله واسع شامل لكل ما خلق ، وهو خالق كل شيء ، فوجب أن يكون عالماً بكل شيء ، ولا يكون هذا النظام المحكم في السموات والأرض إلا من لدن حكيم عليم بما خلق ، فلاعجب أن يرسل رسولاً مؤيداً بكتاب لهداية الناس ، يضرب فيه الأمثال بما شاء من مخلوقاته ، عظم أو صغر .

وآية ﴿ ثم استوى ﴾ وآية ﴿ الرحمنُ على العَرْشِ استَوى ﴾ [طه ٥/٢٠] من مشكلات التفسير ، وللعلماء ثلاثة آراء فيها[1] :

الرأي الأول لكثير من الأئمة : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ، روي عن مالك رحمه الله أن رجلاً سأله عن قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء .

الرأي الثاني للمشبهة : نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة وهو أن الاستواء : الارتفاع والعلو على الشيء ، أو الانتصاب .

وهذا باطل ؛ لأن ذلك من صفات الأجسام ، والله تعالى منزه عن ذلك .

الرأي الثالث لبعض العلماء : نقرؤها ونتأولها ونحيل حملها على ظاهرها .

فقيل : المعنى استوى ، كما قال الشاعر :

قد استوى بِشْر على العراق من غير سيف ودم مُهْراق

---

(١) تفسير الطبري : ١٤٩/١ وما بعدها ، تفسير القرطبي : ٢٥٤/١ وما بعدها .

وقيل : استوى بمعنى ارتفع ، والمراد ـ والله أعلم ـ ارتفاع أمره .

وقيل : استوى بمعنى عمد أو قصد إليها ، أي بخلقه واختراعه ، واختاره الطبري : على دون تكييف ولا تحديد .

ودل القرآن في هذه الآية وغيرها على وجود سبع سموات وسبع أرضين ، كما قال تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَق سَبْعَ سموات ، ومن الأَرْضِ مِثْلَهن ﴾ [الطلاق ١٢/٦٥] يعني أن السموات بعضها فوق بعض وأن الأرضين بعضها تحت بعض . ولكن لم يرد خبر في السنة يوضح حقيقة السموات والأرضين ، فلا فائدة في بحث طبيعة السماء ، وما علينا إلا أن نؤمن بظاهر القرآن في هذا التعداد ، ونستدل به على عظمة الخالق الذي رفع السماء ، وبسط الأرض . وقد أورد الرازي في تفسيره نظريات الفلكيين أو أهل الهيئة التي يفهم منها أن السبع السموات هي الكواكب السيارة[1] ، غير أن العلم الحديث اكتشف وجود كواكب سيارة أخرى مثل نبتون وبلوتو وأورانوس ؛ غير المعروفة قديماً وهي القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل .

استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟

(١) تفسير الرازي : ١٥٦/٢

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

الإعراب :

﴿ وإذ ﴾ ظرف زمان ماض ، منصوب بإضمار فعل مقدر تقديره : اذكر ، ويجوز أن ينتصب بقالوا . وهو مبني لتضمنه معنى الحرف ؛ لأن كل ظرف لابد فيه من تقدير حرف ، وهو « في » أو لأنه يشبه الحرف في أنه لا يفيد مع كلمة واحدة ، وهو مبني على السكون ؛ لأنه الأصل في البناء . وإذ للماضي ، وإذا للمستقبل ، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . ﴿ جاعل ﴾ من جعل الذي له مفعولان ، دخل على المبتدأ والخبر ، وهما قوله : ﴿ في الأرض خليفة ﴾ فكانا مفعوليه . ﴿ أتجعل ﴾ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية . ﴿ ونحن ﴾ للحال ، ﴿ بحمدك ﴾ الباء هنا تسمى باء الحال ، والمعنى : نسبحك حامدين لك ، ومتلبسين بحمدك ؛ لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف ، لم نتمكن من عبادتك .

﴿ عرضهم ﴾ ولم يقل : عرضها ؛ لأنه أراد مُسَمَّيات الأسماء ، وفيهم من يعقل ، وفيهم من لا يعقل ، فغلّب جانب العقلاء .

﴿ سبحانك ﴾ الصحيح أن سبحاناً وكفراناً : اسمان أقيما مقام المصدر ، وليسا بمصدرين . ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أنت : إما مبتدأ ، والعليم خبره ، والحكيم صفة له ، أو خبر بعد خبر ، والجملة خبر إن ، وإما ضمير فصل لا موضع لها من الإعراب ، والعليم خبر إن ، والحكيم صفة له ، أو خبر بعد خبر .

البلاغة :

﴿ ربُّك ﴾ إضافته إلى الرسول ﷺ للتشريف والتكريم لمقامه ﴿ للملائكة ﴾ تقديم الجار والمجرور على المقول للاهتمام بما قدّم .

﴿ أنبئوني ﴾ أريد به التعجيز والتبكيت .

﴿ فلما أنبأهم ﴾ فيه مجاز بالحذف ، والتقدير : فأنبأهم بها ، فلما أنبأهم .

﴿ ثم عرضهم ﴾ من باب التغليب للعقلاء على غير العقلاء .

﴿ وأعلم ماتبدون ﴾ تكرار الفعل مع ماقبله : ﴿ إني أعلم ﴾ للتنبيه على إحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء ، وهذا يسمى بالإطناب . ﴿ تبدون ﴾ و ﴿ تكتمون ﴾ يسمى في علم البديع بالطباق .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذ ﴾ : اذكر يا محمد . ﴿ ربك ﴾ الرب : المالك والسيد والمصلح والجابر . ﴿ للملائكة ﴾ : أجسام نورانية لا يأكلون ولا يشربون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . وهو جمع مَلَك ، وأصله : مَلْأك وزنه مَفْعل . ﴿ خليفة ﴾ : الخليفة : من يخلف غيره ويقوم مقامه في تنفيذ الأحكام ، والمراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام . ﴿ يفسد فيها ﴾ بالمعاصي ﴿ ويسفك الدماء ﴾ يريقها بالقتل عدواناً ، كما فعل بنو الجان ، وكانوا فيها ، فلما أفسدوا أرسل الله عليهم الملائكة ، فطردوهم إلى الجبال والجزر . ﴿ نسبح بحمدك ﴾ ننزهك عن كل نقص ، متلبسين بحمدك ، أي نقول : سبحان الله وبحمده ﴿ ونقدّس لك ﴾ نمجدك ونعظمك وننزهك عما لا يليق بعظمتك ، فاللام زائدة ، والجملة حال ، أي فنحن أحق بالاستخلاف ﴿ أعلم مالاتعلمون ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم . ﴿ وعلم آدم الأسماء ﴾ واحدها اسم ، وهو في اللغة : مابه يعلم الشيء ، والمراد به : أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه ؛ لكونه معلوماً مدلولاً عليه ، بذكر الأسماء ، لأن الاسم لابد له من مسمى .

﴿ ثم عرضهم ﴾ أي عرض المسميات ، وفيه تغليب العقلاء . ﴿ أنبئوني ﴾ أخبروني ، وقد يستعمل الإنباء في الإخبار بما فيه فائدة عظيمة ، وهو المراد هنا .

﴿ سبحانك ﴾ تقديساً وتنزيهاً لك عن الاعتراض عليك . ﴿ العليم ﴾ الذي لاتخفى عليه خافية ، ﴿ الحكيم ﴾ المحكِم لمبتدعاته ، فلا يفعل إلا مافيه الحكمة البالغة .

المناسبة :

هذه القصة أو المحاورة بين الله تعالى وملائكته نوع من التمثيل بإبراز المعاني المعقولة بالصور المحسوسة ، تقريباً للأفهام ، وفيها بيان مدى تكريم الله للإنسان باختيار آدم خليفة عن الله في الأرض ، وتعليمه اللغات التي لا تعلمها الملائكة ، مما يوجب على الناس الإيمان بهذا الخالق الكريم ، ولا يليق بأحد الكفر والعناد ، وهو استمرار في توبيخ الكفار ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم .

التفسير والبيان :

اذكر يا محمد لقومك قصة خلق أبيهم آدم ، حين قال الله للملائكة : إني متخذ في الأرض خليفة ، يقوم بعمارتها وسكناها ، وينفذ أحكامي فيها بين الناس ، وتتعاقب الأجيال من بعده في مهامه كلها حتى يعمر الكون ، فتساءل الملائكة متعجبين ومستعلمين : كيف تستخلف هذا الخليفة ؟ وفي ذريته من يفسد في الأرض بالمعاصي ويريق الدماء بالبغي والعدوان ؛ لأن أفعالهم عن إرادة واختيار ، وقد خلقوا من طين ، والمادة جزء منهم ، ومن كان كذلك فهو إلى الخطأ أقرب .

فكيف تجعل ـ على سبيل التعجب والتعلم ، لا الاعتراض والحسد ـ مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وأنت الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير ؟

فإن قلت : من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه ، وإنما هو غيب ؟

قلت : عرفوه بإخبار من الله ، أو من جهة اللوح المحفوظ ، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون ، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم ، أو قاسوا أحد الثقلين وهم الإنس على الآخر وهم الجن ، حيث أسكنوا الأرض ، فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة[1] . أو أنهم عرفوا طبيعة المادة وفيها الخير والشر ، وهو ما رجحناه أولاً ، ويقال : كان هناك نوع من الخلق في الأرض قبل آدم ، أفسد وسفك الدماء ، وسيحل هذا الخليفة محله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ [يونس ١٤/١٠] فقاس الملائكة هذا الخليفة عليه .

---

(١) الكشاف : ٢٠٩/١ ، تفسير الطبري : ١٥٧/١

ونحن الملائكة أولى بالاستخلاف ؛ لأن أعمالنا مقصورة على تسبيحك وتقديسك وطاعتك ، فأجابهم الله تعالى : إني أعلم من المصلحة في استخلافه ماهو خفي عنكم ، وأعلم كيف تصلح الأرض ، وكيف تعمر ، ومن هو أصلح لعمارتها ، ولي حكمة في خلق الخليقة لاتعلمونها . ولعل التنافس على المصالح بين الناس وتنازع البقاء ، وحب الذات من أقوى الدواعي على تقدم الكون وتحضر العالم ، فبالخير والشر تصلح الدنيا وتعمر ، وبها تظهر حكمة إرسال الرسل ، واختبار البشر ، وجهاد النفس . وفي هذا إرشاد الملائكة أن يعلموا أن أفعاله تعالى في غاية الحكمة والكمال .

ثم عقد الرب سبحانه امتحاناً للملائكة ، لإظهار عجزهم ، وإبطال زعمهم أنهم أحق بالخلافة من خليفته ، بعد أن علَّم آدم أسماء الأشياء والأجناس المادية من نبات وجماد وإنسان وحيوان ، مما تعمر به الدنيا ، ثم عرض مجموعة المسميات على الملائكة ، أو عرض نماذج منها ، أي عرض الأشخاص ، لقوله تعالى : ﴿ عرضهم ﴾ لأن العرض لايصح في الأسماء ، وقال لهم : أخبروني بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين في ادعائكم أنكم أحق بالخلافة من غيركم ، فعجزوا ، وقالوا : يارب سبحانك ، لاعلم لنا إلا ماعلمتنا ، إنك أنت العليم بكل شيء ، الحكيم في كل صنع .

وفي هذا إشارة لتفضيل آدم على الملائكة واصطفائه ، بتعليمه مالم تعلمه الملائكة ، فلا يكون لهم فخر عليه .

ثم قال المولى جل جلاله : أخبرهم ياآدم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بقصورهم عن معرفتها ، فلما أخبرهم بكل أسماء تلك الأشياء ، أدركوا السر في خلافة آدم وذريته ، وأنهم لا يصلحون للاشتغال بالماديات ، والدنيا لاتقوم إلا بها ، إذ هم خلقوا من النور ، وآدم خلق من الطين ، والمادة جزء منه .

وحينئذ قال تعالى للملائكة : ألم أقل لكم : إني أعلم ماغاب في السموات والأرض عنكم ، وما حضر أيضاً ، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثاً ، وأعلم ماظهر وما بطن ، وما تظهرون وما تكتمون من نحو قولكم فيما روي عن ابن عباس : « لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ، فنحن أحق بالخلافة في الأرض »[١] . هذا وجه من التأويل ، وقال الطبري : وأولى الأقوال بتأويل الآية ماقاله ابن عباس : وهو أن معنى قوله : ﴿ وأعلم ماتبدون ﴾ . وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ، ماتظهرون بألسنتكم ، ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ وما كنتم تخفونه في أنفسكم ، فلا يخفى علي شيء ، سواء عندي سرائركم وعلانيتكم . والذي أظهروه بألسنتهم : ماأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه ، وهو قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ ﴾ . والذي كانوا يكتمونه : ماكان منطوياً عليه إبليس من مخالفة أمر الله ، والتكبر عن طاعته[٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أولاً ـ دلت هذه الآيات على تكريم الإنسان الذي جعله الله خليفة في هذه الأرض في تنفيذ أوامره بين الناس ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ ياداود إنا جعلناكَ خليفةً في الأرض ﴾ (ص ٢٦/٣٨) والحكمة من جعل آدم خليفة هي الرحمة بالناس ، إذ لاطاقة للعباد على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ، فكان من رحمته تعالى إرسال الرسل من البشر . ومع هذا اختلف المفسرون في تأويل كلمة ﴿ خليفة ﴾ وتحديد المستخلف عنه[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٧١/١ ، تفسير الطبري : ١٧٧/١

(٢) تفسير الطبري : ١٧٦/١

(٣) تفسير الطبري : ١٥٦/١ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ٦٩/١ ، الكشاف : ٢٠٧/١ ، القرطبي : ٢٦٣/١ ، تفسير الرازي : ١٦٥/٢ وما بعدها .

فقال ابن عباس : أول من سكن الأرض الجن ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا فيها الدماء ، وقتل بعضهم بعضاً ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة ، فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم ، فأسكنه إياها ، فلذلك قال : إني جاعل في الأرض خليفة . فعلى هذا القول : إني جاعل في الأرض خليفة عن الجن ، يخلفونهم فيها ، فيسكنونها ويعمرونها ، وليس آدم أول أصناف العقلاء في الأرض .

وقال الحسن البصري : في تأويل قوله : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أي خلفاً يخلف بعضهم بعضاً ، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم ، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله ، جيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [الأنعام ١٦٥/٦] وقال : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ [النمل ٦٢/٢١] وقال : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف ٦٠/٤٣] وقال : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ [الأعراف ١٦٩/٧] .

ومن هو الخليفة ؟ قيل : أريد بالخليفة آدم ، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه ، كما يستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك : مضر وهاشم .

وقال زيد بن علي : ليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط ، كما يقوله طائفة من المفسرين . قال ابن كثير : والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً ، إذ لو كان ذلك ، لما حسن قول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فإنهم أرادوا : أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية المخلوقة من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة : أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ، ويردعهم عن المحارم والمآثم ، أو أنهم قاسوهم على من سبق .

والخلاصة : هناك قولان في المراد بالخليفة :

أحدهما ـ أنه آدم عليه السلام ، وقوله : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ المراد ذريته لا هو .

والثاني ـ أنه ولد آدم .

ثم إن هذه الآية أصل في نصب إمام حاكم ، وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف بين العلماء في وجوب ذلك ، إلا ما روي عن أبي بكر الأصم من المعتزلة أنه قال : الإمامة غير واجبة في الدين ، بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم ، وتناصفوا فيما بينهم ، وبذلوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها ، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه ، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولى ذلك .

وأدلة الجمهور : قول الله تعالى : ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا داودُ إنا جعلناك خليفةً في الأرضِ ﴾ [ص ٢٦/٣٨] وقوله عز وجل : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأرض ﴾ [النور ٥٥/٢٤] أي يجعل منهم خلفاء .

وأجمعت الصحابة على تقديم أبي بكر الصديق ، بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في تعيين الخليفة[١] .

وطرق تعيين الإمام ثلاث[٢] :

١ ـ النص على الخليفة : كما نص النبي ﷺ على أبي بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٦٤/١

(٢) المرجع السابق : ٢٦٨/١

٢ ـ الانتخاب بواسطة جماعة : كما فعل عمر ، ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في تعيين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

٣ ـ إجماع أهل الحل والعقد .

ثانياً ـ الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب[١] . وفي إخبار الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه في الأرض تعليم لعباده المشاورة في أمورهم . وقول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ليس على وجه الاعتراض أو الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف الحكمة في ذلك .

ثالثاً ـ استدل الأشعري والجبائي والكعبي بآية ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ على أن اللغات كلها توقيفية ، بمعنى أن الله تعالى خلق علماً ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعاني ، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني[٢] .

رابعاً ـ آية تعليم آدم الأجناس التي خلقها الله ، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، إما في آن واحد أو آنات متعددة ، هذه الآية دالة على فضل العلم ، فإنه سبحانه ماأظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام ، إلا بأن أظهر علمه ، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم ، لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء ، لا بالعلم[٣] .

وكانت الحكمة في التعليم والعرض على الملائكة تشريف آدم واصطفاءه ، كيلا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم ، وإظهار الأسرار والعلوم

---

(١) تفسير الرازي : ١٦٦/٢

(٢) تفسير الرازي : ١٧٥/١

(٣) المصدر السابق : ١٧٨/١

المكنونة في غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده[١] .

خامساً ـ أرشدت آية ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إلى أن الدعاوى لا يؤبه بها إلا بإثباتها بالدليل ، وأن المدّعي لشيء يطالب بالحجة والبرهان تأييداً لما ادّعى .

سادساً ـ في قوله : « هؤلاء » إشارة إلى أنه سمى الأشياء التي وقع عليها الحس ، كالطيور والبهائم وأنواع الحيوان التي أمامه .

سابعاً ـ دل قول الملائكة : ﴿ قالوا : سبحانك ﴾ الآية ، على قصور علم المخلوقات أمام علم الخالق ، وأن فعل الخالق لا يخلو من الحكمة والفائدة ، وأن علم الملائكة محدود لا يتناول جميع الأشياء . والواجب على من سئل عن علم لم يعرفه أن يقول : الله أعلم لا أدري ، اقتداء بالملائكة والأنبياء وفضلاء العلماء .

ثامناً ـ في آيات إخبار آدم بأسماء المسميات دلالة واضحة على شرف الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات ، وعلى فضل العلم على العبادة ، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ، ولم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة ، وعلى أن شرط الخلافة العلم ، وعلى أفضلية آدم على الملائكة .

تاسعاً ـ إن استخلاف الملائكة الذين لا يحتاجون إلى شيء من الأرض لا يحقق حكمة استخلاف البشر في التعرف على أسرار الكون ، وعمارة الأرض ، واستخراج مافيها من خيرات وزروع ومعادن ، ولا يؤدي إلى تقدم العلوم والفنون التي شهدنا تفوقها في القرن العشرين .

---

(١) تفسير المراغي : ٨٣/١

التكريم الإلهي السامي لآدم بسجود الملائكة له

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

الإعراب :

« آدم » ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة ﴿ إلا إبليس ﴾ استثناء متصل عند الجمهور ؛ لأنه كان جنياً واحداً بين ألوف الملائكة مغموراً بهم ، فغلبوا عليه في قوله : ﴿ فسجدوا ﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد . ويجوز أن يجعل استثناء منقطعاً لأنه لم يكن من الملائكة .

البلاغة :

﴿ وإذ قلنا ﴾ للتعظيم بصيغة الجمع ، وهي معطوفة على قوله : ﴿ وإذ قال ربك ﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لإظهار المهابة والجلالة . ﴿ فسجدوا ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي فسجدوا له . ومثله ﴿ أبى ﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود .

المفردات اللغوية :

﴿ اسجدوا ﴾ السجود في اللغة : الخضوع والانحناء لمن يُسجد له ، وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض . والسجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكريم والتحية ، كما سجدت الملائكة لآدم ، وأبو يوسف وإخوته له ، فكان تحية للملوك قديماً ، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه . ﴿ إبليس ﴾ الشيطان أبو الجن ، كان بين الملائكة . قال تعالى : ﴿ كان من الجنّ ، ففَسَقَ عن أمرِ ربّه ﴾ [الكهف ٥٠/١٨] . ﴿ أبى ﴾ امتنع من السجود . ﴿ واستكبر ﴾ تكبر عنه ، وقال : ﴿ أنا خير منه ﴾ [الأعراف ١٢/٧] . ﴿ وكان من الكافرين ﴾ في علم الله ، من جنس كفرة الجن وشياطينهم ، فلذلك أبى واستكبر .

المناسبة :

هذا نوع آخر من تكريم الله لأبينا آدم أبي البشر ، حيث أمر الملائكة

بالسجود له ، كما أنه خصه بالخلافة في الأرض ، وعلمه أسماء الأشياء والأجناس واللغات ، مما يدل على تكريم النوع الإنساني بتكريم الأصل أو الأب .

التفسير والبيان :

واذكر أيضاً يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة الأطهار : اسجدوا لآدم سجود خضوع وتحية وتعظيم ، لا سجود عبادة وتأليه ، كما يفعل الكفار مع أصنامهم ، فسجد الملائكة جميعاً له غير إبليس ، فإنه امتنع من السجود واستكبر عنه ، قائلاً : أأسجد له ، وأنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، فصار بإبائه واستكباره وتعاليه وغروره من الكافرين ، فاستحق اللعنة إلى يوم الدين ، لعصيانه أمر ربه ، ورفضه السجود لآدم .

فقه الحياة أو الأحكام :

تتجلى العبرة من هذه القصة بأن آدم وذريته لا يليق بهم عصيان أوامر الله ، وإنما يجب عليهم عبادته وحده ، دون تلكؤ ولا تقصير ؛ لأن الله سبحانه كرم ابن آدم في قوله : ﴿ ولقد كَرَّمنا بني آدم ﴾ [الإسراء ٧٠/١٧] وجعل آدم خليفة في الأرض ، وعلمه مالم يكن يعلم : ﴿ وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ﴾ وقال الطبري : إن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم ، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم[1] .

والملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بالناس لا نعرف حقيقته ، بل نؤمن بما ورد فيه ، دون بحث عن الكيفية والحال والمآل .

والسجود نوعان : سجود عبادة وتأليه وهو لله وحده ، وله مظهران : إما وضع الجبهة على الأرض وهو المعتاد في الصلاة ، وإما الانقياد والخضوع لمقتضى

---

(١) تفسير الطبري : ١٨٠/١ وما بعدها .

إرادته ، كما قال : ﴿ والنجمُ والشجرُ يَسْجدَانِ ﴾ [الرحمن ٦/٥٥] وقال : ﴿ ولله يسجدُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً وكرهاً ﴾ [الرعد ١٥/١٣] . وهذا بمظهريه لا يكون لغير الله إطلاقاً .

والنوع الثاني : سجود تحية وتكريم من غير تأليه ، كسجود الملائكة لآدم ، وسجود يعقوب وأولاده ليوسف . وهذا في رأي أكثر العلماء كان مباحاً إلى عصر رسول الله ﷺ ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ، فقال لهم : « لا ينبغي أن يُسجَد لأحد إلا لله رب العالمين » ونهى النبي ﷺ عن السجود للبشر ، وأمر بالمصافحة ، في حديث رواه ابن ماجه في سننه والبُسْتي في صحيحه عن أبي واقد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه[1] .

والخلاصة : اتفقت الأمة على أن السجود لآدم لم يكن سجود عبادة ولا تعظيم ، وإنما كان على أحد وجهين : إما الانحناء والتحية وإما اتخاذه قبلة كالاتجاه للكعبة وبيت المقدس وهو الأقوى في رأي ابن العربي ، لقوله تعالى : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾[2] .

وأما حقيقة إبليس : فللعلماء فيها رأيان :

الأول : أنه من الجن ، والجن سبط من الملائكة ، خلقوا من نار ، وإبليس منهم . ودليله واضح من قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدُوا لآدم ، فسَجَدُوا إلا إبليسَ كانَ من الجنِّ ، ففَسَق عن أمرِ ربّه ﴾ [الكهف ٥٠/١٨] .

والثاني ـ أنه كان من الملائكة ؛ لأن خطاب السجود كان للملائكة ، ولأن

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٣/١

(٢) أحكام القرآن : ١٦/١

الظاهر من هذه الآية وأمثالها أنه منهم ، قال ابن عباس : كان إبليس من الملائكة ، فلما عصى الله ، غضب عليه ، قلعنه ، فصار شيطاناً[١] . قال البغوي : وهو الأصح ؛ لأن خطاب السجود كان مع الملائكة . وقوله : ﴿ كان من الجن ﴾ أي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة . وقال سعيد بن جبير : من الذين يعملون في الجنة . وقال قوم : من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلي أهل الجنة[٢] .

والراجح لدي هو القول الأول لصريح آية ﴿ كان من الجن ﴾ ولأن إبليس قد عصى أمر ربه ، والملائكة لا يعصون الله ماأمرهم .

ويستدل من قصة الإباء عن السجود أن الامتناع عن تنفيذ أوامر الله والاستكبار والغرور مسبب للكفر ، لأنه لما كره إبليس السجود في حقه ، واستعظمه في حق آدم ، فكان ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته ، فصار من الكافرين .

واختلف ، هل كان قبل إبليس كافر أو لا ؟ فقيل : لا ، وإن إبليس أول من كفر ، وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن الذين كانوا في الأرض . واختلف أيضاً : هل كفر إبليس جهلاً أو عناداً ؟ على قولين بين أهل السنة ، ولا خلاف أنه كان عالماً بالله تعالى قبل كفره . فمن قال : إنه كفر جهلاً قال : إنه سلب العلم عند كفره . ومن قال : كفر عناداً قال : كفر ومعه علمه[٣] .

واستنبط علماء المالكية من هذه القصة ومن علم الله بكفر إبليس سابقاً : أن من أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات ، ليس

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٤/١

(٢) معالم التنزيل بهامش تفسير البغوي : ٤١/١

(٣) تفسير القرطبي : ٢٩٨/١

ذلك دالاً على ولايته ؛ لأن العلم بأن الواحد منا وليّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمناً ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمناً ، لم يمكنّا أن نقطع أنه ولي الله تعالى ؛ لأن الولي لله تعالى : مَنْ علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان[1] .

آدم وحواء في الجنة وموقف الشيطان منهما

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

الإعراب :

﴿ أنت ﴾ تأكيد للضمير المستتر ليعطف عليه . ﴿ رغداً ﴾ منصوب لأنه صفة مصدر محذوف ، تقديره أكلاً رغداً ، أو منصوب على الحال . ﴿ فتكونا ﴾ حذفت النون إما للنصب بتقدير « أن » لأنه جواب النهي ، أو يكون حذفها للجزم بالعطف على ﴿ ولا تقربا ﴾ .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ آدم : فاعل ، وكلمات : مفعول به .

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿ اهبطوا ﴾

---

(١) المصدر السابق : ٢٩٧/١

على تقدير حذف الواو ، أي قلنا : اهبطوا وبعضكم لبعض عدو . ويجوز أن تكون جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب .

﴿ فإما .. ﴾ أصلها « إن » الشرطية زيدت عليها « ما » للتأكيد ، وتسمى المُسلِّطة ؛ لأنها سلطت نون التوكيد على الفعل بعدها . ﴿ فمن اتبع هداي ﴾ من : شرطية مبنية لأنها تضمنت معنى الشرط ، في محل رفع مبتدأ ، و ﴿ اتبع ﴾ خبره ، وهو في موضع جزم « بمن » الشرطية . و ﴿ هداي ﴾ مفعول به . وكرر قوله : ﴿ قلنا اهبطوا ﴾ للتأكيد ، ولما نيط به من زيادة قوله : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ . والأمر بالهبوط من الجنة إلى الأرض موجه لآدم وحواء ، والمراد هما وذريتهما ؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس جعلا كأنهما الإنس كلهم .

﴿ هم فيها خالدون ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من « أصحاب أو النار » لعود الضميرين إليهما . وذهب قوم إلى أنه لايجوز أن يكون حالاً من النار ؛ لأن الحال لاتقع حالاً من المضاف إليه ، وأجازه الآخرون ؛ لأن لام المِلْك مقدرة مع المضاف إليه .

البلاغة :

﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ أي الأكل من ثمارها ، فيه تعليق النهي بالقرب منها لقصد المبالغة في النهي عن الأكل .

﴿ مما كانا فيه ﴾ إبهام يفيد كثرة الخيرات التي لاتوصف في الجنة .

﴿ التواب الرحيم ﴾ من صيغ المبالغة ، أي قابل التوبة بكثرة ، واسع الرحمة .

المفردات اللغوية :

﴿ رغداً ﴾ أكلاً واسعاً طيباً هنيئاً لاعناء فيه ولا حجر عليه . ﴿ هذه الشجرة ﴾ أي بالأكل منها ، وهي الحنطة أو الكروم أو غيرهما ﴿ فتكونا ﴾ فتصيرا ﴿ من الظالمين ﴾ العاصين .

﴿ فأزلهما الشيطان ﴾ أوقعهما في المخالفة من الزلة وهي السقوط ﴿ اهبطوا ﴾ انزلوا ﴿ مستقر ﴾ موضع استقرار . ﴿ ومتاع ﴾ مايتمتع به من أنواعُ الطعام والشراب واللباس ونحوها .

﴿ فتلقى ﴾ أخذ وقبل وألهم ﴿ فتاب ﴾ التوبة : الرجوع ، فإذا عُدّيت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية ، وإذا عديت بعلى ، كان معناها قبول التوبة .

﴿ فمن اتبع هداي ﴾ آمن بي وعمل بطاعتي ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ في الآخرة بأن يدخلوا الجنة .

﴿ بآياتنا ﴾ كتبنا . ﴿ أصحاب النار ﴾ أهلها . ﴿ خالدون ﴾ ملازمون لها ، ماكثون فيها أبداً ، لا يفنون ولا يخرجون منها .

المناسبة :

تستمر الآيات في بيان أنواع التكريم الإلهي للإنسان ، وهذا التكريم هنا هو المقام في الجنة في بدء الخليقة ، ولكن اقتضت الحكمة الإلهية إقامته في الأرض ، وتكليفه القيام برسالة مهمة هي تعمير الكون ، وإظهار مزية الإنسان في مجاهدة الشيطان وأهوائه .

وقد سيقت هذه القصة تسلية للنبي ﷺ عما يلاقي من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر ، وأنهم إذا كلفوا بشيء بالرغم من تكريمهم غاية الإكرام قد لا يمتثلون .

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد لقومك أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها حيث شاءا ، والأكل منها أكلاً هنيئاً لا عناء فيه ، أو واسعاً لا حد له ، ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة ، فالأكل منها ظلم لأنفسهما ، ولكن الشيطان عدوهما أزلهما عنها ، فأخرجهما من ذلك النعيم ، بعد أن أغواهما بالأكل من الشجرة . أو أبعدهما وحوّلهما من الجنة ، قائلاً : ﴿ مانَهاكما ربُّكما عن هذه الشجرةِ إلا أن تكونا مَلَكين أو تكُونا من الخالِدين ، وقاسَمهما إني لكُمَا لمن النَّاصحين ﴾ [الأعراف ٢٠/٧ ـ ٢١] فتغلبت عليهما وساوس الشيطان ، وخرجا من الجنة إلى الأرض ، وشقاء الدنيا ، وقد نشأت العداوة بين البشر والشيطان ، فإبليس عدو لآدم وزوجه حواء ولذريتهما ، والبشر أعداء له ، فاحذروا إغواءه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [فاطر ٦/٣٥] فألهم الله آدم كلمات ، فعمل بها هو وزوجته وتابا توبة

خالصة ، والكلمات هي قوله تعالى : ﴿ ربنا ظَلَمْنَا أنفسَنا وإن لم تَغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنا ، لنكونَنَّ من الخاسِرين ﴾ [الأعراف ٢٣/٧] وتقبل الله التوبة ؛ لأنه كثير القبول للتوبة ، واسع الرحمة بالعباد ، وأصبح الناس في الأرض صنفين : صنف المؤمنين بالله العاملين بطاعته ، فهؤلاء آمنون في جنان الله في الآخرة ، وصنف الكافرين المكذبين بما أنزل الله في كتبه ، والجاحدين لرسالات الأنبياء ، فهؤلاء مخلدون في نار جهنم .

فقه الحياة أو الأحكام :

تثير هذه الآيات مشكلات عديدة هي ما يأتي :

أولاً ـ زوجة آدم في قوله تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ : أثار المفسرون كيفية خلق حواء ، فقالوا : إنها خلقت من ضِلْع آدم ، أخذاً بظاهر قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خَلَقكم من نفسٍ واحدةٍ ، وخَلَق منها زَوْجها ﴾ [النساء ١/٤] وقوله : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجَعَل منها زَوْجها ، ليَسْكُنَ إليها ﴾ [الأعراف ١٨٩/٧] ، وعملاً بحديث أبي هريرة في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضِلَع أعوجَ » وفي رواية لمسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، لن تستقيم لك على طريقة واحدة ، فإن استمتعت بها ، استمتعت بها ، وبها عِوَج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرُها طلاقها » قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء ؛ لأنها خلقت من أعوج ، وهو الضلع[1] .

وأجيب عن الآيتين[2] : بأن كثيراً من المفسرين كالرازي قالوا : إن المراد بقوله « منها » أي من جنسها ، ليوافق قوله في سورة [الروم ٢١/٣٠] : ﴿ ومن

(١) تفسير القرطبي : ٣٠١/١

(٢) تفسير المراغي : ٩٣/١

آياتِه أن خَلَق لكم من أنفسِكم أزواجاً لتَسْكُنُوا إليها ، وجَعَل بَيْنَكم مودةً ورحمةً ﴾ والمراد أنه خلق أزواجاً من جنسكم ، لا أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها .

وأما الحديث فجاء على طريق تمثيل حال المرأة واعوجاج أخلاقها ، باعوجاج الضلوع ، فهو على حدّ قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَل ﴾ [الأنبياء ٣٧/٢١] .

هذا وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة . ونقل عن السدي : إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة .

ثانياً ـ الجنة : وهي في اللغة البستان . اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم ، هي في السماء أم في الأرض[1] ؟ قال الأكثرون : إنها التي في السماء ، وهي دار الخلد والثواب التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها في السورة .

وقالت المعتزلة والقدرية : إنها جنة في الأرض غير جنة الخلد ، خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام ، في أرض عَدَن ، أو بفلسطين ، أو بين فارس وكِرْمان . وهو رأي أبي حنيفة وأبي منصور الماتريدي ومذهب السلف . ودليلهم أنها لو كانت جنة الخلد ، لما وصل إليها إبليس ، فإن الله يقول : ﴿ لالغوٌ فيها ولاتأثيمٌ ﴾ [الطور ٢٣/٥٢] ، وقال : ﴿ لا يَسْمَعون فيها لغواً ولا كِذّاباً ﴾ [النبأ ٣٥/٧٨] ، وقال : ﴿ لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً ولا تأثيماً ☆ إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة ٢٥/٥٦ ـ ٢٦] ، وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله تعالى : ﴿ وما هُمْ منها بِمُخْرَجينَ ﴾ [الحجر ٤٨/١٥] ، وأيضاً فإن جنة الخلد هي دار القُدْس ، قدست عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها ، قد لغا فيها إبليس وكَذَب ، وأخرج منها آدم وحواء

(١) تفسير القرطبي : ٣٠٢/١ ، تفسير ابن كثير : ٧٨/١ ، تفسير الألوسي : ٢٣٢/١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧٥/١ ومابعدها .

بمعصيتها . وكيف يطلب آدم ، مع مكانه من الله وكمال عقله ، شجرة الْخُلْد ، وهو في دار الخلد والمُلْك الذي لا يبلى . ورجح الألوسي هذا الرأي .

ورد القرطبي على هذه الأدلة : بأن الجنة المعرفة بالألف واللام لا يفهم غيرها في تعارف الناس ، ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم . وأما أوصاف الجنة المذكورة في الآيات التي احتجوا بها ، فهي بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة . ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها ، وقد يخرج منها من قضي عليه بالفناء . والملائكة يدخلونها ويخرجون منها ، وقد دخلها النَّبي ﷺ ليلة الإسراء ثم خرج منها ، ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي .

وأجمع أهل السنة على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام . وكيف يجوز على آدم ، وهو في كمال عقله ، أن يطلب شجرة الخلد ، وهو في دار الفناء ؟! الأمر جائز تطلُّعاً إلى الأفضل والأكمل ، كما نتطلع الآن في الدنيا إلى الخلود في الجنة .

ثالثاً ـ الشجرة : اختلف العلماء في تعيين الشجرة التي نُهي عنها آدم فأكل منها[1] . فقال جماعة : هي الْكَرْم ، ولذا حرمت علينا الخمر ، وقال آخرون : هي السُّنْبلة ، وقيل : هي شجرة التين . والصواب كما قال القرطبي : أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة ، فخالف هو إليها ، وعصى في الأكل منها .

واختلفوا أيضاً كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب ، وهو قوله تعالى : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ [البقرة ٣٥/٢] ، فقال قوم : أكلا من غير التي أشير إليها ، فلم يتأوّلا النهي واقعاً على جميع جنسها ، كأن إبليس غره بالأخذ بالظاهر ، أي أنهما ظنّا أن المراد عين شجرة مخصوصة ، وكان المراد الجنس . وهو

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٠٥/١ ومابعدها ، أحكام القرآن لابن العربي : ١٧/١ ومابعدها ، تفسير الطبري : ١٨٥/١

قول حسن كما قال القرطبي ورجحه الطبري قبله .

ويقال : إن أول من أكل من الشجرة حواء ، بإغواء إبليس إياها .

رابعاً ـ عصيان آدم ثم توبته : قال جمهور الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي : الأنبياء معصومون من صغائر الذنوب وكبائرها معاً ؛ لأنّا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسِيَرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة ، فلوجوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم[١] .

وبناءً عليه ، أجيب عن خطيئة آدم التي كانت من الصغائر لا من الكبائر ، بأنها صدرت منه قبل النبوة ، والعصمة عن المخالفة إنما تكون بعد النّبوة .

أو بأن الذي وقع منه كان نسياناً ، فسمّي عصياناً تعظيماً لأمره ، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة ، أو أن ذلك ـ على طريقة السلف ـ من المتشابه كسائر ما ورد في القصة ، مما لا يمكن حمله على ظاهره[٢] . والراجح لدي أن هذه المخالفة وقعت نسياناً وسهواً ، كما قال جلّ وعزّ : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه ١١٥/٢٠] .

وتوبة آدم كانت بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف ٢٣/٧] ، وهذا هو المروي عن ابن عباس . وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه : إنّ أحبّ الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة : « سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك وتعالى جدّك ، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٠٨/١ ، تفسير الرازي : ٧/٣

(٢) تفسير الكشاف : ٢١٢/١ ، تفسير الرازي : ٧/٣ ، تفسير المراغي : ٩٤/١ ، تفسير المنار : ٢٨١/١

واكتفى القرآن بذكر توبة آدم دون توبة حواء ؛ لأنها كانت تبعاً له ، كما طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسّنة لذلك . وقد ذكرها في آية أخرى : ﴿ قالا ربّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا ﴾ الآية السابقة[١] .

ولاتكون التوبة مقبولة من الإنسان إلا بأربعة أمور : الندم على ما كان ، وترك الذنب الآن ، والعزم على ألا يعود إليه في مستأنف الزمان ، وردّ مظالم العباد وإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه والاعتذار إليه باللسان[٢] .

خامساً ـ دخول إبليس الجنة : تساءل العلماء : كيف تمكّن إبليس من وسوسة آدم بعد أن طرده الله من الجنة بقوله : ﴿ فاخْرُجْ مِنها فإنَّكَ رجيمٌ ﴾ [ص ٧٧/٣٨] ، فكان خارج الجنة ، وآدم في الجنة ؟ وأجيب بأجوبة ، منها : أنه يجوز أن يمنع إبليس دخول الجنة على جهة التكريم ، كدخول الملائكة ، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ، ابتلاء لآدم وحواء . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة ولم يصل إلى آدم بعد ماأخرج منها ، وإنما بوسواسه الذي أعطاه الله تعالى ، كما قال ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

سادساً ـ في قوله تعالى : ﴿ فإمّا يأتينّكم منّي هدى ﴾ [البقرة ٣٥/٢] : إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة من الله تعالى ، خلافاً للقدرية وغيرهم القائلين : إن العبد يخلق أفعال نفسه . ودلّت الآية (٣٨) على أن من جاءه الهدى على لسان رسول واتبعه ، فقد فاز بالنجاة في الآخرة ، ودلت الآية (٣٩) على أن الذين لم يتبعوا هدى الله ـ وهم الذين كفروا بآيات الله اعتقاداً وكذبوا بها لساناً ـ جزاؤهم الخلود في نار جهنم بسبب جحودهم بها ، وإنكارهم إياها ، اتباعاً لوسوسة الشيطان .

---

(١) تفسير الكشاف : ٢١١/١

(٢) تفسير الرازي : ٢٠/٣ ، تفسير المراغي : ٩٢/١

(٣) الكشاف : ٢١١/١ ، القرطبي : ٣١٢/١ ، الرازي : ١٥/٣

سابعاً ـ الملائكة : الملائكة خلق من خلق الله تعالى ، لانعلم حقيقتهم ، واعتقاد وجودهم واجب شرعاً ، لإخبار القرآن والنَّبي ﷺ بذلك . وهم مجبولون على الطاعة ، منزهون عن المعصية ، وهل هم أفضل من البشر ؟

اختلف العلماء في شأنهم ، فرأى بعضهم أنهم أفضل من البشر ، لقوله تعالى : ﴿ قالَ : ما نهاكُما ربكُما عن هذهِ الشجرةِ إلاّ أنْ تكونا مَلَكَيْنِ أو تكونا منَ الخالدينَ ﴾ [الأعراف ٢٠/٧] ، وقوله تعالى عن صواحب يوسف : ﴿ وقُلْنَ : حاشا للهِ ، ماهذا بَشَراً ، إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريمٌ ﴾ [يوسف ٣١/١٢] .

ورأى بعضهم أن النوع الآدمي أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة مجبولون على الطاعة ، والبشر فيهم نزعة الشرّ والخير ، والآدمي يجاهد شهواته وميوله .

وقال جماعة : إن عموم الملائكة أفضل من عموم البشر ، وخواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة .

وفي رأيي : أن التوقف عن الخوض في ذلك أولى ، وإن كنت أرجح تفضيل الملائكة على البشر .

قصة آدم عليه السلام

تكرر اسم آدم عليه السلام في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة ، فتحدثت عنه سورة البقرة في الآيات (٣١ ـ ٣٧) ، وآل عمران في الآيتين (٣٣ ، ٥٩) ، والمائدة في الآية (٢٧) ، والأعراف في الآيات (١١ ـ ١٧٢) ، والإسراء في الآيتين (٦١ ، ٧٠) ، والكهف في الآية (٥٠) ، ومريم في الآية (٥٨) ، وطه في الآيات (١١٥ ـ ١٢١) ، ويس في الآية (٦٠) . وتنوّع التعبير عن القصة ، مرة باسمه وصفته ، كما في السّور : البقرة والأعراف والإسراء والكهف ، ومرة بصفته فقط ، كما في سورتي الحجر و ص ، مما يدل على إعجاز القرآن الكريم .

وفي هذه القصة موضوعات ستة[١] :

الأول ـ خَلْق آدم من طين : أبان القرآن الكريم أن أصل خلق آدم عليه السلام كان من طين ، من حمأ مسنون ـ متغير ـ حتى إذا أصبح صلصالاً كالفخار ، نفخ الله فيه من روحه ، فإذا هو إنسان متحرّك ، ذو قدرات مادية وعقلية ومعنوية ـ أخلاقية ، وكان آدم وحواء أصل النوع الإنساني كما أخبر القرآن ، وقد أثبت العلماء زيف نظرية « دارون » التي تجعل القرد أصلاً وأباً للإنسان .

الثاني ـ السجود لآدم : أمر الله تعالى إبليس والملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس كان من الجنّ ، ففسق عن أمر ربه ، وأبى واستكبر .

الثالث ـ سبب مخالفة إبليس وعقابه : احتجّ إبليس بأنه أفضل من آدم ، وقال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، والنار باعتبار ما فيها من الارتفاع والعلو أشرف من الطين الذي هو عنصر ركود وخمود ، فطرده الله من الجنة بسبب الكبر ونسبته الظلم إلى الله ، لكنه طلب الإنظار إلى يوم الدّين ، فأنظره الله ، وتوعد آدم بإغواء ذريته ، فردّ الله عليه بأن عباد الله المخلصين لا سلطان له عليهم ، وتوعده ومن تبعه بالنار .

الرابع ـ استخلاف آدم في الأرض : أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة عنه في الأرض يكون له سلطان في التصرف في موادها ، فتساءلوا على سبيل العلم والحكمة ، كيف تجعل في الأرض المفسدين وسفاكي الدماء ، وهم ـ أي الملائكة ـ أهل الطاعة واجتناب المعصية ؟ فأجابهم الحقّ سبحانه أنه يعلم في هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون ، واختصه بعلم ما لا يعلمون .

---

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار : ص ٢ ومابعدها ، ط رابعة .

الخامس ـ تعليم آدم أسماء الأشياء المحسوسة : ميَّز الله آدم عن الملائكة بتعليمه أسماء جميع الأشياء المادية التي يراها حوله من زروع ، وأشجار ، وثمار ، وأوعية ، وحيوان ، وجماد ، لحاجته إلى الاستفادة منها في طعامه وشرابه ، بخلاف الملائكة الذين لايحتاجون إلى شيء ، ثم طالب الله الملائكة بأسماء المسميات المرئية الحاضرة ، بعد أن عرض عليهم المسميات ، فلم يعلموها . وحاجة ذرية آدم إلى الأشياء تدفعهم إلى العمل والتفكير ، والتنقيب عن تلك الأشياء ، وعمارة الكون وتقدم وسائل الحياة في كل المجالات من زراعة وصناعة وتجارة .

السادس ـ سكنى آدم وزوجته الجنة وخروجهما منها : أسكن الله آدم الجنة ، وخلق له حواء ، وأباح لهما الاستمتاع بثمار الجنة إلا شجرة عينها لهما ، فوسوس لهما إبليس بالأكل منها وأغراهما ، وقال لهما : مانهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة ، أو تكونا خالدين دون موت ولافناء ، فرفض آدم في مبدأ الأمر ، وقاوم إغراءات الشيطان ، ولكن إبليس استمر في إلقاء وساوسه : ﴿ وقاسَمَهما إنِّي لكُما لَمِنَ النَّاصحينَ ﴾ [الأعراف ٢١/٧] ، حتى نسي آدم أنه عدوه الذي أبى السجود له ، فأكل آدم وحواء من الشجرة : ﴿ فبدتْ لَهُما سوءاتهما ، وطَفِقا يَخْصفانِ عليهما منْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [طه ١٢١/٢٠] ليسترا عوراتهما ، فعاتب الله آدم على مخالفة أمره والأكل من الشجرة ، فندم واستغفر الله وتاب ، فقبل توبته ، ولكنه أمره وحواء بالخروج من الجنة ، والاستقرار في الأرض .

العظة من قصة آدم :

١ ـ تفرد الله تعالى بأسرار وعلوم وحِكَم ، ولم يُطْلِع عليها أحداً من الخلق ، حتى الملائكة ، فإنهم جهلوا الحكمة من استخلاف آدم ، وتساءلوا عن السبب في هذا الاختيار .

٢ ـ إذا توجهت عناية الله تعالى إلى شيء جعلته جليلاً عظيماً ، كما توجهت عنايته إلى التراب فخلق منه بشراً سوياً ، وأفاض عليه من العلم والمعرفة وغيرهما مما عجز الملائكة عن إدراكه .

٣ ـ الإنسان وإن كرّمه الله ، لكنه ضعيف ، عرضة للنسيان ، كما نسي آدم أوامر الله ونواهيه ، فأطاع إبليس عدوه ، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها .

٤ ـ إن التوبة والإنابة إلى الله سبيل الظفر برحمة الله الواسعة ، فإن آدم الذي عصى ربه تاب وقبل الله توبته ، فعلى العاصي أو المقصر المبادرة إلى التوبة والاستغفار دون قنوط ولا يأس من رحمة الله ورضوانه ومغفرته .

٥ ـ الكبر والعناد والإصرار على الإفساد أسباب لاستحقاق السخط الإلهي ، واللعنة والغضب والطرد من رحمة الله ، فإن إبليس الذي أبى السجود ، وأصرّ على موقفه ، وعاند الله ، وتحدى سلطانه بإغراء الإنسان وصرفه عن إطاعة الله ، غضب الله عليه وطرده من الجنة إلى الأبد ، وأوعده بنار جهنم .

ما طُلب من بني إسرائيل

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾
وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

الإعراب

﴿ إياي ﴾ ضمير منصوب بفعل مقدر ، وتقديره : إياي ارهبوا فارهبون ، وإنما وجب تقدير « ارهبوا » لأن فعل ﴿ فارهبون ﴾ مشغول بالضمير المحذوف وهو الياء .

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً ﴾ « ما » بمعنى الذي ، والعائد هو الضمير المحذوف تخفيفاً في فعل ﴿ أنزلت ﴾ . ﴿ مصدقاً ﴾ حال من الهاء المحذوفة ، وتقديره : أنزلته . ﴿ أول كافر به ﴾ أول : خبر تكونوا ، كافر : صفة موصوف محذوف ، تقديره : أول فريق كافر ، ولهذا جاء بلفظ الواحد ، والخطاب لجماعة .

﴿ تكتموا ﴾ إما منصوب بتقدير « أن » أو مجزوم بالعطف على ﴿ تلبسوا ﴾ وعلامة النصب والجزم في الوجهين حذف النون . ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿ تكتموا ﴾ .

البلاغة :

﴿ نعمتي ﴾ الإضافة للتشريف وبيان عظم قدر النعمة وسعة يسرها وحسن موقعها . ﴿ ولا تشتروا بآياتي ﴾ ليس الشراء هنا حقيقياً ، بل هو على سبيل الاستعارة التصريحية ، كما في الآية السابقة ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ والمراد استبدلوا بآياتي ثمناً ، والمراد بالثمن في الأصل هو المشترى به ، أي استبدلوا بآيات الله وبالحق الكثير بدلاً قليلاً ومتاعاً يسيراً ، فكانت مبادلة خاسرة ؛ لأن كل كثير أو كبير بالنسبة للحق المتروك قليل وحقير .

﴿ وإياي فارهبون ﴾ و ﴿ إياي فاتقون ﴾ يفيد الاختصاص ، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿ إياك نعبد ﴾ .

تكرار الحق في قوله : ﴿ تلبسوا الحق ﴾ وقوله ﴿ وتكتموا الحق ﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه ؛ لأن التصريح للتأكيد .

إطلاق الركوع على الصلاة في قوله : ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ مجاز مرسل ، من أنواع تسمية الكل باسم الجزء .

المفردات اللغوية :

﴿ إسرائيل ﴾ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ، وبنوه : أولاده ، وهم اليهود . ومعنى ﴿ إسرائيل ﴾ صفي الله ، وقيل : الأمير المجاهد . ﴿ عهدي ﴾ عهد الله : ما عاهدهم

عليه في التوراة من الإيمان بالله وبرسله وبخاصة محمد خاتم الأنبياء من ولد إسماعيل ﴿ بعهدكم ﴾ ماعاهدتكم عليه من الثواب على الإيمان ، والتمكين من بيت المقدس ، وسعة العيش في الدنيا .

﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ قد يطلق كل من البيع والشراء على الآخر ، والمعنى : لاتبيعوا آياتي بثمن قليل وعوض يسير من الدنيا ، أو لاتكتموها خوف فوات ماتأخذونه من الناس .

﴿ فارهبون ﴾ فخافون في نقضكم العهد وترك الوفاء به دون غيري .

﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ من القرآن . ﴿ مصدقاً لما معكم ﴾ من التوراة بموافقته في التوحيد والنبوة .

﴿ ولا تلبسوا ﴾ لاتخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه ، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه .

المناسبة :

اختصت هذه الآيات من (٤٠ ـ ١٤٢) بالكلام عن بني إسرائيل فيما يقارب جزءاً كاملاً ، لكشف حقائقهم وبيان مثالبهم ، وكانت الآيات السابقة من أول السورة إلى هنا حول إثبات وجود الله ووحدانيته ، والأمر بعبادته ، وأن القرآن كلام الله المعجز ، وبيان مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وتكريمه وخلق السموات والأرض ، وموقف الناس من كل ذلك وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين . ثم بدأ سبحانه بمخاطبة الشعوب التي ظهرت فيها النبوة ، فبدأ باليهود ؛ لأنهم أقدم الشعوب ذات الكتب السماوية ، ولأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين بالقرآن ، مع أنهم أولى الناس بالإيمان بخاتم الرسل ، لذا ذكرهم الله تعالى بنعمه الكثيرة التي أنعم بها عليهم ، وذكرهم بالعهد المؤكد معهم على التصديق بنبوة محمد ﷺ ، وتنوع أسلوب القرآن في خطابهم ، تارة بالملاينة والملاطفة ، وتارة بالتخويف والشدة ، وأحياناً بالتذكير بالنعم ، وطوراً بتعداد جرائمهم وقبائحهم وتوبيخهم على أعمالهم وإقامة الحجة عليهم .

التفسير والبيان :

يا أولاد النبي الصالح يعقوب ، كونوا مثل أبيكم في اتباع الحق ، وتفكروا

بالنعم التي أنعم الله بها على آبائكم من الإنجاء من فرعون ، وتظليل الغمام ، واشكروا الله على نعمه بامتثال أوامره وإطاعته ، وأوفوا بما عاهدتكم عليه من الإيمان بالله ورسله دون تفريق ، وبخاصة محمد خاتم النبيين ، أُوفِ بعهدي لكم في الدنيا والآخرة ، بالتمكين لكم في الأرض المقدسة ـ في زمنهم ـ ورفع شأنكم ، وتوسيع معيشتكم ، ونصركم على أعدائكم ، وتوفير السعادة لكم في الآخرة .

وآمنوا ـ ضمن مشتملات العهد ـ بالقرآن إيماناً صادقاً ، وأنه من عند الله ، وأنه نزل مؤيداً ومصدقاً وموافقاً للتوراة وكتب الأنبياء السابقة ، في الدعوة إلى توحيد الله ، وترك الفواحش ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي التوراة وصف للنبي ﷺ ، فلا تكونوا ياأهل الكتاب أول الناس في الكفر به ، فأنتم أحق الناس بالإيمان به ، لوجود دليل صدقه في التوراة . ولا تبيعوا آيات الله الدالة على صدق محمد في نبوته ودعوته بثمن دنيوي حقير ، من رياسة أو زعامة أو مال أو موروثات وعادات قديمة ، فإنه ثمن قليل بخس ، وتجارة خاسرة غير رابحة . ولا تخافوا أحداً سوى الله فهو بيده الخير كله . ولا تخلطوا الحق الموجود في التوراة بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه ، ولا تكتموا وصف النبي وبشارته التي هي حق وأنتم تعلمون ضرر الكتمان ، فليس جزاء العالم في الآخرة كالجاهل . وأدوا ماافترض الله عليكم من الصلاة والزكاة وأدوها جماعة مع النبي محمد عليه السلام . وعبر بالركوع عن الصلاة ليبعدهم عن صلاتهم القديمة التي لا ركوع فيها .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى أحكام كثيرة في العقيدة والأخلاق والعبادة والحياة الخاصة والعامة ، فأوجبت على اليهود ألا يغفلوا عن نعم الله التي أنعم بها عليهم وألا يتناسوها ، والنعمة هنا : اسم جنس ، مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى : ﴿ وإن تعدُّوا نِعْمةَ اللهِ لاتُحْصوها ﴾ [إبراهيم ٣٤/١٤] ، ومن نعمه عليهم : أن

أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجَّر لهم من الحجر الماء ، واستودعهم التوراة التي فيها صفة محمد ﷺ ونعته ورسالته[١] ، والنعم على الآباء نعم على الأبناء ، لأنهم يشرفون بشرف آبائهم وكانت النعم سبباً في بقائهم . والتذكير بكثرة النعم يوجب الحياء عن إظهار المخالفة ، ويوجب عظم المعصية ، ويستدعي الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن .

وألزمهم الوفاء بالعهد : وهو عام في جميع أوامره تعالى ونواهيه ووصاياه ، ويدخل في ذلك الإيمان بمحمد ﷺ الذي ذكر في التوراة وغيرها ، فإذا وفّوا بعهودهم ، وفى الله لهم عهده : وهو أن يدخلهم الجنة ، على سبيل التفضل والإنعام .

وما طلب من اليهود من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة ١/٥] ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتم ﴾ [النحل ٩١/١٦] .

وأمرهم بخشية الله وحده والإيمان (التصديق) بما أنزل الله وهو القرآن ، ونهاهم عن أن يكونوا أول من كفر ، وألا يأخذوا على آيات الله ثمناً ، أي على تغيير صفة محمد ﷺ رُشىً ، وكان الأحبار يفعلون ذلك ، فنهوا عنه .

وقد أثار العلماء في هذه الآية (٤١) ونحوها مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن[٢] ، فمنع ذلك الزهري وأصحاب الرأي ، وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب

---

(١) تفسير الرازي : ٣٣/٣ وما بعدها ، قال بعض العارفين : عبيد النعم كثيرون ، وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكّر بني إسرائيل بنعمه عليهم ، ولما آل الأمر إلى أمة محمد ﷺ ذكرهم بالمنعم فقال : ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ [البقرة ١٥٢/٢] فدل ذلك على فضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم .

(٢) تفسير القرطبي : ٣٣٥/١

والإخلاص ، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ .

وأجاز جمهور العلماء غير الحنفية أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس ـ حديث الرُّقْيَة الذي أخرجه البخاري : « إن أحقّ ماأخذتم عليه أجراً كتاب الله » والقياس على الصلاة والصيام فاسد ؛ لأنه في مقابلة النص ، ولأن تعليم القرآن يتعدى أثره لغير المعلِّم ، فيختلف عن العبادات المختصة بالفاعل .

وهذا الخلاف جارٍ أيضاً في أداء الصلاة وغيرها من الشعائر الدينية بأجر .

ونهى الله اليهود ـ ومثلهم غيرهم ـ عن أن يخلطوا ماعندهم من الحق في الكتاب بالباطل ، وهو التغيير والتبديل ، وعن كتمان ماعلموا ، ومنه أن محمداً عليه السلام حق ، فكفرهم كان كفر عناد ، ولم يشهد تعالى لهم بعلم في ذلك .

وفي نهاية الآيات أمرهم الله تعالى ـ والأمر للوجوب ـ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وعبّر عن الصلاة بالركوع ؛ لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع ، ليرشدهم إلى الصلاة بالصفة الإسلامية ، والمراد بالزكاة على الأصح الزكاة المفروضة ، لمقارنتها بالصلاة ، وليس المراد هو صدقة الفطر . وفي الصلاة تطهير النفوس ، وفي الزكاة تطهير المال ، وكلاهما مظهر شكر الله على نعمه ، والزكاة تنفرد بأنها تحقق مبدأ التكافل الاجتماعي بين الناس ، فالغني بحاجة إلى الفقير ، والفقير بحاجة إلى الغني . قال الجصاص : أريد بالصلاة والزكاة ماخوطبنا به من هذه الصلوات المفروضة والزكوات الواجبة[1] .

---

(١) أحكام القرآن : ٣٤/١

نماذج من سوء أخلاق اليهود

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

الإعراب :

﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿ تنسون ﴾ .

﴿ وإنها ﴾ الهاء تعود على الصلاة ، وإنما قال : ﴿ وإنها ﴾ ولم يقل : وإنهما أي الصبر والصلاة ؛ لأن العرب ربما تذكر اسمين ، وتكنّي عن أحدهما ، مثل : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها ﴾ ولم يقل ينفقونها ، ومثل : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ [الجمعة ١١/٦٢] ولم يقل : إليهما .

﴿ إليه ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى .

﴿ يوماً ﴾ مفعول فيه ظرف زمان لفعل ﴿ اتقوا ﴾ . و ﴿ لا تجزي ﴾ وما بعدها من الجمل المنفية صفات ليوم ، وفي كل جملة ضمير مقدر يعود على يوم ، تقديره : فيه ، أي لا تجزي فيه .. وهكذا . وتذكير فعل ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ مع أن الفاعل مؤنث لوجود الفاصل ، وإذا وجد الفصل بين الفعل والفاعل ، قوي التذكير .

البلاغة :

﴿ أتأمرون ﴾ الاستفهام للتوبيخ . ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ فيه تقريع وتبكيت . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ استفهام إنكاري ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ مبالغة في الترك .

ثم إن عطف ﴿ وأني فضلتكم .. ﴾ على ﴿ اذكروا نعمتي ﴾ من عطف الخاص على العام .

﴿ واتقوا يوماً ﴾ تنكير اليوم للتهويل ، وتنكير النفس في ﴿ نفس عن نفس ﴾ لإفادة العموم .

المفردات اللغوية :

« البر » الطاعة والخير والعمل الصالح ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ تتركونها فلا تأمرونها به ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، وفيها الوعيد على مخالفة القول العمل . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ سوء فعلكم فترجعوا .

﴿ واستعينوا ﴾ اطلبوا المعونة على أموركم ﴿ بالصبر ﴾ حبس النفس على ما تكره ﴿ والصلاة ﴾ قال القرطبي وغيره : خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها ، وكان عليه السلام إذا حزَبه أمر فزَع إلى الصلاة[1] ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ أي وإن الصلاة لشاقّة ثقيلة ﴿ الخاشعين ﴾ الساكنين إلى الطاعة .

﴿ يظنون ﴾ يعتقدون أو يوقنون ﴿ ملاقو ربهم ﴾ بالبعث ﴿ وأنهم إليه راجعون ﴾ في الآخرة فيجازيهم .

﴿ اذكروا نعمتي ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿ فضلتكم ﴾ أي آباءكم ﴿ على العالمين ﴾ عالمي زمانهم . ﴿ واتقوا ﴾ خافوا ﴿ يوماً ﴾ يوم القيامة . ﴿ لا تجزي ﴾ تقضي وتؤدي نفس . ﴿ عدل ﴾ فداء . ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ يمنعون من عذاب الله .

سبب النزول :

أخرج الواحدي والثعلبي عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية (٤٤) في يهود المدينة ، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الدين الذي أنت عليه ، وما يأمرك به ، وهذا الرجل ، يعنون محمداً ﷺ ، فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه[2] .

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٧١/١ ، وحزبه : نزل به مُهِمٌّ أو أصابه غم .

(٢) أسباب النزول للواحدي : ص ١٣

وقال السُدّي : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ، ويخالفون ، فعيّرهم الله عز وجل[١] .

التفسير والبيان :

بان مما سبق في سبب النزول أن الآيات نزلت في أهل الكتاب وعلى التخصيص الأحبار والرهبان ، كانوا يأمرون الناس بالخير والثبات على الإسلام ويتركون أنفسهم ، فهذا مدعاة العجب والاستغراب ، فإن الآمر بالشيء هو القدوة ، فعليه المبادرة إلى فعل ماأمر به غيره ، وإلا كان كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه . وفي هذا توبيخ وتأنيب شديد ، فكيف يليق بكم ياأهل الكتاب ، وأنتم تأمرون الناس بالبر ، وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرون به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب ، وتعلمون مافيه من وعيد على من قصر في أوامر الله ، أفلا تعقلون ماأنتم صانعون بأنفسكم ؟ فتنتبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم .

وهذا الخطاب ، وإن كان لليهود من أهل الكتاب ، فهو موجه أيضاً لغيرهم ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وطريق العلاج لهذا المرض أن تؤمنوا حقاً ، وتستعينوا على أنفسكم الأمارة بالسوء ، على مرضاة الله بالصبر الحقيقي وهو إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة ، وتستعينوا بالصلاة لترويض النفس على التزام جادة الاستقامة ، فمن صبر على احتمال التكاليف ، وصرف نفسه عن المعاصي ، وناجى ربه في صلاته ، وعقد الصلة مع الله فيها خمس مرات في اليوم ، كان جديراً بنصح الآخرين ، مدركاً بعقله الواعي مخاطر الانحراف ، ضامناً لنفسه النجاة ، لأن الأمر بالمعروف واضح ، وهو واجب على العالم ، وأوجب منه أن

---

(١) تفسير ابن كثير : ٨٥/١

يبدأ الواعظ بفعله بنفسه ، ولا يتخلف بشيء عمن أمرهم به ، قال شعيب عليه السلام ـ فيما حكاه القرآن : ﴿ وما أريد أن أخالِفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ [هود ٨٨/١١] .

والتزام الصلاة أمر شاق إلا على من خشعت نفوسهم لله ، وخافوا من شديد عقابه ، وعمرت قلوبهم بالإيمان وصدقوا بلقاء الله وحسابه ، فبادروا إلى الصلاة ، لإراحة أنفسهم ، وتطمين قلوبهم ، وإراحة بالهم ، وإزالة قلقهم ، وهو ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله : « وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة »[1] .

والأصح أن المراد بالصلاة التي أمر بها اليهود وغيرهم هي الصلاة الإسلامية ، بناء على أنهم مخاطبون بفروع الشريعة ومكلفون بها ، ولأن الصلاة التي أمروا بها هي المشتملة على الركوع ، كما في الآية السابقة ، وصلاتهم لا ركوع فيها ، كما بينا .

وعبر بالظن في قوله : ﴿ الذين يظنون ﴾ للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا يشق عليه الصلاة ، فكيف بمن يتيقنه ؟! فهذا سبب آخر بعد نسيان أنفسهم وتلاوة الكتاب للتقريع والتوبيخ .

وفي مجالات الأوامر والترغيب في المأمورات يحسن التذكير بالنعم الإلهية ، لذا كرر تعالى تذكير الكتابيين بالنعم التي أنعم بها على آبائهم وعليهم ، وأنه فضلهم على غيرهم من العالم في زمانهم ، وأنه جعل فيهم الأنبياء ، والخطاب ليس موجهاً إلى الجماعة فقط ، وإنما إلى كل فرد أيضاً ، لأن كل امرئ مسؤول عن نفسه ، فليخش كل إنسان يوماً مليئاً بالأهوال ، لا منجاة فيه إلا بتقوى الله في السر والعلن ، ولا فائدة فيه إلا لمن عمل لنفسه ، فلا تقبل هناك شفاعة الشفعاء والوسطاء ، ولا ينفع دفع البدل أو الفداء ، ولا يمنع المقصرون من العذاب .

---

(١) نص الحديث بكامله : « حُبِّب إلي من دنياكم : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » أخرجه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستحق كل مقصر في واجبه العقاب واللوم ، فقد كان التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر ، لا بسبب الأمر بالبر ، وكان ذم اليهود لأنهم كانوا يأمرون بأعمال البر والطاعة ولا يعملون بها ، ويزداد التقريع للعالم الذي لا يعمل بما علم ، فليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولا يتقبل العقل السليم هذه الحال من أحد .

وإطاعة الأوامر الإلهية وعدم مخالفتها تتطلب الصبر ، ومن صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ، ومن أخص حالات الصبر : الصلاة ، فالصلاة فيها سجن النفوس ، وجوارح الإنسان فيها مقيدة بها عن جميع الشهوات ، فكانت الصلاة أصعب على النفس ، وكانت مكابدتها أشق . وتهون المصاعب كلها أمام الخاشعين المتواضعين المخبتين إلى الله ، الموقنين بلقاء الله ، المصدقين بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وليست أمور الآخرة مقيسة على أمور الدنيا ، كما كان يتوهم اليهود وغيرهم من الأمم الوثنية ، فليس في ميزان الإسلام وعدله طريق لتخليص المجرمين من العذاب بفداء أو بدل يدفع ، أو بشفاعة تشفع ، ولا ينفع في اليوم الآخر إلا مرضاة الله تعالى بالعمل الصالح ، والإيمان المستقر في النفوس ، المتجلي في أعمال الانسان ، والحكم إلى الله العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها ، كما قال تعالى : ﴿ وقِفُوهُمْ إنهم مسؤولون ، مالكم لا تَنَاصرون ، بل هُم اليومَ مستسلمون ﴾ [الصافات ٢٤/٣٧ ـ ٢٦] .

والشفاعة المرفوضة هي شفاعة الكافرين ، فقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ واتّقوا يوماً لا تَجْزِي نفسٌ عن نَفْسٍ شيئاً ، ولا يُقْبَلُ منها شفاعةٌ ﴾ : النفس الكافرة ، لا كل نفس . أما المؤمنون فتنفعهم الشفاعة بإذن الله ، لقوله تعالى : ﴿ ولا يَشْفَعون إلا لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء ٢٨/٢١] والفاسق

غيرُ مرْتَضى ، وقوله : ﴿ ولا تنفعُ الشفاعةُ عِنْدَه إلا لمن أَذِنَ له ﴾ [سبأ ٢٣/٣٤] وليس في الشفاعة رجوع المولى عن إرادته لأجل الشافع ، وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ ماأراده الله أزلاً عقب دعاء الشافع ، والشفاعة دعاء . وليس في إثبات شفاعة مسوغ لمغتر يتهاون بأوامر الدين ونواهيه اعتماداً على الشفاعة ، فلا ينفع أحداً في الآخرة إلا طاعة الله ورضاه .

وأما تفضيل بني إسرائيل فهو ليس دائماً ولا عاماً ، وإنما هو مقصور على عالمي زمانهم ، ومرتبط بمدى تنفيذهم أوامر الله ، فالتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل ، والفضل إن كان بكثرة الأنبياء فيهم فهو صحيح لاشك فيه ، ولا تقضي هذه الفضيلة بأن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ويزول الفضل إذا هم انحرفوا عن هدي أنبيائهم وتركوا سنتهم . وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله برضاته ، فهو مختص بالأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه ، ومقيد بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل[1] .

نعم الله تعالى العشر على اليهود

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ

(١) تفسير المنار : ٢٠٤/١ وما بعدها .

فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

الإعراب :

﴿ إذ ﴾ معطوف على ﴿ نعمتي ﴾ ومنصوب بفعل محذوف تقديره : واذكروا إذ نجيناكم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ فرقنا ﴾ ، ﴿ وإذ واعدنا موسى ﴾ ، ﴿ وإذ آتينا موسى ﴾ . ﴿ فرعون ﴾ ممنوع من الصرف للتعريف والعجمة ، ومعناه في القبطية : التمساح . ﴿ يسومونكم ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من آل فرعون . وكذلك ﴿ يذبّحون ﴾ و ﴿ يستحيون ﴾ حال منهم أيضاً .

﴿ واعدنا ﴾ بمعنى وعدنا ، لأن الأصل في « فاعلنا » أن تكون مشاركة من اثنين ، ولا يحسن ههنا ؛ لأن الله تعالى وعد موسى ، ولم يكن من موسى وعد لله تعالى . ﴿ اتخذتم ﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما ، الأول منهما (العجل) والثاني مقدر وتقديره : إلهاً . ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ جملة اسمية في موضع الحال من ضمير ﴿ اتخذتم ﴾ .

﴿ ذلكم ﴾ أراد المذكور ، وهو يشمل القتل والتوبة .

البلاغة :

﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ استعارة من السّوم في البيع . ﴿ بلاء ﴾ و ﴿ عظيم ﴾ التنكير فيهما للتفخيم والتهويل .

﴿ واعدنا ﴾ ليست على أصلها وهو المشاركة من اثنين ، وإنما هي بمعنى « وعدنا » كما بينا في الإعراب .

هذا وعطف الفرقان على الكتاب في آية (٥٣) من باب عطف الصفات بعضها على بعض ؛ لأن الكتاب هو التوراة ، والفرقان هو التوراة أيضاً ، فهو كتاب منزل وفارق بين الحق والباطل .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذ نجيناكم ﴾ أي آباءكم ، تذكيراً لهم بنعمة الله تعالى ليؤمنوا . وفرعون : لقب لمن ملك مصر قبل البطالسة ﴿ يسومونكم ﴾ يذيقونكم ﴿ سوء العذاب ﴾ أشده أي العذاب الشديد . ﴿ يستحيون ﴾ يبقون نساءكم أحياء ، ويقتلون الرجال ، لقول بعض الكهنة لفرعون : إن مولوداً

يولد في بني إسرائيل ، يكون سبباً لذهاب ملكك ﴿ وفي ذلكم ﴾ العذاب أو الإنجاء ﴿ بلاء ﴾ ابتلاء واختبار .

﴿ فرقنا ﴾ فلقنا ، والمراد جعلنا فيه جسراً تعبرون عليه ، هاربين من عدوكم .

﴿ الكتاب ﴾ التوراة . ﴿ والفرقان ﴾ الشرع الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام .

﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ ذلكم ﴾ القتل ، وقتل منهم نحو سبعين ألفاً ﴿ بارئكم ﴾ مبدعكم ومحدثكم ﴿ فتاب ﴾ قبل توبتكم .

المناسبة :

هذه الآيات في تفصيل النعم العشرة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، بعد الإشارة إليها إجمالاً في قوله : ﴿ اذكروا نعمتيَ التي أنعمتُ عليكم ﴾ تذكيراً لهم بضرورة شكرها .

التفسير والبيان :

اذكروا أيها اليهود الذين تعاصرون التنزيل ونبوة محمد ﷺ النعم التي أنعم الله بها على آبائكم ، وهي نعم عليكم أيضاً بالتبع ، كانت سبباً لبقائكم ، ولأن الإنعام على أمة إنعام يشمل كل أفرادها ، وهي نعم عشرة ، ذكر منها هنا خمسة وهي :

١ ـ النجاة من فرعون وآله ، فإنه كان يذبح الأبناء الذكور ، ويترك البنات أحياء ، ويذيقهم العذاب الشديد ؛ لأن فرعون كان قد رأى ناراً هالته ، خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر ، إلا بيوت بني إسرائيل . وفسّرت له بأن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل[1] . فأخذ يقتل الذكور ويترك النساء ، ومع هذا نجاهم الله من هذا العذاب المهين . وفي النجاة من الهلاك اختبار من الله ، حتى يظهر شكر الناجي وصبر الهالك . والاختبار

(١) تفسير ابن كثير : ١/٩٠

قد يكون بالخير أو بالشر ، كما قال تعالى : ﴿ ونَبْلُوَكُمْ بالشرِّ والخيرِ فتنةً ﴾ [الأنبياء ٣٥/٢١] وقال : ﴿ وبَلَوْنَاهم بالحسناتِ والسيئاتِ لعلَّهم يَرْجِعون ﴾ [الأعراف ١٦٨/٧] .

وأما أنواع العذاب غير القتل ، فقال ابن إسحاق : كان فرعون يعذب بني إسرائيل ، فيجعلهم خدماً وخولاً ، وصنفهم في أعماله ، فصنف يبنون ، وصنف يزرعون له ، فهم في أعماله ، ومن لم يكن منهم في صنعة من عمله ، فعليه الجزية ، فسامهم العذاب .

وفرعون : لقب لكل من ملك مصر قبل البطالسة ، مثل قيصر لملك الروم ، وكسرى لملك الفرس ، وتُبَّع لملك اليمن ، والنجاشي لملك الحبشة ، وخاقان لملك الترك ، وبطليموس لمن ملك الهند .

ونسب الله تعالى إلى آل فرعون ـ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ـ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله[1] . قال الطبري : فكذلك كل قاتل نفساً بأمر غيره ظلماً ، فهو مقتول عندنا به قصاصاً ، وإن كان قتله إياه بإكراه غيره له على قتله[2] .

٢ ـ عبور بني إسرائيل في البحر الأحمر سالمين بعد تهيئة طريق يابس سلكوه ، وإغراق فرعون وجنوده . وقد كان فَرْق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التي يظهرها الله تعالى على أيديهم ، لتصديق الناس إياهم ، وهي سنة في الكون يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده .

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٨٥/١

(٢) تفسير الطبري : ٢١٤/١

وأما فرعون وجنوده فتبعوهم ، حتى إذا كانوا في وسط البحر ، أطبق الله عليهم الماء ، فغرقوا .

٣ ـ قبول توبة الاسرائيلين وعفو الله عنهم ؛ لأن الله تعالى كثير القبول لتوبة العصاة ، ورحيم بمن ينيب إليه ويرجع ، وهذا يستدعي شكر الله تعالى ، وشكره : الإيمان به وبرسله واتباعهم فيما جاؤوا به ، وبخاصة خاتم النبيين محمداً ﷺ .

٤ ـ إنزال التوراة الفارقة بين الحق والباطل والحلال والحرام على موسى عليه السلام ، كي يهتدوا بها ، ويتدبروا مافيها ، ويسيروا على منهجها وشرعها .

٥ ـ التخلص الجماعي من المجرمين بأمر الله نبيه موسى عليه السلام بعد أن اتخذ بنو إسرائيل العجل إلهاً ، فعبدوه من دون الله ، وظلموا أنفسهم بعد الإشراك بالله ، في وقت غيبة موسى عنهم لميقات ربه ، وصومه أربعين يوماً ، فاذكر يامحمد قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه :

ياقوم إنكم باتخاذكم العجل إلهاً قد أضررتم بأنفسكم ، فتوبوا إلى خالقكم ، وتخلصوا من جهلكم ، إذ تركتم عبادة البارئ ، وعبدتم أغبى الحيوان وهو البقر . وطريق التوبة التي كانت في شريعتهم : أن يقتل البريء منكم المجرم ، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء ، لئلا يبصر بعضهم بعضاً عند القتل ، فيرحمه ، فتقاتل عبدة العجل مع المؤمنين بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى ، حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، وبعدها تضرع موسى وهارون إلى الله ، فتاب عليهم ، من قتل ومن لم يقتل ، أما المقتول فهو حي يرزق عند الله ، وأما من بقي فقد قبلت توبته ، وانتهى التقاتل ، وألقوا السلاح ، وساد السلم والأمن ، ولا عجب في هذا ، فالله هو التواب الرحيم بعباده .

والأربعون يوماً في قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشر من ذي الحجة .

والخلاصة : ربما كانت هذه النعمة أجل النعم ، فالله تعالى يقول : اذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم ، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً ، وهي المذكورة في الأعراف (١٤٢) في قوله تعالى : ﴿ وواعَدْنَا موسى ثلاثين ليلةً ، وأتممناها بعشرٍ ﴾ وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر .

فقه الحياة أو الأحكام :

لكل ظالم عاتٍ باغ نهاية حتمية ، كنهاية فرعون بالإغراق في البحر ، وللمظلوم فرج قريب ونصر محقق ، كإنجاء بني إسرائيل المظلومين على يد فرعون وآله . وكان الإنجاء عيداً ، مستوجباً شكر الإله ، وصار يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر المحرَّم يوم صيام الشكر ، روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ماهذا اليوم الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغَرَّق فرعونَ وقومه ، فصامه موسى شكراً ، فنحن نصومه . فقال رسول الله ﷺ : فنحن أحق وأولى بموسى منكم ، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه . قال الترمذي : وروي عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر ، وخالفوا اليهود . واحتج بهذا الحديث الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق .

والشكر لله ـ كما قال سهل بن عبد الله : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاحتناب للمعصية في السر والعلانية .

والمبادرة إلى التوبة سبيل التخلص من المعصية ، والله سبحانه واسع الرحمة ، كثير القبول للتوبة .

والصبر مفتاح الفرج ، قال القشيري : من صبر في الله على قضاء الله ، عوَّضه

الله صحبة أوليائه ، هؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضرّ من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكاً ، وآتاهم مالم يؤتِ أحداً من العالمين[1] .

تتمة النّعم العشر على بني إسرائيل

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الإعراب :

﴿ جهرة ﴾ منصوب على المصدر في موضع حال من ضمير ﴿ قلتم ﴾ وتقديره : قلتم ذلك مجاهرين ، وهذا هو الأوجه . وقيل : صفة محذوف تقديره : أرنا الله رؤية جهرة .

---

(١) البحر المحيط : ١٩٤/١

﴿ سجّداً ﴾ جمع ساجد ، منصوب على الحال من ضمير ﴿ ادخلوا ﴾ . ﴿ حطّة ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : مسألتنا حطة ، أي حُطَّ عنا ذنوبنا . ومن نصب ﴿ حطّة ﴾ أعمل الفعل .

﴿ انفجرت ﴾ معطوف على فعل مقدر ، تقديره : فضرب فانفجرت ؛ لأن الانفجار إنما يحصل عن الضرب ، لاعن الأمر بإيجاده ، مثل : ﴿ فعِدّة من أيامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة ١٨٥/٢] أي فأفطر فعدة . ومثل : ﴿ فمن اضطر غير باغٍ ولاعادٍ فلاإثمَ عليه ﴾ [البقرة ١٧٣/٢] أي فأكل فلاإثم عليه .

﴿ مفسدين ﴾ حال مؤكدة لعاملها : ﴿ تعثوا ﴾ .

البلاغة :

﴿ من بعد موتكم ﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي .

﴿ كلوا ﴾ إيجاز بالحذف ، أي قلنا لهم : كلوا .

﴿ وماظلمونا ﴾ إيجاز بالحذف أيضاً تقديره : فظلموا أنفسهم بأن كفروا . والجمع بين ﴿ ظلمونا ﴾ و ﴿ يظلمون ﴾ الماضي والمضارع للدلالة على تماديهم في الظلم .

﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ ولم يقل : فأنزلنا عليهم ، لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريع ، بوضع الظاهر موضع الضمير . ﴿ رجزاً ﴾ نكّره للتهويل والتفخيم .

﴿ من رزق الله ﴾ تعظيم للنعمة والمنة ، وإيماء إلى أنه رزق حاصل من غير تعب ولامشقة .

المفردات اللغوية :

﴿ جهرة ﴾ عياناً واضحاً بالبصر . ﴿ الصاعقة ﴾ الصيحة بالعذاب ، أو نار من السماء . ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ماحلّ بكم .

﴿ ثمّ بعثناكم ﴾ أحييناكم . ﴿ تشكرون ﴾ نعمتنا بذلك .

﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ سترناكم بالسحاب الرقيق من حرّ الشمس في التيه . ﴿ المنّ ﴾ شيء حلو لزج كالعسل . ﴿ السلوى ﴾ الطائر المعروف بالسُّماني ويسمى في بلاد الشام بالفرّي ، وكل من السّماني والسلوى جمع لاواحد له من لفظه .

﴿ هذه القرية ﴾ بيت المقدس أو أريحا . ﴿ رغداً ﴾ أكلاً واسعاً هنيئاً لاعناء فيه ولاحجر

عليه . ﴿ الباب ﴾ بابها . ﴿ سجّداً ﴾ منحنين متواضعين متذللين لله . ﴿ حطّة ﴾ أي سؤالنا أن تحطّ عنا ذنوبنا أو خطايانا ، والمراد : اسألوا الله المغفرة .

﴿ رجزاً ﴾ عذاباً من السماء ، ومن المعلوم أن العذاب نوعان : نوع يمكن دفعه : وهو عذاب المخلوقات كالهدم والغرق ، ونوع لا يمكن دفعه : كالطاعون والصاعقة والموت ، والمراد به هذا النوع الثاني .

﴿ الحجر ﴾ أي حجر ، كان إذا ضربه تفجر منه الماء بقدرة الله . ﴿ فانفجرت ﴾ انشقت وسالت . ﴿ أناس ﴾ جماعة منهم ، وكانوا اثني عشر سبطاً . ﴿ مشربهم ﴾ موضع شربهم ، فلا يشاركهم فيه غيرهم . ﴿ ولا تعثوا ﴾ من عثي : أفسد ، أي لا تفسدوا إفساداً شديداً ، والعثو أو العِثيّ : أشد الفساد ، وتكرر المعنى تأكيداً ، لاختلاف اللفظ .

التفسير والبيان :

اذكروا يا بني إسرائيل قول السبعين من أسلافكم الذين اختارهم موسى عليه السلام حين ذهبوا معه إلى الطّور ، للاعتذار عن عبادة العجل : لن نصدق بالله وبكتابه ، علماً بأنك سمعت كلامه ، حتى نرى الله عياناً بالعين المجردة بلا حاجز ، فأخذهم الله بعذابه وهو إرسال نار من السماء وهي الصاعقة فأحرقتهم وماتوا ، ومكثوا يوماً وليلة ، والحي ينظر إلى الميت .

وهكذا كان حال بني إسرائيل مع موسى ، يتمرّدون ويعاندون ، فيعذبهم الله في الأرض ، بالأوبئة والأمراض وتسليط هوامّ الأرض وحشراتها ، حتى فتكت بالعدد الكثير منهم ، ثم ينعم الله عليهم ، وها هي بقية النّعم العشر التي يذكّرهم تعالى بها :

٦ ـ ثم أحييناهم بعد الموت الحقيقي ، ليستوفوا آجالهم المقدرة لهم ، فقاموا وعاشوا ينظرون إلى بعضهم[1] ، وذلك كله لتشكروا الله أيها اليهود المعاصرون على

(١) ورأى الشيخ محمد عبده أن المراد بالبعث هو كثرة النسل ، أي إنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ، بارك الله في نسلهم ليَعدّ الشعب بالبلاء السابق للقيام بحقّ الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حلّ بهم العذاب بكفرهم لها (تفسير المنار : ٣٢٢/١) .

إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت ، وتعتقدوا أن الله قادر على كل شيء . والشكر المطلوب : هو الإيمان بالله وكتبه وبمحمد ﷺ .

وقال بعض المفسّرين في تفسير ﴿ بعثناكم بعد موتكم ﴾ : علمناكم من بعد جهلكم . قال القرطبي : والأول أصح ؛ لأن الأصل في الكلام الحقيقة ، وكان موت عقوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذينَ خَرَجُوا مِنْ ديارِهم ، وهم أُلوفٌ ، حَذَرَ الموتِ ، فقال لهم اللهُ : مُوتُوا ثمّ أحياهُمْ ﴾ [البقرة ٢٤٣/٢][1] .

٧ ـ ثم سترناكم بالسحاب الأبيض الرقيق من حرّ الشمس ، أثناء وجودكم في وادي التّيه بين الشام ومصر مدة أربعين سنة ، حيارى تائهين ، بعد أن خرج آباؤكم من مصر ، وجاوزوا البحر .

٨ ـ ثم أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب كالمنّ الذي هو مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ، والسلوى الذي هو طير يشبه السُّماني لذيذ الطعم ، وكان المنّ ينزل عليهم نزول الضباب من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وتأتيهم السُّماني ، فيأخذ كل واحد ما يكفيه إلى الغد .

وقلنا لكم : كلوا من ذلك الرزق الطيب ، واشكروا الله ، فلم يفعلوا ، وكفروا تلك النعم الجزيلة ، ولم يضروا إلا أنفسهم ، حيث قطع الله عنهم هذه النعم ، وجازاهم على مخالفتهم ، فكان وبال العصيان عائداً عليهم .

٩ ـ واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التّيه : ادخلوا القرية ، قال الجمهور : هي بيت المقدس ، وقيل : أريحاء من بيت المقدس ، واسكنوا فيها ، وكلوا واشربوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً لا حرج فيه ، وادخلوا باب القرية ساجدين لله خاضعين مبتهلين إلى الله وحده ، شكراً لله تعالى على خلاصكم

---

(١) تفسير القرطبي : ٤٠٥/١

من التّيه ، وقولوا : يا ربّنا ، حُطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ، وسنزيد المحسنين ثواباً من فضلنا وأجراً جزيلاً . والمحسن : من صحح أساس توحيده ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شرّه .

فخالف الظالمون الأمر ولم يتبعوه ، معبراً عن المخالفة بالتبديل ، إشارةً إلى أن المخالف كأنه أنكر الأمر وادعى أنه أُمر بغيره ، ودخلوا زاحفين على أستاههم ، أي أدبارهم ، غير خاضعين لله ، فكان جزاؤهم إنزال العذاب الشديد من السماء وهو الرجز ، وهو في رأي جماعة من المفسّرين ، الطاعون ، بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ، قيل : هلك منهم سبعون ألفاً بالطاعون .

١٠ ـ واذكروا يابني إسرائيل نعمة أخرى حين عطش آباؤكم من شدّة الحرّ في التّيه ، وطلبوا من موسى عليه السلام السقيا ، فأمره الله أن يضرب بعصاه أي حجر ، فضرب فانفجرت منه المياه المتدفقة بقوة ، وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل جماعة منهم عين يشربون منها حتى لاتقع بينهم الشحناء ، وكانوا اثني عشر سبطاً ، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر ، وقال الله لهم : كلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير تعب ، ولاتفسدوا في الأرض بأن تنشروا الفساد في الأرض ، وتكونوا قدوة لغيركم فيه ، أو لاتتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم .

وكان تفجير الماء بعصا موسى معجزة ظاهرة له ، وهي لاتكون لغير نبي ، والمراد بالحجر الجنس ، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، قال الحسن البصري : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، وهذا أظهر في الحجة ، وأبين في القدرة .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن مخاطبة بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن وتذكيرهم بالنّعم التي أنعم

الله بها على أصولهم ، دليل واضح على وحدة الأمة ، وتكافل أفرادها ، وأن السعادة والشقاوة تعم الجميع من أصول وفروع ، وإن لم يسأل الفرع عما فعل أصله ، لكنه يتضرر بسوء أصله ، وينتفع باستقامة أصله ، كما قال تعالى في تعميم العذاب : ﴿ واتَّقوا فتنةً لاتُصيبنَّ الذينَ ظلموا منكم خاصةً ﴾ [الأنفال ٢٥/٨] ، وقال سبحانه في كنز الغلامين اليتيمين تحت الجدار : ﴿ وكانَ أبوهُما صالحاً ﴾ [الكهف ٨٢/١٨] ، فكان صلاح الأب أو الجدّ سبباً في صلاح الابن أو الحفيد نفسه ، وفي حفظ المال لذريته ، أي أن الصلاح يفيد في النفس والمال .

وفي قوله تعالى : ﴿ ولكنْ كانوا أنفسهم يَظْلِمونَ ﴾ [البقرة ٥٧/٢] ، إيماء إلى أن كل ما يأمر به الله من عبادة فإنما نفعه لهم ، وما ينهاهم عنه ، فإنما ذلك لدفع ضُرّ يقع بهم ، وهو بمعنى قوله تعالى : ﴿ ياأيُّها النَّاسُ ، إنَّما بغيُكم على أنفسِكم ﴾ [يونس ٢٣/١٠] ، وقوله : ﴿ لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨٦/٢] .

أما تفجير الماء من الحجر فكان معجزة لموسى عليه السلام ، والمعجزات كلها من صنع الله ، وهي سنة جديدة غير ما نشاهد من العادات كل يوم ، أما المخترعات العلمية فهي مبنية على السّنن العلمية باستخدام طاقات الكون من الأثير والهواء والنفط والكهرباء وغير ذلك . وكان الله قادراً على تفجير الماء وفلق البحر بلا ضرب عصا ، ولكنه جلّت قدرته أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ، ليسعوا في الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة . ومثل ذلك أيضاً معجزات عيسى عليه السلام ، كان الله قديراً على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، ولم يكن هناك داعٍ لنفخ الملَك في مريم ؛ لأن طريق القدرة ﴿ كن فيكون ﴾ [آل عمران ٤٧/٣] ، ولكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرُّج ، ليتبين الفرق بين الطين والطير بالحياة ، وكان خلق عيسى عليه السلام من نطفة الأم فقط ، ونفخ الروح كان بإذن الله وقدرته : ﴿ كن فيكون ﴾ [آل عمران ٤٧/٣] وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة .

وكان إمداد اليهود بالنّعم من أجل شدهم إلى منهج الاستقامة ، وتخليصهم بالتوبة من الخطايا التي كانوا يرتكبونها ، وذلك كله على سبيل العظة والعبرة . وكان إبقاء اليهود في التّيه أربعين سنة من أجل خروج جيل جديد يتربى على العقائد الحقة وفضائل الأخلاق ، وانقراض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية وعبادة العجل .

وحينما أمر الله اليهود بالدخول في باب القرية سجّداً قائلين : حطّة ، بدلوا ودخلوا الباب ، يَزْحفون على أستاههم ، وقالوا : حَبَّة في شَعْرة ، وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به ، فعصوا وتمردوا واستهزءوا ، فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وفي هذا دليل على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يجوز إن كان التّعبد بلفظها ، لذمّ الله تعالى من بدّل ماأمر به بقوله . أما إن كان التّعبد بمعناها فيجوز تبديلها بما يؤدّي ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه . وبناءً عليه أجاز جمهور العلماء للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته رواية الحديث النّبوي بالمعنى ، لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله . واتّفق العلماء على جواز نقل الشرع للأعاجم غير العرب بلسانهم وترجمته لهم ، وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قصّ من أنباء ماقد سلف ، فقصّ قصصاً ذكر بعضها في مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربي ، وهو مخالف لها في التقديم والتأخير ، والحذف والإلغاء ، والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية ، فلأن يجوز بالعربية أولى . وأما حديث « نضّر الله وجه امرئ سمع مقالتي ، فبلّغها كما سمعها » فالمراد حكمها ، لالفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدّ به[1] .

وأما تعذيب بني إسرائيل بإنزال الرجز (أي العذاب) من السماء ، فكان

---

(١) تفسير القرطبي : ٤١١/١ ـ ٤١٣

بسبب فسقهم كما قال تعالى : ﴿ بما كانوا يَفْسُقونَ ﴾ ، وفي سورة الأعراف : ﴿ بما كانوا يَظْلِمونَ ﴾ (١٦٢) ، والفسق في الشرع : عبارة عن الخروج من طاعة الله إلى معصيته . وهذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله تعالى : ﴿ على الذينَ ظَلَموا ﴾ وفائدة التكرار : التأكيد ، والحق كما قال الرازي[1] : أنه غير مكرر لوجهين : الأول : أن الظلم قد يكون من الصغائر ، وقد يكون من الكبائر . الثاني : يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل ، فنزل الرجز عليهم من السماء ، بسبب ذلك التبديل ، بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل ، وعلى هذا الوجه يزول التكرار .

وأفادت آية ﴿ وإذِ اسْتَسْقى موسى لِقومِهِ ﴾ تقرير سنة الاستسقاء ، بإظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلّة مع التوبة النصوح . وقد أقرت شريعتنا سنة الاستسقاء بالخروج إلى المصلى والخطبة والصلاة في رأي جمهور العلماء ؛ لأن نبينا محمداً ﷺ استسقى ، فخرج إلى المصلّى متواضعاً متذلّلاً مترسلاً متضرعاً . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سنّة الاستسقاء صلاة ولا خروج ، وإنما هو دعاء لاغير ، واحتج بحديث أنس في صحيحي البخاري ومسلم . قال القرطبي : ولا حجة له فيه ، فإن ذلك كان دعاء عُجّلت إجابته ، فاكتفى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان سنته ، ولما قصد البيان بيّن بفعله ، حسبما رواه مسلم عن عبد الله بن زيد المازني ، قال : « خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى ، فاستسقى ، وحوّل رداءه ، ثم صلّى ركعتين »[2] .

ودلّ قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ ، و ﴿ ولاتعثوا ﴾ ، على إباحة النّعم وتعدادها ، والنهي عن المعاصي والإنذار بعقوبتها وأضرارها .

---

(١) تفسير الرازي : ٣/٩١ ـ ٩٢

(٢) تفسير القرطبي : ١/٤١٨

مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

الإعراب :

﴿ يخرج ﴾ فعل متعدٍ إلى مفعول واحد ، وهو محذوف ، وتقديره : يخرج لنا مأكولاً . ﴿ من ﴾ للبيان بدل من ﴿ مما ﴾ . ﴿ مصْراً ﴾ صرفه إما لأنه أراد به مصراً من الأمصار ، لامصر بعينها ، أو لأنه اسم البلد وهو مذكر ، أو لأنه ـ وإن كان مؤنثاً معرفة ـ على ثلاثة أحرف أوسطها ساكن ، فجاز أن تصرف كهند ودعد وجُمْل ونوح ولوط .

البلاغة :

﴿ طعام واحد ﴾ أراد بالواحد : مالا يختلف ولا يتبدل . ﴿ مما تنبت ﴾ أضاف الإنبات إلى الأرض على سبيل المجاز العقلي ، وعلاقته السببية ؛ لأن الأرض سبب للنبات . ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ استعارة بالكناية عن إحاطتها بهم ، كما تحيط القبة بمن تحتها . ﴿ بغير الحق ﴾ زيادة في التشنيع على قبح العدوان .

والقائل في قوله تعالى : ﴿ قال : أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾ هو موسى نفسه ، والاستفهام للإنكار ، والجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ فقيل : قال .

المفردات اللغوية :

﴿ بقلها ﴾ البقل : كل ماأخضرت به الأرض من البقول والخضروات . ﴿ القثّاء ﴾ هو الخيار

المعروف . ﴿ الفوم ﴾ الثوم ، بدليل قراءة ابن مسعود : « وثومها » ، ولاقتران البصل بعده . ﴿ أدنى ﴾ أقل مرتبة ، إما من الدُّنو : وهو القرب ، أو من الدُّون ، كما تقول : هذا دون ذاك ، أي أقل مقداراً ، والدُّنو والقرب يعبر بها عن قلة المقدار . ﴿ مصراً ﴾ بلداً من البلدان الزراعية . ﴿ ضربت عليهم ﴾ جعلت ووضعت عليهم . ﴿ الذِّلّة ﴾ الذّل والهوان . ﴿ المسكنة ﴾ الفقر والحاجة . ﴿ وباؤوا بغضب ﴾ رجعوا متلبسين به . ﴿ ذلك ﴾ أي الضرب والغضب . ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم فالباء سببية . ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام . ﴿ بغير الحق ﴾ أي ظلماً . ﴿ يعتدون ﴾ يتجاوزون الحدّ في المعاصي . وكرر ﴿ ذلك ﴾ للتأكيد ، وقصد بالتكرار التعليل ، وهو ردّ إلى علة الجزاء وتأكيد للإشارة إليه ، والباء في ﴿ بما ﴾ باء السبب ، أي بعصيانهم ، والعصيان : خلاف الطاعة ، والاعتداء : تجاوز الحدّ في كل شيء .

التفسير والبيان :

واذكروا أيها اليهود إذ قال أسلافكم من قبل : يا موسى ، لا يمكن أن نستمر على طعام واحد ، وهو المنّ والسلوى ـ ومخاطبة اليهود المعاصرين مع أن الجناية من آبائهم دليل على مبدأ تكافل الأمة الواحدة ـ فاطلب لنا من ربك أن يطعمنا مما تنبت الأرض من أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها ، وإنما سألوه الدعاء ، لعلمهم أن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم .

فقال موسى متعجباً وموبخاً مستنكراً : أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وأهنأ ، وهو المنّ والسلوى ، الأول فيه الحلاوة المألوفة ، والثاني أطيب لحوم الطير ، وهما غذاء كامل لذيذ ؟ وإذ طلبتم الأدون نفعاً وخيراً ، فاهبطوا وانزلوا من التّيه[1] واسكنوا في أي بلد زراعي ، فإن لكم فيه ما طلبتم . وقد كنّوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد ، وهما اثنان ؛ لتكرارهما في كل يوم غذاء ، كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته ذلك .

---

(١) بلاد التّيه : مابين بيت المقدس إلى قنّسرين ، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ .

لكن الله تعالى عاقبهم على كفران تلك النعم ، وعلى الاستهزاء بآيات الله التي آتاها موسى وهي معجزاته الباهرة ، وعلى قتلهم الأنبياء ظلماً ، فهم قتلوا أشعيا وزكريا ويحيى وغيرهم بغير مسوغ للقتل ، وكانت عقوبتهم إلحاق الذّل والهوان بهم في الدنيا ، ذلاً وهواناً ملازماً لهم ومحيطاً بهم ، كما تحيط الخيمة بمن فيها ، والذليل عادة يستخذي ويستهين ، ثم استحقاق غضب الله وبلائه ونقمته في الدنيا وعذابه الأليم في الآخرة .

وكان ذلك العقاب بسبب عصيانهم أوامر ربهم عصياناً متكرراً ، وتعديهم حدود دينهم ، واعتدائهم على الناس ومنهم الأنبياء ، فعلة جزائهم أمران : أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، والعصيان : فعل المناهي ، والاعتداء : المجاوزة في حدّ المأذون فيه والمأمور به .

وضرب الذّلة والمسكنة أي الذّل والفقر والحاجة على اليهود ، وإن كانوا ذوي مال ، أمر قائم على أساس الشعور الذاتي النابع من أعماق النفس ، فهم في فقر دائم وذلّ مستمر ، وقد ورثوا صفات الذّل وضعف النّفس وامتهانها وحقارة التصرفات ودناءة الأخلاق ، فلا يكادون يحسون بغنى النفس وعزتها ، ولا تشبع نفوسهم ، ولا ترتوي من شيء ، وتظل أطماعهم وأحقادهم مسيطرة عليهم ، حتى إنهم يعبدون المادة ، ويؤلهون المال ، وذلك كله بسبب إحساسهم الداخلي بالاستزادة من الأموال .

وقيام دولة لليهود أيضاً لا يصادم هذه الآية التي تقرر إلحاق الذّل والهوان بهم ؛ لأن مقومات الدولة الحقيقية غير متوافرة لهم ، وهم في أمسّ الحاجة دائماً إلى الشعور بالطمأنينة والاستقرار ، مما أحوجهم إلى الدعم المستمر غير المتناهي اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، من الدول الكبرى ، وعلى رأسها أمريكا .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن ترك الأفضل من المطعومات وهو المنّ والسلوى ، وطلب الأدنى مرتبة منه من بصل وثوم وعدس وخيار ونحوها ، دليل على أن النفس البشرية قد تبدل الطيب بالخبيث ، والأرقى بالأدنى . قال الحسن البصري : كان اليهود نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرهم[1] عِكر السّوء ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليهم عادتهم ، فقالوا : ﴿ لنْ نصبرَ على طعام واحدٍ ﴾[2] . وقولهم : ﴿ لن نصبر ﴾ يدلّ على كراهتهم ذلك الطعام . وعدم الشكر على النعمة دليل الزوال ، فكأنهم طلبوا زوالها ومجيء غيرها .

أما أكل البصل والثوم وماله رائحة كريهة من سائر البقول ، فهو مباح في رأي جمهور العلماء ، للأحاديث الثابتة فيه ، لكن ينبغي على الآكل أن يتجنب حضور أماكن التجمع في المساجد ونحوها ، لئلا يتأذى الناس بالروائح الكريهة . روى أبو سعيد الخدري عن النّبي ﷺ حين أكلوا الثوم زمن خيبر وفتحها : « أيها الناس ، إنه ليس لي تحريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها » .

ودلّت الآية على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات ، وكان النّبي ﷺ يحب الحلوى والعسل ، ويشرب الماء البارد العذب .

وإن الجزاء الذي أنزله الله باليهود من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم ، حق وعدل ومطابق لجرائمهم ، وهي الاستكبار عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم ، حتى إنهم قتلوهم ظلماً وعدواناً بغير حق ؛ لأن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به ، فلم يأت نبي

---

(١) العكر : الأصل ، وقيل : العادة والديدن . والعَكَر (بالتحريك) : دَرْدي كل شيء .

(٢) تفسير القرطبي : ٤٢٢/١

قط بشيء يوجب قتله ، فصرّح تعالى بقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ على شناعة الذنب ووضوحه .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة : رجل قتله نبي ، أو قتل نبياً ، وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين » أي بالتمثيل بالقتلى .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟ أجيب ذلك كرامة لهم ، وزيادة في منازلهم ، كمثل من يُقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بِخذْلان لهم . قال ابن عباس والحسن البصري : لم يُقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلّ من أمر بقتال نُصِر .

عاقبة المؤمنين بنحو عام

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

الإعراب :

﴿ من ﴾ إما مرفوعة أو منصوبة ، فالرفع على أن ﴿ من ﴾ شرطية مبتدأ ، و ﴿ فلهم ﴾ جواب الشرط ، وخبر المبتدأ ، والجملة خبر ﴿ إن ﴾ والنصب على أنها بدل من ﴿ الذين ﴾ فيبطل معنى الشرط ، وتكون الفاء في ﴿ فلهم ﴾ داخلةً لجواب الإبهام ، ويقصد بها التأكيد ، مثل قولك : « الذي يأتيني فله درهم » وتأكيد الشيء لا يغير معناه .

وروعي في ضمير « آمن ، وعمل » لفظ ﴿ من ﴾ وفيما بعده : ﴿ عند ربهم .. ﴾ معناها ، وهي تقع على الواحد والتثنية والجمع ، فجاز رجوع الضمير إليها .

المفردات اللغوية :

﴿ هادوا ﴾ تهودوا ، من هاد : إذا دخل في اليهودية . ﴿ والذين هادوا ﴾ هم اليهود ﴿ والنصارى ﴾ أتباع عيسى عليه السلام[١] ﴿ والصابئين ﴾ طائفة من اليهود أو النصارى عبدوا الملائكة أو الكواكب[٢] . ﴿ من آمن ﴾ منهم ﴿ بالله واليوم الآخر ﴾ في زمن نبينا ﴿ وعمل صالحاً ﴾ بشريعته ﴿ فلهم أجرهم ﴾ ثواب أعمالهم .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي ، وكان من أهل جندسابور من أشرافهم[٣] . وأخرج ابن أبي حاتم والعدني في مسنده عن مجاهد قال : سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادُوا ﴾ الآية[٤] . وأخرج الواحدي عن مجاهد قال : لما قص سلمان على رسول الله ﷺ قصة أصحابه قال : هم في النار . قال سلمان : فأظلمت عليَّ الأرض ، فنزلت ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ إلى قوله : ﴿ يحزنون ﴾ قال : فكأنما كشف عني جبل[٥] .

المناسبة :

اتبع الأسلوب القرآني منهج التذكير في ثنايا بيان القصة القرآنية ، وفتح باب الأمل لدفع اليأس والقنوط أثناء توضيح الأسباب الموجبة للعقاب ، للفت النظر وجذب الانتباه ، وهكذا كان الأمر هنا ، فبعد أن ذكّر الله اليهود بأفعال أسلافهم قديماً ، وأوضح مصيرهم وجزاءهم ، ليعتبر المعاصرون ، أورد مبدأ عاماً

---

(١) سموا بالنصارى نسبة إلى قرية في فلسطين يقال لها : ناصرة ، وكان عيسى بن مريم ينزلها .

(٢) قال الطبري : والصابؤن جمع صابئ ، وهو المستحدث سوى دينه ديناً كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه ، وكل من خرج من دين إلى آخر يسمى صابئاً .

(٣) تفسير الطبري : ٢٥٤/١ ، وهذا ماأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي .

(٤) أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين : ص ١٤

(٥) أسباب النزول للواحدي : ص ١٣ وما بعدها .

لكل المؤمنين : وهو أن كل مؤمن بالله واليوم الآخر تمسك بجبل الدين المتين ، وعمل صالحاً ، فهو من الفائزين ، سواء أكان من المسلمين أم من اليهود ، أم من النصارى أم من الذين تركوا دينهم مطلقاً وأسلموا ، قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا : إن يَنْتَهوا يُغْفَرْ لهم ماقد سَلَفَ ﴾ [الأنفال ٣٨/٨] .

التفسير والبيان :

إن المصدقين رسول الله ﷺ فيما أتى به من عند الله ، والذين تهودوا أو تنصروا ، أو بدلوا دينهم ، وآمنوا بالله وحده لاشريك له ، وبالبعث والنشور ، وعملوا صالح الأعمال ، فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم ، ولا خوف عليهم من أهوال القيامة ، ولا هم يحزنون على ماتركوا من الدنيا وزينتها ، إذا عاينوا النعيم الدائم في الجنة .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن مدار الفوز والنجاة هو الإيمان الصحيح المقترن بالعمل الصالح .

وليست هذه الآية منسوخة ، وإنما هي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي عليه السلام .

ولا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل الكتاب ، ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم ، كما تقرر في سورة المائدة (الآية : ٥) وفرض الجزية عليهم ، كما أوضحت سورة براءة (الآية ٢٩) واختلف في الصابئين :

فقال جماعة (السدي واسحاق بن رَاهَوَيْه وأبو حنيفة) : لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم .

وقال آخرون (مجاهد والحسن البصري وابن أبي نَجيح) : لاتؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

والحاصل : أن الصابئة قوم موحدون معتقدون تأثير النجوم ، وأنها فعّالة[1] .

بعض جرائم اليهود وعقابهم

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ خذوا ماآتيناكم ﴾ فيه محذوف ، تقديره : قلنا لهم : خذوا ماآتيناكم ، وحذف القول كثير في كلامهم .

﴿ ميثاقكم ﴾ ولم يقل « مواثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم مثل ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ [غافر ٦٧/٤٠] أي يخرج كل واحد منكم طفلاً .

﴿ فلولا فضل الله .. ﴾ لولا : حرف يمتنع له الشيء لوجود غيره ، تقول : لولا زيد لأكرمتك ، فيكون امتناع الإكرام وجود زيد . فضل : مبتدأ مرفوع ، وخبره محذوف تقديره : موجود أو كائن .

﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ أمر تكوين ، لاأمر تكليف ، والمراد به تكوّنهم قردة . وقردة : خبر كان . وخاسئين : إما صفة لقردة ، أو خبر بعد خبر ، أو حال من الضمير في : كونوا .

---

(١) تفسير القرطبي : ٤٣٤/١ ـ ٤٣٥

﴿ فجعلناها نكالاً ﴾ الضمير في الفعل يعود إما على المَسخَة أو يعود على القردة .

وكذلك « ها » في قوله ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾ . ونكالاً : مفعول به ثانٍ .

﴿ أتتخذنا هزواً ﴾ أي ذوي هُزْء ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، ويجوز أن يكون التقدير : أتتخذنا مهزوءاً بهم .

البلاغة :

﴿ خذوا ﴾ فيه إيجاز بالحذف كما بينا ، أي قلنا لهم : خذوا .

﴿ كونوا قردة ﴾ ليس الأمر على حقيقته ، وإنما أريد به معنى الإهانة والتحقير ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾ كناية عمن أتى قبلها أو بعدها من الخلائق .

المفردات اللغوية :

﴿ ميثاقكم ﴾ الميثاق : العهد المؤكد ، ويراد به هنا : العهد بالعمل بما في التوراة ﴿ الطور ﴾ الجبل المعروف في شمال فلسطين ﴿ بقوة ﴾ بجد ونشاط ﴿ واذكروا مافيه ﴾ بالعمل به ﴿ تتقون ﴾ النار أو المعاصي ﴿ توليتم ﴾ أعرضتم .

﴿ اعتدوا ﴾ تجاوزوا الحد ﴿ السبت ﴾ اليوم المعروف ، وقد نهاهم الله عن صيد السمك فيه ، وهم أهل أيلة وهي القرية التي كانت حاضرة البحر . ﴿ خاسئين ﴾ بعيدين عن رحمة الله ، وقد هلكوا بعد ثلاثة أيام .

فجعلناها ﴿ نكالاً ﴾ أي تلك العقوبة عبرة تنكل من اعتبر بها ، أي تمنعه من ارتكاب مثل ماعملوا . ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾ أي الأمم التي في زمانها أو بعدها ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ خص المتقون بالذكر ؛ لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم . والمتقون : الذين اتقوا بأداء فرائض الله واجتناب معاصيه .

المناسبة :

كانت الآيات السابقة تذكيراً لبني إسرائيل بالنعم الجليلة ، وأما هذه الآيات فهي تنديد بالمخالفات والمعاصي التي ارتكبوها ، فإنهم نقضوا الميثاق أو العهد مع الله ، وتجاوزوا النهي الإلهي في السبت ، فأصبحوا كالقردة مبعدين عن رحمة الله والناس . وإذا كان هذا في بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام ،

فأجدر بسلائلهم الذين كانوا في عصر تنزيل القرآن ألا يجحدوا نبوة محمد ﷺ ، خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأسلافهم .

التفسير والبيان :

واذكروا يابني إسرائيل وقت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما في التوراة ، فرفضوا حتى رفع الله فوقهم الطور تخويفاً وإرهاباً ، وأمرهم أن يأخذوا بما فيها بجد ونشاط ومواظبة على العمل ، واذكروا ما في التوراة واعملوا بما فيها من الأحكام ، وتدبروا معانيها حتى تكونوا من المتقين ؛ لأن العلم يرشد إلى العمل ، والعمل يرسخ العلم في النفس ، ويطبع فيها سجية المراقبة لله ، وبها تصير تقية تتقي المعاصي ، نقية من الرذائل ، مرضية عند ربها ، كما قال تعالى : ﴿ والعاقبةُ للتقْوى ﴾ [طه ١٣٢/٢٠] .

فقبلتم إلى حين ، ثم أعرضتم بعد ذلك عن الطاعة ، فلولا رحمة الله ولطفه بكم وإمهاله إياكم ، إذ لم يعجل عقوبتكم بما تستحقون ، لكنتم من الهالكين الخاسرين سعادتي الدنيا والآخرة .

ولقد علمتم شأن أبائكم الذين تجاوزوا الحد بصيد السمك يوم السبت ، وكان محرماً فيه لقصره على العبادة ، فإن موسى عليه السلام حظر عليهم العمل في هذا اليوم ، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم ، وأباح لهم العمل في بقية أيام الأسبوع .

وكان جزاؤهم أنهم أصبحوا في مرتبة الحيوان ، يعيشون من دون عقل ووعي وتفكير ، ويتخبطون في أهوائهم ، كالقردة في نزواتها ، والخنازير في شهواتها ، يأتون المنكرات علانية ، بعيدين عن الفضائل الإنسانية ، حتى احتقرهم الناس ؛ ولم يروهم أهلاً للمعاشرة والمعاملة .

فمعنى صيرورتهم قردة خاسئين : تصييرهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين .

قال مجاهد : لم يمسخوا قردة ، ولم تمسخ صورهم ، وإنما مسخت قلوبهم ، فلا تقبل وعظاً ، ولا تعي زجراً . وهو مثل ضربه الله لهم ، كما مثّلوا بالحمار يحمل أسفاراً ، في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلوا التوراة ، ثم لم يَحْمِلُوها ، كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة ٥/٦٢][1] .

ورأى جمهور المفسرين : أن صورهم مسخت بمعصيتهم ، فصارت صور القردة ، قال قتادة : صار الشبان قردة ، والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نَهَوْا ، وهلك سائرهم .

والممسوخ لا يَنْسُل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام . وكذلك يفعل الله بمن شاء كما يشاء ، ويحوله كما يشاء[2] .

وللآية نظير آخر ، هو قوله تعالى : ﴿ وجَعَلَ منهم القِرَدةَ والخنازيرَ وعَبَدَ الطاغوتَ ﴾ أي الشيطان [المائدة ٦٠/٥] .

قال ابن كثير : والصحيح أن المسخ معنوي صوري ، والله تعالى أعلم[3] .

وعلى أي حال فإن الله تعالى عاقب بني إسرائيل بعقوبة المسخ ، أياً كان نوعه وهو عقاب لكل فاسق خارج عن طاعة الله ، وعبرة لينكّل من يعلم بها ، أي يمتنع من الاعتداء على حدود الله ، وهو أيضاً عظة للمتقين ؛ لأن المتقي الحقيقي يتعظ بها ويبتعد عن حدود الله : ﴿ تلك حدودُ اللهِ فلا تَقْرَبُوها ﴾ [البقرة ١٨٧/٢] فأولى بكم أيها اليهود المعاصرون أن تتعظوا بما حل بأسلافكم .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت هذه الآيات على أمور ثلاثة : رفع الطور ، والمسخ ، وعظة العصاة

---

(١) تفسير الطبري : ٢٦٣/١

(٢) المصدر السابق : ٢٦١/١ ، تفسير القرطبي : ٤٤٠/١ ـ ٤٤٣

(٣) تفسير ابن كثير : ١٠٦/١ ـ ١٠٧

المخالفين أوامر الله ونواهيه .

أما رفع جبل الطور فوق اليهود كالمظلة : فكان إنذاراً وإرهاباً وتخويفاً ، وهذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : ﴿ وإذ نَتَقْنَا الجَبَلَ فوقَهم كأنه ظُلَّة ﴾ [الأعراف ١٧١/٧] قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه .

واختلف في الطور : فقيل عن ابن عباس : الطور : اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره . وقال مجاهد وقتادة : أي جبل كان .

وسبب رفع الطور : أن موسى عليه السلام لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة ، قال لهم : خذوها والتزموها ، فقالوا : لا ! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ثم أُحْيُوا ، فقال لهم : خذوها ، فقالوا : لا . فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ[1] في مثله ، وكذلك كان عسكرهم ؛ فجعل عليهم مثل الظُّلة ، وأتوا ببحر من خَلْفهم ، ونار من قبل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبةً لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق[2] . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً ، فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورحم بها عباده ، فجعلوا سجودهم على شق واحد .

قال ابن عطية : والذي لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان في قلوبهم ، لا أنهم آمنوا كرهاً ، وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

---

(١) الفرسخ : ٣ أميال أو ٥٥٤٤ م أو ١٢٠٠٠ خطوة .

(٢) تفسير الطبري : ٢٥٧/١

وروي عن مجاهد سبب آخر لرفع الطور قال : أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجداً ، ويقولوا : حطة ، وطوطئ لهم الباب ليسجدوا ، فلم يسجدوا ، ودخلوا على أدبارهم ، وقالوا : حنطة ، فنتق فوقهم الجبل[1] .

وأما المسخ : فرأى الجمهور أن الله تعالى مسخ المعتدين من اليهود بصيد السمك يوم السبت ، وكان العمل فيه محرماً من قبل موسى عليه السلام ، قال قتادة : صار الشبان قردة ، والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نَهَوْا ـ وهي الفرقة التي نهت اليهود عن المخالفة وجاهرت بالنهي واعتزلت ـ وهلك سائرهم .

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية : أنه إنما مُسِخَتْ قلوبهم فقط ، ورُدَّتْ أفهامهم كأفهام القردة .

وأما عظة المخالفين : فإن الله تعالى جعل عقوبة المسخ للعصاة الذين اعتدوا في السبت وصادوا السمك فيه بحيلة ، وقد ذكرها الله تعالى في سورة [الأعراف ١٦٣/٧] وهي قوله سبحانه : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانتْ حاضرة البحر ، إذ يَعْدون في السبتِ ، إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سَبْتهم شُرَّعاً ، ويَوْمَ لا يَسْبتون لا تأتيهم ، كذلك نَبْلُوهم بما كانوا يَفْسقون ﴾ أي إنهم اتخذوا حواجز أو أحواضاً أمام مَدّ مياه البحر ، فإذا رجعت المياه بالجزر ، بقيت الأسماك محجوزة في الأحواض ، فيأتون في صبيحة يوم الأحد ويأخذونها .

كذلك كانت عقوبة اليهود الذين امتنعوا من العمل بالتوراة ، فنسوها وضيعوها ، ولم يتدبروها ولم يحفظوا أوامرها ووعيدها ، كانت عقوبتهم رفع جبل الطور فوقهم كالمظلة .

وهذا يدل على أن المقصود بالكتب السماوية العمل بمقتضاها ، لا تلاوتها باللسان وترتيلها ، فإن ذلك نَبْذٌ لها .

---

(١) المرجع والمكان السابق .

وهذا يعني أن مجرد التغني بألفاظ القرآن ، دون الاعتبار بعظاته ، والعمل بأحكامه ، لا يفيد شيئاً . روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن من شرّ الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن ، لا يَرْعوي إلى شيء منه » فبين ﷺ أن المقصود بالكتب الإلهية العمل بها ، كما بينا .

قصة ذبح البقرة

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ۙ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

الإعراب :

﴿ لافارض ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : لاهي فارض ، أو صفة بقرة . و ﴿ بكر ﴾ عطف عليه في الوجهين ، وهذان الوجهان في قوله : ﴿ عوان ﴾ وقال : ﴿ بين ذلك ﴾ ولم يقل: بين ذينك : لأنه أراد بين هذا المذكور . ﴿ ماتؤمرون ﴾ أي تؤمرون به ، مثل ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ [الحجر ١٥/٩٤] أي بالذي تؤمر به .

﴿ مالونها ﴾ ما : مبتدأ و « لونها » خبره ، ويجوز العكس . ﴿ صفراء ﴾ صفة لبقرة ﴿ لونها ﴾ مرفوع بفاقع ، ارتفاع الفاعل بفعله . ويجوز كونه مستأنفاً مبتدأ ، وخبره : ﴿ تسر الناظرين ﴾ وجاز جعل الخبر ﴿ تسر ﴾ بلفظ التأنيث ، إما لأن اللون بمعنى الصفرة أي صفرتها تسر ، والحمل على المعنى كثير في كلامهم ، وإما لأنه أضيف اللون إلى مؤنث ، والمضاف يكتسب من المضاف إليه التأنيث ، كقراءة « تلتقطه بعض السيَّارة » وقد قالوا : ذهبت بعض أصابعه .

﴿ لاذلول ﴾ إما صفة بقرة ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : لاهي ذلول ، وهذان الوجهان في قوله : ﴿ مسلّمة ﴾ وكذلك في قوله : ﴿ لاشية فيها ﴾ إلا أنه يكون خبراً ثانياً لـ « هي » المقدرة ، والهاء في « شية » عوض عن الواو ، وأصله : وشي .

﴿ الآن ﴾ ظرف زمان للوقت الحاضر ، وهو مبني .

﴿ كذلك ﴾ الكاف الأولى كاف تشبيه في موضع نصب ؛ لأنها صفة مصدر محذوف ، وتقديره : يحيي الله الموتى إحياء مثل ذلك .

﴿ بغافل ﴾ في موضع نصب على لغة الحجازيين ، وفي موضع رفع على لغة تميم .

البلاغة :

﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف المطلوبة ووجدوها ، فلما اهتدوا إليها ذبحوها .

﴿ والله مخرج ماكنتم تكتمون ﴾ جملة اعتراضية بين قوله : ﴿ فادّارأتم ﴾ وقوله ﴿ فقلنا اضربوه ﴾ . وفائدة الاعتراض إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي حتماً .

﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ استعارة تصريحية ، وصف القلوب بالصلابة والغلظ ، وأريد منه : نبوُّها

عن الاعتبار وعدم الالتفات ﴿ فهي كالحجارة ﴾ تشبيه مرسل مجمل ؛ لأن أداة الشبه مذكورة ، ووجه الشبه محذوف .

﴿ لما يتفجر منه الأنهار ﴾ مجاز مرسل أي ماء الأنهار من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال فيه .

المفردات اللغوية :

﴿ هزواً ﴾ : مهزوءاً بنا أو سخرية ، حيث تطلب منا ذبح بقرة . ﴿ أعوذ ﴾ أمتنع ﴿ الجاهلين ﴾ المستهزئين في موضع الجد .

﴿ لافارض ﴾ مسنة . ﴿ ولا بكر ﴾ فتية صغيرة ﴿ عوان ﴾ نَصَف بين الصغيرة والكبيرة ﴿ بين ذلك ﴾ المذكور من السنين ﴿ ماتؤمرون ﴾ به من ذبحها .

﴿ فاقع لونها ﴾ شديدة الصفرة ﴿ تسر الناظرين ﴾ إليها بحسنها ، أي تعجبهم .

﴿ ماهي ﴾ أسائمة أم عاملة ﴿ إن البقر ﴾ جنسه المنعوت بما ذكر ﴿ تشابه علينا ﴾ لكثرته ، فلم نهتد إلى المقصود ﴿ إن شاء الله لمهتدون ﴾ إليها ، ورد في الحديث النبوي : « لو لم يستثنوا ـ أي يقولوا : إن شاء الله ـ لما بينت لهم آخر الأبد » .

﴿ لاذلول ﴾ ليست مذللة بالعمل . ﴿ تثير الأرض ﴾ تقلبها للزراعة أي تحرث الأرض والجملة صفة ذلول ، داخلة في النفي ﴿ ولا تسقي الحرث ﴾ الأرض المهيأة للزراعة ﴿ مسلّمة ﴾ سليمة من العيوب وآثار العمل ﴿ لاشية ﴾ لالون غير لونها ، ولا لمعة فيها من لون آخر ، سوى الصفرة ، فهي صفراء كلها ، حتى قرنها وظلفها ، وهي في الأصل مصدر : وشى وشياً : إذا خلط بلونه لوناً آخر . ﴿ قالوا : الآن جئت بالحق ﴾ نطقت بالبيان التام ، فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه ، فاشتروها بملء جلدها ذهباً ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ لغلاء ثمنها ، ورد في الحديث النبوي : « لو ذبحوا أي بقرة كانت ، لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم » .

﴿ فادارأتم ﴾ تدارأتم بمعنى تخاصمتم وتدافعتم ﴿ والله مخرج ﴾ مظهر ﴿ تكتمون ﴾ من أمرها .

﴿ اضربوه ﴾ القتيل . ﴿ ببعضها ﴾ فضرب بلسانها أو عجب ذنبها ، فحي وقال : قتلني فلان وفلان وكانا ابني عمه ، فحرما الميراث وقتلا . ﴿ تعقلون ﴾ تتدبرون فتعلمون أن القادر على إحياء نفس واحدة ، قادر على إحياء نفوس كثيرة فتؤمنون .

المناسبة :

ترتبط هذه الآيات بما قبلها التي ذكر فيها بعض جرائم اليهود ، من نقض الميثاق ، والاعتداء في السبت ، والتمرد في تطبيق التوراة ، فهي استمرار في تعداد مساوئهم ، وهي مخالفتهم الأنبياء ومعاندة الرسل عليهم السلام ، والتلكؤ في امتثال أوامر الله تعالى .

سبب القصة :

روى ابن أبي حاتم عن عَبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ، ثم احتمله ليلاً ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض .

فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى : علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام ، فذكروا ذلك له ، فقال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا ، فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها .

فقال : والله ، لأنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدها ذهباً ، فذبحوها ، فضربوه ببعضها ، فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا ـ لابن أخيه ، ثم مال ميتاً ، فلم يُعْط من ماله شيئاً ، فلم يورث قاتل بعد[1] ، وفي رواية : « فأخذوا الغلام فقتلوه » .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٠٨/١

التفسير والبيان :

واذكروا أيها اليهود وقت قول موسى لقومه أسلافكم : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ أي بقرة كانت ، فلم يمتثلوا ، وشددوا ، فشدد الله عليهم . وقالوا : أتهزأ بنا ياموسى ، نسألك عن أمر القتل ، فتأمرنا بذبح بقرة ! قال : ألتجئ إلى الله من الهزء والسخرية بالناس في موضع الجد ، إذ هو في مقام تبليغ أحكام الله دليلٌ السفه والجهل .

فلما رأوه جاداً ، سألوه عن صفاتها المميزة لها ، وأكثروا من الأسئلة ، فسألوه عن سنها ، فقال لهم : إنها ليست صغيرة ولا كبيرة ، بل وسط بين الأمرين ، فامتثلوا الأمر ، ولا تشدّدوا فيشدد الله عليكم .

ولكنهم تعنتوا ، فسألوه عن لونها ، فقال : إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظر إليها ، فلم يكتفوا بذلك ، بل طالبوا بأوصاف مميزة أخرى ، وقالوا معتذرين : إن البقر كثير متشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى المطلوب ، روي أنه ﷺ قال : « لو لم يستثنوا ويقولوا : إن شاء الله ، لما تبينت لهم آخر الأبد » .

قال : إن الله يقول : إنها بقرة لم تذلل بالعمل في الحراثة والسقي ، وهي سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

قالوا : إنك الآن جئت بإظهار الحقيقة الواضحة . فطلبوها ، فلم يجدوها إلا عند يتيم صغير بارٍ بأمه ، فساوموه ، فتغالى ، حتى اشتروها بملء جلدها ذهباً . وما كان امتثالهم قريب الحصول . قال ابن عباس : « لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم » .

واذكروا أيها اليهود المعاصرون حين قتلتم نفساً ، وهذا من قبيل التأخير لفظاً والتقديم معنى للتشويق في معرفة سبب ذبح البقرة ، وأسند القتل إلى

المعاصرين للنبي ﷺ ؛ لأنهم من سلالة السابقين ، وهم معتزون بنسبهم ، راضون بفعلهم . وكذلك أسند القتل إلى الأمة والقاتل واحد ؛ لأن الأمة متضامنة ، وهي في مجموعها كالشخص الواحد ، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين ، والجماعة والأفراد .

واذكروا حادثة القتل في تاريخكم ، وتخاصمكم وتدافعكم في شأنه ، فكل واحد يدرأ القتل عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم سواه ، والله أنكر فعلهم وكتمانهم ، وأنتم اليوم تكتمون ماعندكم من أوصاف النبي ﷺ ، والله مظهر لا محالة ماتكتمونه وتسترونه من أمر القتل ، فقلنا : اضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة المذبوحة ، فضربوه ، فأحياه الله ، وأخبر عن القتلة . ومثل ذلك الإحياء العجيب ، يحيي الله الموتى يوم القيامة ، فيجازي كل إنسان بعمله ، وكذلك يريكم الله آياته الواضحة الدالة على صدق القرآن والنبي ، حيث يخبر بالمغيبات ، كي تعقلوا وتؤمنوا بالنبي والقرآن ، لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه القصة فيها العبرة والعظة ببيان بعض مساوئ اليهود ومواقفهم المتشددة والمعاندة ، وأهم العظات ما يلي :

١ ـ ليس التشدد في الدين محموداً ، وليس الإلحاف في كثرة السؤال مرغوباً فيه ، لذا نهانا الله تعالى عن ذلك وقت نزول القرآن ، بقوله : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ، لاتَسْألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة ١٠١/٥] وقوله ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص : « إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْماً : من سأل عن شيء لم يحرَّم على المسلمين ، فحُرِّم عليهم من أجل مسألته » وقوله عليه السلام فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما

أمرتكم به ، فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم ، واختلافُهم على أنبيائهم » وقوله أيضاً فيما رواه البخاري ومسلم : « ... وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » والسؤال المنهيُ عنه : مثل السؤال عما أخفاه الله تعالى عن عباده ولم يطلعهم عليه ، كالسؤال عن قيام الساعة ، وعن حقيقة الروح ، وعن سر القضاء والقدر ، والسؤال على سبيل التعنت والعبث والاستهزاء ، وسؤال المعجزات، وطلب خوارق العادات عناداً وتعنتاً ، والسؤال عن الأغاليط ، والسؤال عما لا يحتاج إليه ، وليس في الجواب عنه فائدة عملية ، والسؤال عما سكت عنه الشرع من الحلال والحرام .

وقد سجل الله على اليهود ذنب الوقوف في السؤال موقف المستهزئ المعاند المجادل المتشدد المنكر الحق الصريح .

٢ ـ كان الأمر بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان ؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ، ليهون عندهم أمر تعظيمه .

٣ ـ استهزاؤهم بأوامر الأنبياء عرَّضهم للوم والتوبيخ والعقاب .

٤ ـ إحياء القتيل بقتل حي أظهر لقدرته تعالى في اختراع الأشياء من أضدادها . وقد ذكر الله تعالى إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع : في قوله تعالى : ﴿ ثم بَعَثْنَاكم من بعد مَوْتِكم ﴾ ، وفي هذه القصة : ﴿ فقلنا : اضربوه ببعضها ﴾ وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهو ألوف : ﴿ فقال لهم الله : موتوا ثم أحياهم ﴾ [البقرة ٢٤٣/٢] . وفي قصة عُزير : ﴿ فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه ﴾ [البقرة ٢٥٩/٢] وفي قصة إبراهيم : ﴿ ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى ﴾ [البقرة ٢٦٠/٢] .

٥ ـ الإنكار الشديد على قتل النفس البريئة ، وإنما أخره بالذكر عن ذكر موقفهم الاستهزائي العنادي ، اهتماماً واستهجاناً وتقريعاً لموقف العناد ، وتشويقاً

إلى معرفة سبب ذبح البقرة ، وهذا الموقف ديدن اليهود وطبيعتهم التي لا تفارقهم . والكتاب الكريم لا يراعي ترتيب المؤرخين في سرد الأحداث والوقائع ، وإنما يذكر الكلام بما يتفق مع هدفه : وهي العظة والعبرة ، واجتذاب الأنظار وإثارة الانتباه .

٦ ـ ليس هناك أشد استهجاناً وغرابة من جعل الحجارة أنفع من قلوب اليهود ، لخروج الماء منها ، قال مجاهد : ماتردّى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ، نزل بذلك القرآن الكريم . وهذا يعني أن خشية الحجارة هنا حقيقية ، كقوله تعالى : ﴿ وإن من شيءٍ إلا يسبِّح بحمده ﴾ [الإسراء ٤٤/١٧] . وحكى الطبري عن بعض المفسرين : أن خشية الحجارة من باب المجاز والاستعارة ، كما استعيرت الإرادة للجدار ، في قوله تعالى : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ [الكهف ٧٧/١٨][1] .

٧ ـ في قصة البقرة هذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، وبه قال جمهور الأصوليين غير الإمام الشافعي .

٨ ـ استدل الإمام مالك على صحة القول بالقَسَامة[2] بقول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني . ومنعه الشافعي وجمهور العلماء ؛ لأن قول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني ، خبر يحتمل الصدق والكذب .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٨٩/١ ، وانظر تفسير القرطبي أيضاً : ٤٦٥/١

(٢) القسامة : هي خمسون يميناً من خمسين رجلاً ، يقسمها في رأي الحنفية أهل المحلة التي وجد فيها القتيل ويتخيرهم ولي الدم ، لنفي تهمة القتل عن المتهم . وعند الجمهور : يحلفها أولياء القتيل لإثبات تهمة القتل على الجاني .

قسوة قلوب اليهود

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

الإعراب :

﴿ أشد قسوة ﴾ معطوف على قوله : ﴿ كالحجارة ﴾ وهو في موضع رفع لأنه خبر : ﴿ فهي ﴾ . و ﴿ قسوة ﴾ تمييز منصوب ، و ﴿ أو ﴾ بمعنى « بل » .

﴿ لَمَا ﴾ اللام للتوكيد وما : اسم ﴿ إن ﴾ منصوب ، والجار والمجرور : ﴿ منها ﴾ والضمير يعود إلى الحجارة في موضع رفع خبر ﴿ إن ﴾ .

البلاغة :

﴿ ثم قست ﴾ ثم للترتيب مع التراخي ، والتعبير بحرف ﴿ ثم ﴾ يدل على أن قسوة قلوب اليهود بلغت مرتبة بعيدة جداً عن الوضع السليم ﴿ أو أشد قسوة ﴾ أو : بمعنى بل ، أي بل أشد قسوة ، كقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصافات ١٤٧/٣٨] .

قال الزمخشري في الكشاف ٢٢٣/١ : أشد : معطوفة على الكاف في ﴿ كالحجارة ﴾ إما على معنى : أو مثل أشد قسوة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وإما على : أو هي في أنفسها أشد قسوة . والمعنى : إن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً ، أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال : هي أقسى من الحجارة .

المفردات اللغوية :

﴿ قست ﴾ صلبت عن قبول الحق ﴿ من بعد ذلك ﴾ المذكور من إحياء القتيل وما قبله من الآيات ﴿ كالحجارة ﴾ في القسوة ﴿ يتفجر ﴾ يخرج وينبع بكثرة ﴿ يشقق ﴾ أصله : يتشقق ، فأدغم التاء في الشين ، أي يتفتح شقوقاً طولاً أو عرضاً ﴿ يهبط ﴾ ينزل من علو إلى أسفل ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وإنما يؤخركم لوقتكم .

التفسير والبيان :

بالرغم مما رأى اليهود من الآيات والمواعظ السابقة ، كانفجار الماء ورفع الجبل ، والمسخ قردة وخنازير ، وإحياء القتيل ، فإن قلوبهم قست وامتنعت عن قبول الحق ، فهي تشبه في الصلابة الحجارة ، بل أشد قسوة منها ، وأصبحت بفقد تأثرها بالآيات وتفاعلها بالمواعظ والعبر ، كأنها جمادات ، بل إنها تدنت عن درجة الجماد أيضاً : لأن الحجارة قد ينفجر منها الماء ، ويسيل أنهاراً تحيي الأرض وتنفع النبات ، وقد تتشقق فيسيل منها ماء بسيط فيكون عيناً لا نهراً ، وفي هذا منفعة للناس ، وقد تتأثر بالرياح العاتية ، ونحوها من الزلازل ، فتسقط من أعالي الجبال ، فتكسر الصخور وتدمّر الحصون ، وليس في هذا منفعة للناس .

بالرغم من كل تلك المؤثرات والعظات والعبر ، لم يزدد اليهود إلا عناداً وفساداً ، ولكن الله تعالى حافظ لأعمالهم ومحصيها لهم ، ثم يجازيهم بها . وفي هذا غاية التهديد والوعيد ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ عما تعملون ﴾ يشمل كل عمل صغير أو كبير ، ويؤكده قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزال ٨/٩٩] .

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يخلق الله تعالى شيئاً في هذا الوجود عبثاً ، وإنما لفائدة ، ففي الآية دلالة على بعض فوائد الأحجار ونحوها من الجمادات ، وأنها تنصاع لأمر الله ، فإن تمردت فئة من المخلوقات عن الصبغة الإلهية ، وأصبحت عديمة النفع ، لعدم تأثرها بالعظات وعدم قبولها الحق ، فالله يجازيها جزاء وفاقاً ، في الدنيا والآخرة ، فيسلط عليها في الدنيا بعض النقم ، إن لم تحركها النِّعَم ، ويعذبها في نار جهنم في الآخرة ، لإبائها الحق ولعدم طاعتها أوامر الله تعالى .

استبعاد إيمان اليهود

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

الإعراب :

﴿ أن يؤمنوا ﴾ في موضع نصب ؛ لأن التقدير فيه : في أن يؤمنوا لكم . فلما حذف حرف الجر ، اتصل الفعل به ، فنصبه . ﴿ منهم ﴾ إما في موضع رفع صفة لفريق ، وجملة ﴿ يسمعون ﴾ خبر كان ، وإما في موضع نصب خبر كان ، ويسمعون : صفة لفريق . ﴿ وهم يعلمون ﴾ مبتدأ وخبر ، في موضع نصب حال من ضمير « يحرّفون » .

﴿ ليحاجوكم ﴾ لام كي ، تنصب الفعل بتقدير « أن » .

﴿ ومنهم أميون ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم . ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ مرفوع وصف لأميين . ﴿ إلا أماني ﴾ منصوب ؛ لأنه استثناء منقطع من غير الجنس ؛ لأن الأماني ليست من العلم . ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ أي : وما هم إلا يظنون و ﴿ هم ﴾ مبتدأ ، وما بعده خبره . و ﴿ إلا ﴾ أبطلت عمل إن .

البلاغة :

﴿ أفتطمعون ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري . ﴿ وهم يعلمون ﴾ تفيد الجملة الكمال في تقبيح صنيعهم ، وهو تحريف التوراة عن قصد ، لا عن جهل .

﴿ مايسرون وما يعلنون ﴾ طباق بين لفظتي ﴿ يسرون ﴾ و ﴿ يعلنون ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ فريق ﴾ طائفة من أحبارهم ﴿ كلام الله ﴾ التوراة ﴿ يحرفونه ﴾ يغيرونه ويبدلونه ، أو يؤولونه بالباطل ﴿ عقلوه ﴾ فهموه وعرفوه ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم مفترون .

﴿ وإذا لقوا ﴾ أي منافقو اليهود ﴿ وإذا خلا ﴾ رجع ومضى إليه ، أو انفرد معه . ﴿ فتح الله عليكم ﴾ حكم به أو قصه عليكم أو عرفكم في التوراة من نعت محمد ﷺ . ﴿ ليحاجوكم ﴾ ليخاصموكم ويجادلوكم ، واللام للصيرورة ﴿ عند ربكم ﴾ في الآخرة ، أي يقيموا عليكم الحجة في ترك اتباعه مع علمهم بصدقه .

﴿ أو لا يعلمون ﴾ الاستفهام للتقرير ، والواو الداخل عليها للعطف ، ويراد بالاستفهام التوبيخ أو التقريع .

﴿ أميون ﴾ عوام جهلة بكتابهم ﴿ أماني ﴾ أكاذيب تلقوها من رؤسائهم ، فاعتمدوها ، وهي لاتستند إلى دليل عقلي أو نقلي . ﴿ يظنون ﴾ أي ماهم في جحود نبوة النبي وغيره مما يختلقونه إلا يظنون ظناً ولا علم لهم .

سبب النزول :

قال ابن عباس ومقاتل : نزل قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون ﴾ في السبعين الذين اختارهم موسى ، ليذهبوا معه إلى الله تعالى ، فلما ذهبوا معه ، سمعوا كلام الله تعالى وهو يأمر وينهى ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فأما الصادقون فأدّوا ما سمعوا . وقالت طائفة منهم : سمعنا الله من لفظ كلامه يقول : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا ، ولا بأس .

وعند أكثر المفسرين : نزلت الآية في الذين غيروا آية الرجم وصفة محمد ﷺ[1] .

واختلف العلماء بماذا عرف موسى كلام الله ، ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه .

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٥

فقيل : إنه سمع كلاماً ليس بحروف وأصوات ، وليس فيه تقطيع ولا نفس ، فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر ، وإنما هو كلام رب العالمين .

وقيل : إنه لما سمع كلاماً لا من جهة ، وكلام البشر يُسمع من جهة من الجهات الست ، علم أنه ليس من كلام البشر .

وقيل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام ، فعلم أنه كلام الله .

وقيل فيه : إن المعجزة دلت على أن ماسمعه هو كلام الله ، وذلك أنه قيل له : ألق عصاك ، فألقاها فصارت ثعباناً ، فكان ذلك دليلاً على صدق الحال ، وأن الذي يقول له : ﴿ إني أنا ربك ﴾ [طه ١٢/٢٠] هو الله جل وعز[١] .

وسبب نزول الآية (٧٦) : هو ماقاله مجاهد : قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال : ياإخوان القردة ، ويـاإخوان الخنازير ، ويا عبدة الطاغوت ، فقالوا : من أخبر بهذا محمداً ، ماخرج هذا إلا منكم ، أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، ليكون لهم حجة عليكم ، فنزلت الآية .

وقال ابن عباس : كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة . ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا ﴾ : أيحدث العرب بهذا ، فإنكم كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم ، فأنزل الله : ﴿ وإذا لقوا ﴾ الآية .

وقال السدي : نزلت في ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، وكانوا يأتون المؤمنين من العرب ، بما تحدثوا به ، فقال بعضهم : ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله

---

(١) تفسير القرطبي : ٢/٢

عليكم ﴾ من العـــذاب ، ليقـولـوا : نحن أحب إلى الله منكم ، وأكرم على الله منكم[١] .

التفسير والبيان :

خرص النبي ﷺ وصحابته على انضمام أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلى دعوتـه والإيمـان برسالتـه في مواجهـة المشركين ، لوجود جسـور التقـاء معهم من الإيمان بوجود الإله والتصديق بالأنبيـاء وبـالبعث واليوم الآخر . وقـد روي أنهـا نزلت في الأنصـار الـذين كانوا حلفـاء لليهود ، وبينهم جـوار ورضـاعـة ، وكانـوا يودون لو أسلموا ، فأنزل الله : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ .

فجاءت هذه الآيات ، في أثناء بيان قبائح اليهود ، توضح خطاباً للنبي ﷺ والمؤمنين ، مابدد الآمال والأطماع في إيمـان اليهود ؛ لأن منهم جمـاعـة ـ وهم فئـة من الأحبار والرؤساء ـ كانوا يسمعون كلام الله ، ثم يبـدلونـه أو يؤولونـه بحسب أهـوائهم وميـولهم ، وليس الحـاضرون أحسن حـــالاً من الغـابرين ؛ لأنهم ورثـوا الاستكبار من أسلافهم ، وهم يعلمون أن هـذا العمل يتنـافى مع الحقيقـة والواقع ، فكيف تطمعون إذن في إيمان من له سابقة في الضلال ؟!

وسبب آخر يدعو إلى عدم إيمانهم هو أن منافقيهم إذا قـابلوا المؤمنين قـالوا : نحن مؤمنون بـالله وبـالنبي كإيمـانكم ، إذ هـذا النبي هو المبشر بـه عنـدنـا ، فنحن معكم ، وإذا انفردوا مع بعضهم قالوا : كيف تحدثون أتباع محمـد بمـا أنزل الله عليكم في التوراة ؟ كيف تفعلون هـذا ، وهم يحتجون عليكم بكـلامكم ، ويخـاصمـونكم بـه عند ربكم يوم القيامة ؟ أتذيعون أسراركم التي تضركم ؟ فيرد الله عليهم :

ألا يعلمون أن الله تعـالى يعلم السر والعلن ، ويعلم الغيب والشهـادة ، فسواء أعلنتم سراً أم أضمرتموه ، فإن الله سيجازيكم على أعمالكم .

---

(١) أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين : ص ١٦

ثم ذكر الله تعالى هذا شأن علماء اليهود وأحبارهم ، أما الأميون منهم ، فإنهم لا يعرفون عن دينهم إلا أكاذيب سمعوها ولم يعقلوها ، مثل القول بأنهم شعب الله المختار ، وأن الأنبياء منهم فيشفعون لهم ، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة ، وما هم في كل ذلك إلا واهمون ظانون ظناً لا صحة له .

فلا أمل في أيمانهم ، ولا أسف على أمثالهم ، فمن كانت هذه صفاته وقبائحه ، فلا خير فيه ، ولا أسف عليه .

والمراد بما فتح الله على اليهود : الإنعام بالشريعة والأحكام ، والبشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، شبّه الذي يعطي الشريعة بالمحصور في الصلاة يُفتح عليه ، فيخرج من الضيق . أو أن معنى ﴿ بما فتح الله عليكم ﴾ : بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي الذي يجيئكم مصدقاً لما معكم ، ونصره . والمقصود بقوله ﴿ عند ربكم ﴾ أن المحاجة في الآخرة ، كما قال السيوطي ، ورأى المحققون أنه بمعنى : في كتاب الله وحكمه أي أن ما تحدثونهم به من التوراة موافق لما في القرآن ، فالمحاجة في الدنيا ، فهو كقوله تعالى في أهل الإفك : ﴿ فإذ لم يَأْتُوا بالشهداء ، فأولئك عِنْد اللهِ هم الكاذِبُون ﴾ [النور ١٣/٢٤] أي في حكمه المبين في كتابه[1] .

وأما الأماني : فهي الأكاذيب ، وفسرها بعضهم بالقراءات ، أي أنهم لاحظّ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما في العمل ، فهو على حد : ﴿ مثَل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمَثَل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [الجمعة ٥/٦٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

التحريف والتبديل لكلام الله أشد الحرام ، سواء أكان بالتأويل الفاسد ، أم

(١) تفسير المنار : ٣٥٧/١ وما بعدها .

بالتغيير والتبديل ، وقد وقع النوعان من أحبار اليهود ، وقد نعتهم الله تعالى بأنهم يبدلون ويحرفون ، فقال : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ [البقرة ٧٩/٢] وكان للتحريف مظاهر متعددة ، ففي عهد موسى عليه السلام : روي أن قوماً من السبعين المختارين ، سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور ، وما أمر به موسى وما نهي عنه ، ثم قالوا : سمعنا الله يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم ألا تفعلوا فلا بأس .

وفي قوله تعالى : ﴿ ثم يحرفونه ﴾ قال مجاهد والسدي : هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة ، فيجعلون الحرام حلالاً والحلال حراماً ، اتّباعاً لأهوائهم .

وفي عهد محمد ﷺ حرفوا نعت الرسول وصفته ، وحرفوا آية الرجم ، وقالوا : ﴿ ليس علينا في الأميّين سبيلٌ ﴾ [آل عمران ٧٥/٣] وهم العرب ، أي ماأخذنا من أموالهم فهو حل لنا ، وقالوا أيضاً : لا يضرنا ذنب فنحن أحباء الله وأبناؤه ، تعالى الله عن ذلك[1] .

ووقع التحريف بنوعيه أيضاً في الإنجيل ، كما وقع في التوراة ، والدليل واضح وهو ضياع أصل كلا هذين الكتابين ، وكتابتها بأيدي العلماء بعد عشرات السنين ، كما قال تعالى : ﴿ يحرّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه ﴾ [النساء ٤٦/٤] .

وحدث التحريف في القرآن بمعنى التأويل الباطل ، من الجهلة أو الملاحدة ، أما التحريف بإسقاط آية من القرآن ، فلم يقع ، لتعهد الله حفظ كتابه المبين في قوله سبحانه : ﴿ إنا نحن نزّلْنَا الذِّكْرَ ، وإنّا له لَحافِظُونَ ﴾ [الحجر ٩/١٥] .

وأرشدت الآية (٧٨) من سورة البقرة إلى بطلان التقليد في العقائد وأصول الأحكام ، وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه ؛ لأن معنى قوله تعالى : ﴿ وإن هم إلا

---

(١) تفسير الرازي : ١٢٥/٣ ، تفسير القرطبي : ٦/٢ وما بعدها .

يَظُنُّون ﴾ : يكذبون ويحدثون ؛ لأنه لا علم لهم بصحة ما يتلون ، وإنما هم مقلدون لأحبارهم فيما يقرؤون به . وقد أجمع السلف في صدر الإسلام وأهل القرون الثلاثة على بطلان التقليد في العقائد . وإنما كان الجاهل في تلك القرون يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والأحكام بروايتها ، ولا يتقلد رأيه كيفما كان ، من غير بينة ولا برهان[1] .

وأومأ الخطاب في هذه الآيات لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ إلى أنه لا أمل في إيمان اليهود بالقرآن وبدعوة الرسول محمد ، فالمعاصرون توارثوا طبائع الآباء وأخلاقهم ، وتأصلت فيهم روح التمرد والإعراض عن كلام الله ، وكان آباؤهم أكثر الناس مراء وجدالاً في الحق ، وإن كان بيناً باهراً ، وأشد الناس كذباً وغروراً وأكلاً لأموال الناس بالباطل كالربا الفاحش ، وغشاً وتدليساً وتلبيساً ، وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ، وأفضل الناس ، كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان . فهذه هي الأماني التي صدتهم عن قبول الإسلام[2] .

تحريف أحبار اليهود وافتراءاتهم

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

(١) تفسير المنار : ٣٥٩/١

(٢) المصدر السابق : ٣٦٠/١

الإعراب :

﴿ فويل للذين يكتبون ﴾ مبتدأ وخبر ، وجاز أن يكون « ويل » مبتدأ وإن كان نكرة ؛ لأن في الكلام معنى الدعاء ، كقولهم : سلام عليكم .

﴿ بلى ﴾ حرف يأتي في جواب الاستفهام في النفي ، و « نعم » يأتي في جواب الاستفهام في الإيجاب . فإذا قال : ألستَ فعلت كذا ؟ فجوابه : بلى ، أي إني قد فعلت ، كقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ﴾ [الأعراف ١٧٢/٧] أي بلى أنت ربُّنا ، ولو قالوا : نعم ، لكفروا ، لأنه يصيرُ المعنى : نعم لست ربَّنا . وإذا قال في الإيجاب : هل فعلت ؟ فجوابه : نعم ، كقوله تعالى : ﴿ هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ﴾ [الأعراف ٤٤/٧] . ﴿ من كسب ﴾ من شرطية مبتدأ ، والفاء في « أولئك » جواب الشرط ، و ﴿ فأولئك ﴾ مبتدأ ثانٍ ، و ﴿ أصحاب النار ﴾ خبره ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول وهو ﴿ من ﴾ . و ﴿ هم فيها خالدون ﴾ جملة اسمية حال من ﴿ أصحاب ﴾ أو من ﴿ النار ﴾ . و ﴿ فيها ﴾ في موضع نصب ، وتقديره : خالدون فيها .

البلاغة :

تكرار ﴿ ويل ﴾ ثلاث مرات في الآية (٧٩) للتوبيخ والتقريع وتقبيح جريمتهم وهي التحريف .

﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ استعار لفظ الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، حيث شبه الخطايا بجيش من الأعداء نزل بقوم من كل جانب .

المفردات اللغوية :

﴿ فويل ﴾ الويل : شدة العذاب والهلاك ، أو وادٍ في جهنم ﴿ بأيديهم ﴾ أي مختلقاً من عندهم ﴿ ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ من الدنيا ، وهم اليهود غيَّروا صفة النبي في التوراة ، وآية الرجم ، وغيرها ، وكتبوها على خلاف ماأنزل . ﴿ مما كتبت أيديهم ﴾ من المختلق ، ﴿ مما يكسبون ﴾ من الرشا : جمع رشوة .

﴿ لن تمسنا ﴾ تصيبنا ﴿ إلا أياماً معدودة ﴾ قليلة أربعين يوماً مدة عبادة آبائهم العجل . ﴿ أتخذتم ﴾ حذفت منه همزة الوصل ، استغناء بهمزة الاستفهام ﴿ عهداً ﴾ ميثاقاً منه بذلك . ﴿ أم تقولون .. ﴾ بل .

﴿ كسب سيئة ﴾ المراد بها هنا الكفر أو الشرك . ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ بالإفراد

والجمع ، أي استولت عليه وأحدقت به من كل جانب ، بأن مات مشركاً ﴿ فأولئك ﴾ روعي فيه معنى : من .

سبب النزول :

نزلت الآية (٧٩) في أهل الكتاب كما قال ابن عباس ، أو في أحبار اليهود كما قال العباس : « الذين غيّروا صفة النبي ﷺ وبدلوا نعته » ، وكانت صفته في التوراة : أكحل ، أعين ، ربعة ، جعد الشعر ، حسن الوجه ، فمحوه حسداً وبغياً ، وقالوا : نجده طويلاً أزرق ، سبط الشعر .

ونزلت الآية (٨٠) كما قال ابن عباس : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ويهود تقول : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذب الناس في النار ، لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة ، فإنما هي سبعة أيام ، ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وقالوا : لن تمسنا النار ﴾ إلى قوله ﴿ خالدون ﴾ . وروى الطبري عن ابن عباس : أن اليهود قالوا : لن ندخل النار ، إلا تحلة القسم ، الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة ، فإذا انقضت ، انقطع عنا العذاب ، فنزلت الآية[1]

التفسير والبيان :

الهلاك والعذاب الشديد أو العقوبة العظيمة لمن حرفوا التوراة ، وكتبوا الآيات المحرفة بأيديهم ، وغيّروا صفة النبي ﷺ التي كانت مكتوبة عندهم في التوراة ، والعذاب أيضاً لهم لأخذ الرشوة وفعلهم المعاصي ، ونسبتهم الافتراءات إلى الله تعالى ، ليأخذوا بهذا الكذب أو الافتراء ثمناً دنيوياً حقيراً من مال أو رياسة أو جاه ، فويل لهم مما كسبوا ؛ لأنه كانت لليهود جنايات ثلاث : تغيير

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٤ ، للسيوطي بهامش الجلالين : ص ١٧ ـ ١٨ ، تفسير الطبري : ٢٠٢/١ وما بعدها ، تفسير القرطبي : ١٠/٢

صفة النبي ﷺ ، والافتراء على الله ، وأخذ الرشوة ، فهددوا على كل جناية بالويل والهلاك .

ومن مزاعم اليهود : ادعاؤهم أن النار لا تمسهم إلا في أيام قليلة معدودة ، هي أربعون يوماً مدة عبادتهم العجل ، وأكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام فقط ؛ لأن عمر الدنيا في زعمهم سبعة آلاف سنة ، فمن عذب في النار ولم يحظ بالنجاة ، يمكث في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم . فرد الله عليهم : هل عهد بذلك ربكم إليكم ، ووعدكم به وعداً حقاً ، فلن يخلف الله وعده ، أم أنتم تقولون على الله شيئاً لا علم لكم به ؟ أي أن مثل ذلك القول لا يصدر إلا عن عهد من الله ، أو افتراء وتقوّل عليه ، وبما أنه لم يحدث العهد من الله وهو الوحي والخبر الصادق ، فأنتم كاذبون في دعواكم ، مفترون حين تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه . وقد أكدت السُّنَّة دعواهم في النجاة من النار بعد أيام قليلة .

روى الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن الليث بن سعد ، والحافظ بن مردويه والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما فتحت خيبر ، أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمٌّ ، فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أبوكم ؟ قالوا : فلان ، قال : كذبتم ، بل أبوكم فلان ، فقالوا : صدقت وبررت . ثم قال لهم : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم ، ياأبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا ، كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ، ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسؤوا ، والله لا نخلفكم فيها أبداً . ثم قال لهم رسول الله ﷺ : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم ياأبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟ فقالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرّك » .

ليس الأمر أيها اليهود كما زعمتم أو تمنيتم واشتهيتم ، بل أو بلى ستخلدون في نار جهنم بسبب ارتكاب المعاصي التي أحاطت بكم ، كالكفر ، وقتل الأنبياء بغير حق ، وعصيان أوامر الله ، والاسترسال في الأهواء والافتراءات . وقد علمنا أن بلى : لفظ يجاب به بعد كلام منفي سابق ، ومعناه إبطاله وإنكاره . والكسب : جلب النفع ، واستعماله هنا في السيئة من باب التهكم . والسيئة : الفاحشة الموجبة للنار ، والمراد بها هنا : الشرك بالله .

وسبب الخلود في النار : هو ماتضمنه القانون العام لكل الخلائق في شرع الله : أن من اقترف خطيئة غمرت جميع جوانبه من قلبه ولسانه وأعضائه ، وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهو من أهل النار .

وأما من آمن (صدق) بالله ورسله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فأدى الواجب ، وترك الحرام ، فهو من أهل الجنة . قال ابن عباس : « من آمن بما كفرتم ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة ، خالدين فيها » يخبرهم أن الثواب بالخير ، والشر مقيم على أهله أبداً ، لاانقطاع له .

وكل من الجزاءين المذكورين : وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين ، شبيه بقوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيّكم ، ولا أمانيّ أهلِ الكتاب ، من يَعْملْ سُوءاً يُجْزَ به ، ولا يَجِدْ له من دُونِ اللهِ وَلِيّاً ولا نصيراً . ومن يعملْ من الصالحات من ذَكَرٍ أو أنثى ، وهو مؤمنٌ ، فأولئك يَدْخُلون الجنّة ، ولا يُظْلَمُون نَقِيراً ﴾ [النساء ١٢٣/٤ ـ ١٢٤] .

لكن من تاب من العصاة توبة نصوحاً ، فأقلع عن الذنب ، وندم عليه ، وعزم على ألا يعود لمثله في المستقبل ، تبدل حاله من أهل النار إلى أهل الجنة .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً ، نُكتَتْ في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صُقِل

قلبه . وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذَكَر اللهُ في القرآن : ﴿ كلا ، بل رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين ١٤/٨٣] » .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً ، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق ، فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً ، وأججوا ناراً ، فأنضجوا ماقذفوا فيها .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية (٧٩) والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في شرع الله ، فكل من بدل وغيَّر أو ابتدع في دين الله ماليس منه ، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد ، والعذاب الأليم ، وقد حذر رسول الله ﷺ أمته ، لما قد علم ما يكون في آخر الزمان ، فقال : « ألا ، إنَّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مِلّة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » الحديث . فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه ، فيضلّوا به الناس .

وأبانت الآية (٧٩) أن كل عوض ـ وإن كثر ـ عن تحريف كتاب الله ، لابركة فيه ولا خير ، فقد وصف الله تعالى مَا يأخذه أحبار اليهود بالقلة إما لفنائه وعدم ثباته ، وإما لكونه حراماً ؛ لأن الحرام لابركة فيه ، ولا يربو عند الله . قال ابن اسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله ﷺ في كتابهم : رَبْعة أسمر ، فجعلوه : آدم سَبْطاً طويلاً ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي الذي يُبعَث في آخر الزمان ، ليس يشبهه نعت هذا .

ودلت الآية (٨١) : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ على أن

المعلق على شرطين لا يتم بأقلهما ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا : ربُّنا اللهُ ، ثم اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت ٣٠/٤١] . والخلود في النار : سببه الشرك بالله .

وأرشدت الآية (٨٢) إلى أن دخول الجنة منوط بالإيمان والعمل الصالح معاً ، كما روى مسلم « أن النبي ﷺ قال لسفيان بن عبد الله الثقفي ، وقد قال له : يارسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً ، لاأسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل : آمنت بالله ، ثم استقم » .

والجمع بين الآيتين المذكورتين (٨١ ، ٨٢) هو منهج القرآن الكريم في البيان ، فإن الله سبحانه يقرن عادة بين الوعد والوعيد ، ويذكر أهل الخير وأهل الشر ، وأصحاب الجنة وأصحاب النار ، لما تقتضيه الحكمة ، وإرشاد العباد ، بالترغيب مرة والترهيب أخرى ، والتبشير طوراً والإنذار طوراً آخر ، إذ باللطف والقهر يرقى الإنسان إلى درجة الكمال .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مخالفة اليهود المواثيق

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

الإعراب :

﴿ لاتعبدون ﴾ مرفوع لأنه جواب لقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ... ﴾ لأنه في معنى القسم ، بمنزلة والله ، فكأنه قال : استحلفناهم لا يعبدون ، كما يقال : حلف فلان لا يقوم ، أو لأنه في موضع الحال ، أي أخذنا ميثاقهم غير عابدين إلا الله ، ومثل ذلك ﴿ لاتسفكون ﴾ . ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ إما معطوف على الباء المحذوفة وأن في قوله تعالى : ﴿ لاتعبدون ﴾ أو في موضع نصب

بفعل مقدر ، وتقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً . وقوله : (إحساناً ﴾ إما منصوب على المصدر بالفعل المقدر الذي تعلق به الجار والمجرور في قوله : ﴿ بالوالدين ﴾ وتقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، أو منصوب ؛ لأنه مفعول فعل مقدر ، وتقديره : واستوصوا بالوالدين إحساناً . ﴿ حسناً ﴾ مفعول به منصوب لفعل : قولوا ، وتقديره : قولوا قولاً ذا حسن ، أو صفة لمصدر محذوف ، وتقديره : قولاً حسناً ﴿ إلا قليلاً ﴾ منصوب على الاستثناء الموجب من ضمير ﴿ توليتم ﴾ .

البلاغة :

﴿ لاتعبدون ﴾ خبر في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي ؛ لأن حق المنهي عنه المبادرة إلى تركه ، فكأنه انتهى عنه ، وجاء بصيغة الخبر . ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ وقع المصدر موقع الصفة ، أي قولاً حسناً أو ذا حسن للمبالغة ، فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة ، فيقولون : هو عدل .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذ ﴾ واذكر إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل في التوراة ﴿ ميثاق ﴾ الميثاق : العهد المؤكد الذي أخذ عليهم في التوراة ، علماً بأن العهد نوعان : عهد خلقة وفطرة ، وعهد نبوة ورسالة ، وهذا هو المراد هنا .

﴿ لاتعبدون ﴾ خبر بمعنى النهي . ﴿ إحساناً ﴾ تحسنون إلى الوالدين إحساناً ، أي براً . ﴿ وذي القربى ﴾ صاحب القربى من جهة الرحم أو العصب . ﴿ حسناً ﴾ أي وقولوا للناس قولاً حسناً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدق في شأن محمد ، والرفق بهم . ﴿ توليتم ﴾ أعرضتم عن الوفاء به ، فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب ، والمراد : آباؤهم ﴿ وأنتم معرضون ﴾ عنه كآبائكم .

المناسبة :

تنوع الأسلوب القرآني في معالجة مساوئ اليهود وقبائحهم ، وترويضهم ، ونقلهم إلى حال أفضل من حالهم في الماضي والحاضر ، ففي الآيات السابقة عدّد الله النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، كتفضيلهم على العالمين ، وإنجائهم من الغرق ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، ثم مايحدث إثر كل نعمة من مخالفة ، فعقوبة ، فتوبة .

ثم تذكّرهم هذه الآية بالعهد الذي أخذه الله على آبائهم بالعمل بما أمروا به من عبادات ومعاملات ، ثم إهمالهم له ، وتركهم اتباعه . وهذا كله ليبين الله لرسوله انقطاع الأمل في إيمان اليهود المعاصرين له ؛ لأنهم يتوارثون عادة التطبع بقبائح أسلافهم ، فهي تمنعهم من الهدى والرشاد

التفسير والبيان :

اذكر أيها النبي حين أخذنا الميثاق على بني إسرائيل ، أنهم لا يعبدون إلا الله سبحانه ، فلا يشركون به سواه من ملك أو صنم أو بشر بدعاء أو غيره من أنواع العبادات ، وأنهم يحسنون إلى الوالدين إحساناً كاملاً ، بأن يرعوهما حق الرعاية ، ويعطفوا عليهما ، ويطيعوهما فيما لا يخالف أوامر الله ، وقد جاء في التوراة : أن من يسب والديه يقتل ، وأن يحسنوا بالمال إلى ذي القرابة والأيتام والمساكين بسبب ضعفهم وعجزهم وحاجتهم ، وأن يقولوا قولاً حسناً لاإثم فيه ولا شر ، بالقول الجميل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مع خفض الجناح ولين الجانب ، وأن يؤدوا صلاتهم أداء تاماً ؛ لأن الصلاة تصلح النفوس ، وتهذب الطباع وتحليها بأنواع الفضائل ، وتمنعها عن الرذائل ، وأن يؤتوا الزكاة للفقراء ، لما فيها من تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس ، وإسعاد الفرد والجماعة ، وإشاعة الرفاه والهناءة للجميع .

ولكن اليهود الذين اعتادوا الغدر ، واستماتوا في حب المادة ، أعرضوا قصداً وعمداً عن تنفيذ الأوامر الإلهية ، وعن العمل بالميثاق ، والخَلَف منهم معرض عن التوراة مثل السلف ، ماعدا نفراً قليلاً منهم مثل عبد الله بن سَلاَم وأشباهه من المخلصين العقلاء ، المحافظين على الحق بقدر الطاقة ، لكن وجود القلائل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد وعم البلاء ، كما قال الله تعالى : ﴿ واتّقوا فتنةً لاتُصيبنّ الذين ظَلَمُوا منكم خاصّة ﴾ [الأنفال ٢٥/٨] .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الأمور التي ذكَّر الله بها بني إسرائيل في هذه الآية ، أمر بها جميع الخلق ، ولذلك خلقهم ، وهي تكوّن النظام الديني والأخلاقي والاجتماعي ، وجاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم ، فقدم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على حق العباد ، ثم ذكر الوالدين لحقهما في تربية الولد ، ثم القرابة ؛ لأن فيهم صلة الرحم ، ثم اليتامى لقصورهم ، ثم المساكين لضعفهم ، وهي تشمل ما يلي :

١ ـ عبادة الله وحده لاشريك له : فهي برهان الاعتقاد الصحيح ودليل الإيمان من جميع الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قَبْلك من رسولٍ إلا نُوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدونِ ﴾ [الأنبياء ٢١/٢٥] . وقال تعالى : ﴿ ولقد بَعَثْنَا في كلّ أمةٍ رَسُولاً أن اعبدُوا اللهَ ، واجْتَنِبوا الطاغوتَ ﴾ [النحل ١٦/٣٦] . قال ابن كثير : وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لاشريك له . والمراد بقوله تعالى : ﴿ لاتعبدون إلا الله ﴾ كما قال الزمخشري الطلب ، فهو خبر بمعنى الطلب ، وهو آكد .

٢ ـ الإحسان إلى الوالدين : هذا يأتي بعد حق الله ، فإن آكد حقوق المخلوقين ، وأولاهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه بالتوحيد وحق الوالدين ؛ لأن النشأة الأولى من عند الله ، والنشء الثاني ـ وهو التربية ـ من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره ، فقال : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ، إلي المصير ﴾ [لقمان ٣١/١٤] وقال : ﴿ وقَضَى ربُّك أن لاتَعْبدوا إلا إيّاه ، وبالوالدين إحساناً ﴾ [الإسراء ١٧/٢٣] .

والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف ، والتواضع لهما ، وامتثال أمرهما ، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما ، وصلة أهل ودّهما .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود : « قلت : يا رسول الله ، أي العمل

أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » . وجاء في الحديث الصحيح : « أن رجلاً قال : يا رسول الله ؟ من أبرُّ ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أباك ، ثم أدناك أدناك » .

والحكمة في بر الوالدين واضحة : وهي المعاملة بالمثل ومقابلة المعروف بمثله ، والوفاء للمحسن ، كما قال تعالى : ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾ [الرحمن ٦٠/٥٥] فهما بذلا للولد وهو صغير كل عناية وعطف بتربيته والقيام بشؤونه ، فيجب على الولد مكافأتهما على صنعهما .

٣ ـ الإحسان إلى ذي القربى : أي القرابة ، عطف ذي القربى على الوالدين ، وهو يدل على أن الله تعالى أمر بالإحسان إلى القرابات بصلة الأرحام ؛ لأن الإحسان إليهم مما يقوم الروابط بينهم ، فما الأمة إلا مجموعة الأسر ، فصلاحها بصلاحها ، وفسادها بفسادها . ولا يعرف فضل الأسرة إلا في وقت الشدة والكوارث ، فعندها يظهر التعاطف والتعاون وترميم الأضرار ، وإزالة العثرات .

٤ ـ الإحسان إلى اليتامى : وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء . والإحسان إلى اليتيم : بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع ، وقد ملئ الكتاب والسنة بالوصية به والرأفة به والحض على كفالته وحفظ ماله ، من ذلك ماأخرجه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى .

٥ ـ الإحسان إلى المساكين : وهم الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم ، وقد أمر الله بالإحسان إلى المساكين ، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم ، وذلك يكون بالصدقة عليهم ، ومواساتهم حين البأساء والضراء ، روى مسلم عن

أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبه قال ـ وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر » قال ابن المنذر : وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله .

٦ ـ الكلام الطيب ، ولين الجانب ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك مما هو نافع في الدين والدنيا كالحلم والصفح والعفو والبشاشة .

وذلك لأن إحسان القول له تأثير فعال في النفوس ، وبه يتم التكافل الأدبي أو الأخلاقي بين الناس ، فإنه سبحانه عبر بقوله ﴿ وقولوا للناس ﴾ ولم يقل لإخوانكم ، ليدل على أن الأمر بالإحسان عام لجميع الناس .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ، وإن لم تجد ، فالْق أخاك بوجه منطلق » . وبهذه الفضيلة وهي القول الحسن بعد الأمر بالإحسان الفعلي إلى الناس ، يجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي .

٧ ـ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : الصلاة عماد الدين ، وطريق التقوى ، وهمزة الصلة بالله ، وسبيل التحلي بالفضائل والبعد عن الرذائل ، ولكن بشرط الإخلاص والخشوع التام لعظمة الله وسلطانه . وأما إيتاء الزكاة فضروري لإصلاح شؤون المجتمع . لكنّ كلاً من الصلاة والزكاة لم يثبت فيهما عن أهل الكتاب نقل صحيح يدل على كيفيتهما ونوعهما ، روي عن ابن عباس أنه قال : الزكاة التي أمروا بها طاعةً الله والإخلاص .

بعض حالات مخالفة اليهود الميثاق

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

الإعراب :

﴿ ثم أنتم ... ﴾ أنتم مبتدأ ، و ﴿ هؤلاء ﴾ خبره و ﴿ تقتلون ﴾ جملة فعلية حال من « أولاء » . ﴿ وإن يأتوكم أسارى ﴾ أسارى : حال من ضمير الفاعل في ﴿ يأتوكم ﴾ وأسارى على وزن فُعالى ، وأكثر ما يجيء « فعالى » في جمع فَعْلان نحو سكران وكسلان ، ولما كان الأسير محبوساً عن التصرف في الأمور أشبه السكران والكسلان ؛ لأنها كالمحبوسين عن التصرف لاستيلاء السكر والكسل عليها . ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ هو : أي الإخراج الذي دل عليه قوله : ﴿ وتخرجون فريقاً ﴾ مبتدأ ، و ﴿ محرم ﴾ خبره ، و ﴿ إخراجهم ﴾ بدل من ﴿ هو ﴾ ويصح جعل ﴿ هو ﴾ ضمير الشأن ، وهو مبتدأ أول ، وإخراجهم مبتدأ ثان ، ومحرم : خبر مقدم ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول ومفسرة له ، وتكون جملة : هو والخبر اعتراضية ﴿ فما جزاء .. ﴾ ما : استفهامية : أي ، أي شيء جزاء من يفعل ذلك منكم ، و ﴿ ما ﴾ مبتدأ ، و ﴿ جزاء ﴾ خبره ، و ﴿ خزي ﴾ بدل من جزاء . ﴿ يوم القيامة ﴾ ظرف زمان منصوب ، وعامله مابعده وهو ﴿ يردُّون ﴾ .

البلاغة :

﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ أي بعضكم ، ومن قتل غيره فكأنما قتل نفسه ، فهو مجاز .

﴿ أفتؤمنون ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ . ﴿ خزي ﴾ تنكيره للتفخيم والتهويل .

المفردات اللغوية :

﴿ تسفكون دماءكم ﴾ تريقونها بقتل بعضكم بعضاً . ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من ديارِكم ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من داره . ﴿ ثم أقررتم ﴾ قبلتم ذلك الميثاق . ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ على أنفسكم .

﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ يقتل بعضكم بعضاً . ﴿ تظاهرون ﴾ تتظاهرون أي تتعاونون عليهم . ﴿ بالإثم ﴾ بالمعصية أو الذنب : وهو الفعل الذي يستحق فاعله الذم واللوم . ﴿ والعدوان ﴾ الظلم والاعتداء . ﴿ أسارى ﴾ أسرى جمع أسير ، أي مأسورين . ﴿ تفادوهم ﴾ تنقذوهم من الأسر بالفداء من مال أو غيره ، وهو مما عهد إليهم . ﴿ خزي ﴾ هوان وذل .

﴿ اشتروا ﴾ استبدلوا .

المناسبة التاريخية المتجددة :

كان سفك الدماء وتقاتل اليهود وطرد بعضهم بعضاً من ديارهم ظاهرة شائعة فيهم ، وظلت هذه الظاهرة إلى عصر التنزيل القرآني ، فكان يهود بني قريظة حالفوا الأوس ، ويهود بني النضير حالفوا الخزرج ، فإذا نشبت الحرب بينهم ، كان كل فريق من اليهود يقاتل مع حلفائه ، فيقتل اليهودي يهودياً آخر ، ويخرب بعضهم ديار بعض ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون مافيها من الأثاث والمال ، مع أن ذلك محرم عليهم بنص التوراة ، وإذا أُسر بعضهم فدوهم بالمال ، وكانوا إذا سئلوا ، لِمَ تقاتلونهم وتفدونهم ، قالوا : أمرنا ـ أي في التوراة ـ بالفداء ، فيقال : فلِمَ تقاتلونهم ؟ فيقولون : حياء أن تستذل حلفاؤنا ، فأنزل الله : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾[1]

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٢١/١

وكانت الآيات السابقة تذكيراً لبني إسرائيل الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام بأهم الأوامر التي أُمروا بها من عبادة الله وحده والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى وغير ذلك ، أما هذه الآيات فكانت للتذكير بأهم المنهيات التي خطرت عليهم ، والخطاب للحاضرين في عصر النبي محمد ﷺ ، وهو دليل على تضامن الأمة ، وأنها كالفرد يصيب خلفها أثر ما كان عليه سلفها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد لليهود وقت أخذنا عليهم في التوراة العهد بأن لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من دياره ووطنه . وفي تعبير « دماءكم ، وأنفسكم ، وديارکم » إشارة إلى أن دم غيره من المجتمع كدم نفسه ، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، وهو ماتقرره الآية (٣٢) من سورة المائدة .

ثم أقررتم أيها اليهود المعاصرون بالميثاق الذي أخذ على أسلافكم ، ولم تنكروه ، فالحجة قائمة عليكم .

ثم أنتم بعد الاعتراف بالميثاق تنقضون العهد ، فيقتل بعضكم بعضاً ، كما كان يفعل من قبلكم ، فكانت بنو قينقاع أعداء بني قريظة ، وكان يهود بني قريظة حلفاء الأوس يقاتلون يهود بني النضير حلفاء الخزرج ، إذا تقاتل الأوس والخزرج ، وكان مقتضى الاتفاق في الدين واللغة والنسب بين اليهود أن يكونوا جميعاً صفاً واحداً .

وكذلك كان كل من اليهود يعاون حلفاءه على إخوانه اليهود بالإثم كالقتل والسلب والنهب ، والعدوان كالإخراج من الديار . وكانوا إذا تم الاتفاق على مفاداة الأسرى ، يفدي بالمال كل فريق من اليهود أبناء جنسه ، عملاً بالكتاب

المقدس ، مع أن السبب الذي أدى إلى الأسر وهو الطرد والإجلاء محرم عليكم في التوراة كتحريم القتل ، فكيف تؤمنون ببعض الكتاب وتمتثلون حكم مفاداة الأسرى ، وتكفرون بالأحكام الأخرى ، فترتكبون جرائم القتل والإخراج والتعاون بالإثم والاعتداء ، علماً بأن الإيمان بشيء لا يتجزأ ، والكفر ببعضه كالكفر بكله ؟

فمن آمن ببعض التوراة ، وكفر ببعضها الآخر ، ليس له جزاء على هذا الفعل المتناقض المستهجن إلا ذل وهوان في الدنيا ، وعذاب أليم دائم في الآخرة ، وما الله بغافل عن عمل إنسان ، فهو يجازيه على سيئاته .

ثم قررت الآيات حكماً عاماً لأولئك اليهود وغيرهم : وهو أن من آثروا الحياة الدنيا كالزعامة الفارغة وأخذ المال ، على الآخرة وما فيها من نعيم مقيم ، فهم باعوا آخرتهم بدنياهم بتقديم حظوظهم العاجلة الفانية على حظوظهم الدائمة الخالدة ، وبترك أوامر الله في كتابه ، فلا يخفف عنهم العذاب الأخروي ، ولا يفتر عنهم ساعة واحدة ، ولا هم ينصرون في الدنيا والآخرة ، فلا شافع يشفع بهم ، ولا ولي يدفع عنهم العقاب في جهنم ؛ لأن خطاياهم كثيرة ، أحاطت بهم ، فحجبتهم عن الرحمة الإلهية ، وأبعدتهم عن الفيض الإلهي .

وهكذا كل أمة ذات دين ، تؤدي بعض أحكامه كالصلاة والصوم والحج ، وتخالف أحكامه الأخرى ، فلم تؤد الزكاة وامتنع الأغنياء عن أداء حقوق الفقراء ، وشاع فيها الربا والزنا والسرقة والرشوة والبغي والظلم ، وأهملت الأسس التي يقوم عليها بنيان النظام الحكومي من العدل ، والمساواة ، والشورى ، والجهاد في سبيل الله ونصرة المؤمنين المستضعفين ، فإنها معرّضة للخزي (الهوان) في الدنيا ، والعذاب في نار جهنم في الآخرة .

فقه الحياة أو الأحكام :

الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين المخلصين ، والإخلال بالعهد من صفات الكافرين والمنافقين ، ومن ألزم العهود والمواثيق الواجب تنفيذها واحترامها هو عهد الله ، فمن أخل به ولم يرع جميع بنوده وأحكامه ، استحق العقاب والتوبيخ والاستهجان . وفي تعبير القرآن عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن من يقدم على الذنب ، ولا يبالي بنهي الله ، فهو كافر به .

وإن تجزئة أحكام الله ، بأخذ بعضها وقبوله ، ورفض بعضها والإعراض عنه ، كفر بجميع الأحكام الإلهية . قال العلماء : كان الله تعالى قد أخذ على اليهود أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أساراهم ؛ فأعرضوا عن كل ماأُمروا به إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك توبيخاً يتلى ، فقال : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو التوراة ﴿ وتكفرون ببعض ﴾[1] .

وقد أكدت شريعتنا حكم فداء الأسارى وأنه واجب ، قال علماء المالكية وغيرهم : فداء الأسرى واجب ، وإن لم يبق درهم واحد . قال ابن خُوَيزِ مَنْداد : تضمنت الآية وجوب فك الأسرى ، وبذلك وردت الآثار عن النبي ﷺ أنه فك الأسارى وأمر بفكّهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين ، وانعقد به الإجماع . ويجب فك الأسارى من بيت المال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين ، ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقين[2] .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٢/٢

(٢) المرجع والمكان السابق ، أحكام القرآن للجصاص : ٤٠/١

موقف اليهود من الرسل والكتب المنزلة

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

الإعراب :

﴿ أفكلما ﴾ الهمزة استفهام بمعنى التوبيخ ، والفاء : حرف عطف ، و « كلما » ظرف زمان يفيد التكرار ، ويقتضي الجواب ، والعامل فيه جوابه وهو ﴿ استكبرتم ﴾ . ﴿ ففريقاً ﴾ منصوب بكذبتم ﴿ وفريقاً ﴾ الثاني منصوب بتقتلون . وإنما تقدم المفعول للاهتمام به ، وإنما قال : ﴿ تقتلون ﴾ ولم يقل « قتلتم » مثل ﴿ كذبتم ﴾ مراعاة لفواصل الآيات .

﴿ قلوبنا غلف ﴾ مبتدأ وخبر . ﴿ قليلاً ﴾ منصوب لأنه صفة مصدر محذوف ، و﴿ ما ﴾ زائدة . وتقديره : فإيماناً قليلاً يؤمنون . والمراد بالقلة هنا النفي ، مثل ﴿ قليلاً ماتشكرون ﴾ [الأعراف ١٠/٧] أي لا يشكرون أصلاً .

﴿ ولما ﴾ ظرف زمان مبني إما لأنه أشبه معنى الحرف ، أو لأنه تضمن معنى الحرف . وجواب « لما » في رأي البصريين محذوف تقديره : نبذوه أو كفروا به ، وفي رأي الكوفيين : مذكور ، وهو الفاء في قوله ﴿ فلما ﴾ وكرر « لما » لطول الكلام .

البلاغة :

تقديم المفعول وهو « فريقاً كذبتم » و « فريقاً تقتلون » للاهتمام به وتشويق السامع إلى

مابعده . وإنما قال : ﴿ تقتلون ﴾ ولم يقل « قتلتم » لتطابق « كذبتم » لأجل الفواصل ، فإن فواصل الآيات كرؤوس الأبيات ، ولأن المضارع يستعمل في الماضي الذي بلغ من الغرابة مبلغاً عظيماً ، كأن صورة قتل الأنبياء ماثلة أمام السامع ينظر إليها .

﴿ على الكافرين ﴾ ولم يقل « عليهم » : وضع الظاهر مكان الضمير ، ليبين أن سبب اللعنة هو كفرهم .

المفردات اللغوية :

﴿ الكتاب ﴾ التوراة . ﴿ وقفينا ﴾ أتبعناهم رسولاً إثر رسول على منهاج واحد . و﴿ عيسى ﴾ بالسريانية : يسوع ، ومعناه السيد أو المبارك ، و﴿ مريم ﴾ بالعبرية : الخادم ؛ لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس . ﴿ البينات ﴾ المعجزات كإحياء للوتى وإبراء الأكمه والأبرص . ﴿ وأيدناه ﴾ قويناه . ﴿ بروح القدس ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي الروح المطهرة المقدسة : جبريل عليه السلام ، لطهارته ، ينزل على الأنبياء ويقدس نفوسهم ويزكيها ، قال الحسن البصري : « إنما سمي جبريل (روح القدس) لأن القدس هو الله ، وروحه جبريل ، فالإضافة للتشريف » ، قال الرازي : « ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى [في سورة النحل ١٠٢/١٦] : ﴿ قل : نزّله روح القدس من ربك بالحق ﴾ »[1] ويطلق عليه الروح الأمين كما قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء ١٩٣/٢٦ ـ ١٩٥] . ﴿ تهوى ﴾ تحب . ﴿ استكبرتم ﴾ تكبرتم عن اتباعه . ﴿ تقتلون ﴾ يراد به حكايه الحال الماضية ، أي قتلتم كزكريا ويحيى عليهما السلام .

﴿ غلف ﴾ عليها أغشية وأغطية ، فلا تعي ماتقول . ﴿ بل ﴾ للإضراب . ﴿ لعنهم الله ﴾ أبعدهم من رحمته وخذلهم من القبول . ﴿ بكفرهم ﴾ أي ليس عدم قبولهم لخلل في قلوبهم . ﴿ مايؤمنون ﴾ ما زائدة ، لتأكيد القلة ، أي إيمانهم قليل جداً ، أو معدوم .

﴿ مصدق لما معهم ﴾ من التوراة ، والكتاب هو القرآن . ﴿ يستفتحون ﴾ يستنصرون ببعثته ﷺ على الكفار ، يقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان . ﴿ ماعرفوا ﴾ من الحق ، وهو بعثة النبي . ﴿ كفروا به ﴾ حسداً وخوفاً على الزعامة أو الرياسة .

سبب نزول الآية (٨٩) :

قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ، فكلما التقوا هزمت يهود

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي : ١٨٦/٢

خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبيّ الأميّ الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان ، إلا نصرتنا عليهم » فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان . فلما بعث النبي ﷺ كفروا به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أي بك يا محمد ، إلى قوله : ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾[1] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة : يا معشر اليهود : اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله ﴾ [البقرة ٢/٨٩] .

وقال السدي : « كانت العرب تمرّ بيهود ، فتلقى اليهود منهم أذى ، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة أنه يبعثه الله ، فيقاتلون معه العرب ، فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به حسداً ، وقالوا : إنما كانت الرسل من بني إسرائيل ، فما بال هذا من بني إسماعيل »[2] .

التفسير والبيان :

اليهود قساة القلوب ، عبدة المصالح المادية ، والأهواء الذاتية ، فتجددت فيهم الإنذارات الإلهية ، وأرسلت إليهم الرسل ، بعضهم إثر بعض ، فكان

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن ابن عباس .

(٢) أسباب النزول للواحدي : ص ١٥ ، أسباب النزول للسيوطي : ص ١٩ وما بعدها .

بنو إسرائيل أكثر الشعوب حظاً في عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم ، ومع ذلك كانوا ينسون الإنذارات ، ويحرفون الشرائع ، ويتبعون أهواءهم ، ويعصون رسلهم ، إما بالتكذيب وإما بالقتل .

وهذه الآيات تذكير لهم بإعطاء موسى التوراة ، وإتباعه بالرسل : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ [المؤمنون ٢٣/٤٤] وهم يوشع وداود وسليمان وعزير وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وكانوا كلهم يحكمون بشريعة موسى ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنْزَلْنَا التوراةَ فيها هُدىً ونورٌ ، يحكُمُ بها النبيون الذين أسْلَمُوا .. ﴾ الآية [المائدة ٥/٤٤] إلا أن عيسى جاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه الله من البينات - وهي المعجزات كإحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيها ، فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له ، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى : ﴿ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم ، وجِئْتُكُمْ بآيةٍ من ربِّكم ﴾ [آل عمران ٣/٥٠] .

وكانت النتيجة أنه كلما جاءهم رسول بما لا تميل إليه نفوسهم ، وهي لا تميل إلى الخير دائماً ، كفروا به واستكبروا عليه تجبراً وبغياً ، فمنهم من كذبوه كعيسى ومحمد عليهما السلام ، ومنهم من قتلوه كزكريا ويحيى عليهما السلام ، فلا غرابة بعدئذ إن لم يؤمنوا بدعوة محمد ﷺ ، فإن العناد من طبعهم . والخطاب لجميع اليهود ؛ لأنهم فعلوا ذلك في الماضي ورضي عنهم أولادهم .

ومن قبائحهم قولهم للنبي ﷺ : قلوبنا عليها غشاء ، فلا تعي ما تقوله ، ولا تفقه ما تتكلم به ، فيرد الله عليهم : لستم كذلك ، فقلوبكم خلقت مستعدة بالفطرة للنظر الذي يوصل إلى الحق ، لكن الله أبعدكم من رحمته ، بسبب كفركم

بالأنبياء وعصيانكم التوراة . ولم يظلمهم الله بهذا الإبعاد أو الطرد من رحمته ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فإيمانهم قليل جداً ، فهم آمنوا ببعض الكتاب ، وتركوا العمل بالبعض الآخر أو حرفوه ، أو أنهم لم يؤمنوا أصلاً .

وكان عندهم وصف النبي ﷺ وبيان زمانه ، وكانوا يستنصرون به على المشركين ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة .

فلما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، مصدق لما معهم من التوراة ، ومؤكد وصف النبي المعروف عندهم ، كفروا به حسداً للعرب ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، واستكبروا عن قبول دعوته وإجابته احتقاراً للرسل ، وهم يعلمون أنه رسول الله ، وآثروا الدنيا على الآخرة ، فلعنة الله على كلّ كافر من اليهود وغيرهم ؛ لأنه كفر بدعوة الإسلام .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه صورة واضحة تبين موقف فئة من البشر من الأحكام الإلهية ، فمن أعرض عنها ، وجحد بها ، واستكبر عن قبولها ، كان مصيره المحقق المنتظر هو استحقاق العذاب والطرد من رحمة الله تعالى .

وهذا الحشد المتتابع من الرسل الذين جاؤوا لبني إسرائيل يدلّ على مزيد العناية الإلهية بأعتى البشر ، وتمكينه من العودة إلى طريق الحق ، فإذا عوقب ذلك العاتي المستكبر ، كان عقابه حقاً وعدلاً .

والله تعالى منزّه عن ظلم أحد ، ففي قوله تعالى : ﴿ بل لعنَهم اللهُ بكفرِهم ﴾ [البقرة ٨٨/٢] بيان السبب في نفورهم عن الإيمان ، وهو أنهم لُعِنوا بما تقدم من كفرهم واجترائهم ، وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه .

وكل ماذكر من أخبار اليهود وإظهار قبائحهم وتقريعهم على ظلمهم وكفرهم واطلاع النبي على ما كانوا يكتمونه من شريعة التوراة ، فيه دلالة على نبوته عليه السلام .

كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

« ما » في بئسما : إما نكرة موصوفة على التمييز بمعنى شيء ، والتقدير : بئس الشيء شيئاً ، و ﴿ اشتروا به أنفسهم ﴾ صفته ، وإما بمعنى الذي في موضع رفع ، و « اشتروا به » صلته ، وتقديره : بئس الذي اشتروا به أنفسهم ، و ﴿ أن يكفروا ﴾ في تقدير المصدر ، وهو المقصود بالذم ، وهو في موضع رفع لوجهين : أن يكون مبتدأ وما تقدم خبره ، أو أن يكون خبر مبتدأ محذوف وتقديره : هو أن يكفروا ، أي كفرهم .

﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ نصب مصدقاً على الحال من الحق ، والعامل في الحال معنى الجملة ، وهذه الحال حال مؤكدة ، فالحق لا يجوز أن يفارق التصديق لكتب الله عز وجل ، ولو فارق التصديق لما لخرجت عن أن تكون حقاً .

البلاغة :

﴿ عذاب مهين ﴾ أسندت الإهانة إلى العذاب من قبيل إسناد الأفعال إلى أسبابها .

المفردات اللغوية :

﴿ اشتروا به أنفسهم ﴾ باعوها ؛ لأن « اشترى » بمعنى باع ، وبمعنى ابتاع ، وكل من ترك شيئاً وأخذ غيره فقد اشتراه . ﴿ بما أنزل الله ﴾ من القرآن . ﴿ بغياً ﴾ مفعول لأجله ليكفروا ، أي حسداً . ﴿ فباؤا ﴾ رجعوا . ﴿ بغضب ﴾ الغضب أشد من اللعن ، والتنكير للتعظيم ، والمعنى : فرجعوا وانقلبوا متلبسين بالغضب .

﴿ ويكفرون ﴾ الواو للحال . ﴿ بما وراءه ﴾ سواه أو بعده من القرآن . ﴿ وهو الحق ﴾ حال . ﴿ مصدقاً ﴾ حال ثانية مؤكدة . ﴿ فلِمَ تقتلون ﴾ قتلتم ، والخطاب للموجودين في زمن نبيّنا بما فعل آباؤهم ، لرضاهم به .

التفسير والبيان :

يعلم اليهود المعاصرون للنبي ﷺ أنه النبي المبشر به في التوراة : ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يَعْرِفُونَه كما يَعْرِفُون أبناءَهم ﴾ [البقرة ١٤٦/٢] ولكنهم لم يؤمنوا حسداً وبغياً ، فعقب الله على موقفهم بذمهم ذماً شديداً ، باختيارهم الكفر على الإيمان ، وبذل أنفسهم فيه ، وكأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع ، وكانت علة كفرهم محض العناد الذي هو نتيجة الحسد ، وخوف ضياع الزعامة والمال من أيديهم ، وكراهة أن ينزل الله الوحي من فضله على من يختاره من عباده ، فأصبحت عاقبتهم أنهم قد رجعوا بغضب من الله جديد لكفرهم بالنبي ﷺ ، بعد كفرهم بموسى عليه السلام وبمن جاء بعده من الأنبياء . ولهم بسبب كفرهم عذاب يصحبه إهانة وإذلال في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلهم الخزي وسوء الحال ، وأما في الآخرة فلهم الخلود في نار جهنم .

وإذا قال النبي ﷺ وأصحابه ليهود المدينة : آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله ، قالوا : إنما نؤمن بالذي أنزل علينا في التوراة ، ونكفر بما سواه وهو القرآن الذي جاء مصدقاً لها ، وهو الحق الذي لا شك فيه . فيرد الله عليهم : إن القرآن هو الحق من عند الله المصدق للتوراة التي معكم ، وكلاهما من عند الله ، فكيف

تكفرون ببعض الكتب وتؤمنون ببعضها ؟ بل إنكم لم تؤمنوا بالتوراة التي فيها تحريم القتل ، وقد قتلتم الأنبياء بغير حق ، فلم قتلتموهم إن كنتم بالتوراة مؤمنين ؟!

وقد نسب القتل إلى معاصري النبي ﷺ ؛ لأنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم الغابرين ، فأقروهم على القتل وغيره ، ولم يعدوه مخالفة أو معصية ، وفاعل الكفر ومجيزه سواء ، وطبع السوء ينتقل في الذرية ، وهم متضامنون متكافلون ، مصرون على إقرار أفعال السلف . فإن لم يوجد إقرار أو رضا ، فلا إثم على الأبناء ؛ لأن كل نفس مسؤولة عن حالها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

فقه الحياة أو الأحكام :

ليس من العقل السليم ، بل ولا من المصلحة الحقيقية للإنسان أن يؤثر الفاني على الباقي ، والشيء التافه الرخيص على الغالي الثمين ؛ لأن دوام الخير وبقاء النعمة أصون للمنفعة ، وأكرم للنفس ، لذا ندد القرآن بأفعال اليهود ، مقرراً : بئس الشيء الذي اختاروا لأنفسهم ، حيث استبدلوا الباطل بالحق ، والكفر بالإيمان .

وإذ لم يؤمن اليهود إيماناً كاملاً بالتوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى عليه السلام ، فلا أمل في إيمانهم بالقرآن .

وإن استمرارهم في طريق الكفر قديماً وحديثاً ،بعبادتهم العجل ، وإعنات موسى وكفرهم به ، وتكذيبهم محمداً ﷺ ، وكفرهم بالقرآن ، يبوئهم العذاب المهين : وهو ما اقتضى الخلود الدائم في نار جهنم . أما تعذيب عصاة المؤمنين في النار فهو مؤقت ، وتمحيص لهم وتطهير ، كما يطهر المذنب في الدنيا بالعقاب ، مثل رجم الزاني وقطع يد السارق .

تكذيب ادعائهم الإيمان بالتوراة

وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

الإعراب :

﴿ ولقد جاءكم ﴾ اللام لام القسم .

﴿ واسمعوا ﴾ المراد به سماع تدبر وطاعة والتزام ، لا مجرد إدراك القول ، فهو مؤكد لقوله : ﴿ خذوا ... ﴾ .

البلاغة :

﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ أي حبّ العجل ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها ﴾ [يوسف ٨٢/١٢] أي أهل القرية وأهل العير .

وفي قوله ﴿ أشربوا ﴾ استعارة مكنية ، شبّه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الإشراب . ﴿ بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ بالتوراة ؛ لأنه ليس في التوراة عبادة العجول ، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم ، كما قال قوم شعيب : ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ [هود ٨٧/١١] وكذلك إضافة الإيمان إليهم . وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ تشكيك في إيمانهم ، وقدح في صحة دعواهم له (الكشاف : ٢٢٧/١) .

المفردات اللغوية :

« البينات » المعجزات كالعصا واليد وفلق البحر . ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ جعلتموه إلهاً معبوداً . ﴿ من بعده ﴾ من بعد ذهابه إلى الميقات . ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ باتخاذه .

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ على العمل بما في التوراة . ﴿ الطور ﴾ الجبل . ﴿ بقوة ﴾ بجد واجتهاد . ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ خالط حبّ العجل قلوبهم ، كما يخالط الشراب الجسد . ﴿ بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ أي بئس شيئاً ، يأمركم به إيمانكم بالتوراة عبادة العجل . ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ بالتوراة ، كما زعمتم ، والمعنى : لستم بمؤمنين بالتوراة ، وقد كذبتم محمداً ، والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه .

التفسير والبيان :

لقد كفر اليهود بالنعم التي أنعم الله بها عليهم كما بان في الآيات السابقة والتي كانت في أرض الميعاد ، وكفروا أيضاً بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات التي جاء بها موسى ، والتي تدل على أنه رسول الله ، وأنه لاإله إلا الله . والآيات البينات : هي التي حدثت قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة ، وهي تسع كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تِسْعَ آياتٍ بيناتٍ ﴾ [الإسراء ١٠١/١٧] ، وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر والسّنون . ولم تزدهم تلك الآيات إلا توغلاً في الشرك والوثنية ، ولم يشكروا نعم الله عليهم ، وقابلوها باتخاذ العجل إلهاً يعبدونه من دون الله ، والعجل : هو الذي صنعه لهم السامري من حُلِيِّهم ، وجعلوه إلّهاً وعبدوه . وهذا دليل على قسوة قلوبهم وفساد عقولهم ، فلا أمل في هدايتهم ، وهو ظلم ووضع للشيء في غير موضعه اللائق به ، وأي ظلم أعظم من الإشراك بالله ؟

واذكر يا محمد وقت أن أُخذ عليهم الميثاق بأن يعملوا بما في التوراة ويأخذوا بما فيها بقوة ، فخالفوا الميثاق وأعرضوا عنه ، حتى رفع الطور عليهم إرهاباً لهم ، فقبلوه ، ثم خالفوه وكأنهم قالوا : سمعنا وعصينا ، ثم أوغلوا في المخالفة ووقعوا في الشرك ، واتخذوا العجل إلّهاً ، وخالط حبه قلوبهم ، وتمكن الحب الشديد لعبادة العجل في نفوسهم ، بسبب ما كانوا عليه من الوثنية في مصر .

قل يا محمد لليهود الحاضرين ، بعد أن علموا أحوال رؤسائهم السالفين : إن

كان إيمانكم بالتوراة يدعوكم إلى هذا ، فبئس هذا الإيمان الذي يوجه إلى هذه الأعمال التي تفعلونها ، مثل عبادة العجل ، وقتل الأنبياء ، ونقض الميثاق .

وهاتان الآيتان ردّ على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبيّ محمد ﷺ ، وزعموا أنهم مؤمنون بالتوراة دون غيرها ، فهم في الواقع لم يؤمنوا بشيء ، لا بالتوراة ولا بالقرآن ، فاستحقوا التوبيخ والتقريع .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الإيمان الصحيح بشيء هو الذي يدعو إلى الانسجام التام مع مقتضيات ذلك الإيمان ، فمن آمن بالتوراة بحق ، وجب عليه العمل بما فيها ، والتزام أوامرها ، واجتناب نواهيها ، وهذا يدعوه أيضاً إلى الإيمان بكل ما يؤيدها ويؤكدها ويقرر مضمونها ، وقد جاء القرآن مصدقاً لما في التوراة ، فلزم الإيمان به ، واتباع هديه .

أما اليهود في الماضي وفي عصر النبوة فعجيب أمرهم ، يدّعون الإيمان بالتوراة ، وهي التي ترشد إلى توحيد الإله وعبادته ، ثم يعبدون العجل ويتخذونه إلهاً ، ويكفرون بآيات الله ، ويخالفون الأنبياء ، ويكفرون بمحمد ﷺ ، وهذا أكبر الذنوب وأشد الأمور عليهم ، إذ كفروا بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس جميعاً .

فكيف يدّعون الإيمان لأنفسهم ، وقد فعلوا هذه الأفاعيل القبيحة من نقض الميثاق ، والكفر بآيات الله ، وعبادة العجل من دون الله ؟.

ومع ذلك عفا الله عنهم وقبل توبتهم لما تابوا عن عبادة العجل ، كما سبق في تعداد نعم الله عليهم .

حرص اليهود على الحياة

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

الإعراب :

﴿ خالصة ﴾ إما خبر كان ، أو حال من ﴿ الدار ﴾ ويجعل ﴿ عند الله ﴾ خبر كان .

﴿ أحدهم ﴾ الضمير يعود على اليهود ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾ هو : ضمير مرفوع منفصل اسم « ما » وهو كناية عن أحد ، و ﴿ أن يعمّر ﴾ في موضع رفع فاعل ﴿ مزحزح ﴾ كأنه قال : ما أحدهم يُزحزحه من العذاب تعميرُه .

البلاغة :

﴿ ولن يتمنوه ﴾ أتى هنا بـ ﴿ لن ﴾ وفي سورة الجمعة بـ ﴿ لا ﴾ لأن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك ، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة ، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس .

﴿ على حياة ﴾ التنكير للتنبيه على أنها حياة مخصوصة وهي التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين .

المفردات اللغوية :

﴿ خالصة ﴾ خاصة بكم .

﴿ أحرص الناس ﴾ الحرص : الطلب بشره ﴿ على حياة ﴾ أي على طول العمر ، لما يعلمون من مآلهم السيء ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة ؛ لأن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر . ﴿ لو يعمر ﴾ لو يطول عمره ﴿ مزحزحه ﴾ مبعده .

سبب نزول الآية (٩٤) :

أخرج ابن جرير الطبري عن أبي العالية قال : قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، فأنزل الله : ﴿ قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة .. ﴾ [البقرة ٢/٩٤] .

التفسير والبيان :

أمر النبي ﷺ أن يقول لليهود : إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة خالصة لكم من دون الناس ، وأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودات ، وأنكم شعب الله المختار ، فاطلبوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذي لا ينازعكم فيه أحد ، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء . ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ، مابقي على الأرض يهودي إلا مات . قال ابن عباس : « ولو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه » .

وروي عن ابن عباس أن المراد : ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب منا ومنكم ، فأبوا ذلك وما دعوا ، لعلمهم بكذبهم .

قال ابن كثير : هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين ، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة . والقول بتمني الموت لا تظهر فيه الحجة عليهم ، إذ يقال : إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود لو يعمر ، ليزداد خيراً ، وترتفع درجته في الجنة ، كما جاء في الحديث : « خيركم من طال عمره ، وحسن عمله »[1] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١/١٢٧ ـ ١٢٨

وعلى أي وجه أو حال : لن يتمنى الموت أحد منهم أبداً ، بسبب مااقترفوا من الكفر والفسوق والعصيان ، كتحريف التوراة ، وقتل الأنبياء والأبرياء ، والكفر بالنبي ﷺ ، مع البشارة به في كتابهم . والله يعلم أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم ، وأن غيرهم من الشعوب محروم منها ، وسيجازيهم على أعمالهم .

ثم يقسم الله تعالى بذاته العلية « وتا لله » لتجدن اليهود أحرص الناس على حياة طويلة ، بل وأحرص من جميع الناس حتى الذين أشركوا بالله ، ولم يؤمنوا بالبعث ، فهؤلاء المشركون يفترض أن يكونوا أحرص الناس على الحياة ، إذ هي الأولى والأخيرة عندهم ، فمشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ، ولا علم لهم من الآخرة .

ولكن اليهود الحريصين على الدنيا والمادة يتمنى أحدهم أن يعيش ألف سنة أو أكثر ـ والعرب تضرب الألف مثلاً للمبالغة في الكثرة ـ لأنه يتوقع عقاب الله في الآخرة ، فيرى أن الدنيا خير من الآخرة ، وما بقاؤه في الدنيا ـ وإن طال ـ بمبعده عن أمر الله وتعذيبه بالعذاب الأليم ، والله عليم بخفيات أعمالهم وبما يصدر منهم ، وهو مجازيهم به ويعاقبهم عليه .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات امتحان لمعرفة صدق إيمان اليهود ، ودحض دعاويهم الباطلة التي حكاها الله عز وجل في كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودةً ﴾ [البقرة ٨٠/٢] وقوله : ﴿ وقالوا : لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا من كان هُوداً أو نَصَارى ﴾ [البقرة ١١١/٢] وقالوا : ﴿ نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤه ﴾ [المائدة ١٠١/٥] وموضوع الامتحان تمني الموت ليحظوا بالسعادة الأبدية ، وبذل أرواحهم في سبيل الله ، والذود عن الدين وحرماته . ونتيجة الامتحان الإخفاق المحتم ؛ لأن اليهود

قوم ماديون يحبون البقاء في الدنيا ، ويكرهون لقاء الله ، فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون ، ويظلون في قلق وحيرة واضطراب دائم وشك يخيفهم ويزعج أعماق نفوسهم . والآية الكريمة من المعجزات المتضمنة الإخبار بالغيب ، الذي تحقق فعلاً ، فلم يقع منهم تمني الموت في عصر النبي ﷺ الذي قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من النار »[1] .

والله سبحانه وتعالى العليم الخبير بصير عالم بما يعمل هؤلاء الذين يود أحدهم أن يعمّر ألف سنة . قال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور . والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به ، ومنه قولهم : بصير بالطب ، وبصير بالفقه ، وبصير بملاقاة الرجال .

موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسل

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

الإعراب :

﴿ من ﴾ شرطية مبتدأ ، وجملة كان واسمها وخبرها : هي خبر المبتدأ . واسم كان ضمير تقديره هو ، و ﴿ عدواً ﴾ الخبر . و ﴿ جبريل ﴾ ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة . وجواب ﴿ من ﴾ الشرطية قوله : ﴿ فإنه ﴾ والهاء فيه تعود إلى جبريل ، و﴿ نزله ﴾ أي القرآن ، لدلالة الحال عليه ، مثل : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ [الدخان ٣/٤٤] أي القرآن ، ومثل ﴿ كل من عليها

(١) تفسير القرطبي : ٣٣/٢ . وفي بعض النسخ « ورأوا مقاعدهم »

فان ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٦] أي الأرض ، ومثل ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص ٣٨ / ٣٢] أي الشمس وإن لم يسبق له ذكر . ﴿ مصدقاً ﴾ حال منصوب من هاء ﴿ نزله ﴾ وكذلك ﴿ هدى ﴾ و﴿ بشرى ﴾ حال من هاء ﴿ نزله ﴾ . ﴿ فإن الله عدو للكافرين ، أقام المُظْهَر مقام المُضْمَر ، كقوله تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [يوسف ١٢ / ٩٠] أي أجرهم . وجملة ﴿ فإن الله عدو .. ﴾ جواب الشرط .

البلاغة :

﴿ نزله على قلبك ﴾ خص القلب بالذكر ؛ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف .

﴿ وجبريل وميكال ﴾ ذكرا بعد الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام للتشريف والتنويه . ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ الجملة اسمية لزيادة التقبيح ؛ لأنها تفيد الثبات . وأقام الظاهر مقام المضمر لبيان صفة الكفر وهو عداوتهم للملائكة .

المفردات اللغوية :

﴿ العدو ﴾ : ضد الصديق ، يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والمثنى والجمع . ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ وبشرى ﴾ بالجنة .

﴿ وجبريل وميكال ﴾ عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ ولم يقل : لهم ، بياناً لحالهم .

سبب نزول الآية (٩٧) :

أخرج الترمذي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال جبريل ، قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال ، ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك ؛ فأنزل الله الآية إلى قوله : للكافرين[1] .

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن

(١) تفسير القرطبي : ٢ / ٣٦ ، وأخرجه أيضاً أحمد والنسائي ، انظر أسباب النزول للسيوطي : ص ٢٣ ، والواحدي : ص ١٥

هـذه الآيـة نزلت جواباً لليهود من بني اسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عـدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله ، قالوا ذلك .

فروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : حضرت عصابـة من اليهود رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا أبا القـاسم ، حـدثنـا عن خلال نسـألـك عنهن لا يعلمهن إلا نبي ، فقال رسول الله ﷺ : « سلوا عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمـة ، ومـا أخـذ يعقوب على بنيـه : لئن أنـا حـدثتكم عن شيء ، فعرفتموه لتتـابعنني على الإسلام » فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله ﷺ : « سلوا عمـا شئتم » قـالوا : أخبرنـا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا : أي الطعـام حرم إسرائيل على نفسـه من قبل أن تنزل التوراة ، وأخبرنا : كيف مـاء المرأة ومـاء الرجل ، وكيف يكون الـذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة ومن وليـه من الملائكـة ، فقـال النبي ﷺ : « عليكم عهد الله ، لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني ؟ » فـأعطوه مـا شـاء الله من عهـد وميثـاق . فـأجـابهم عن الأسئلـة كلهـا ، وحينمـا قـال لهم : « إن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه » قالوا : إنه عدونا ، فـأنزل الله عز وجل : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ..﴾ .

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال : سمع عبد الله بن سلام بمقـدم رسول الله ﷺ ، وهو في أرض (يخترف) فأتى النبي ﷺ فقال : إني سـائلـك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي :

ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ ومـا ينزع الولـد إلى أبيـه أو إلى أمـه ؟ قـال : « أخبرني بهـذه جبريـل آنفـاً » قـال : جبريـل ؟ قـال : « نعم » ، قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ .

« أما أول أشراط السـاعـة : فنـار تحشر النـاس من المشرق إلى المغرب . وأمـا

أول طعام يأكله أهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت » .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني .

فجاءت اليهود : فقال لهم رسول الله ﷺ : « أي رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال : « أرأيتم إن أسلم ؟ » . قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج عبد الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : هو شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[1] .

قال ابن حجر في فتح الباري : ظاهر السياق أن النبي ﷺ قرأ الآية ، رداً على اليهود ، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ ، قال : وهذا المعتمد ، فقد صح في سبب نزول الآية قصة عبد الله بن سلام (السابقة) .

وجاء في بعض الروايات : أن أحد علماء اليهود من أحبار فَدَك عبد الله بن صوريا سأل النبي ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي ، فقال : هو جبريل ، فقال ابن صوريا : ذاك عدونا ، ولو كان غيره لآمنا به ، وقد عادانا جبريل مراراً ، ومن عداوته أن الله أمره أن يجعل النبوة فينا ، فجعلها في غيرنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وأنذر بخراب بيت المقدس . وميكال يجيء بالخصب والسلام .

وفي رواية أن عمر بن الخطاب دخل مِدْراسهم[2] ، فذكر جبريل ، فقالوا :

---

(١) تفسير الطبري ٢٤٢/١ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ١٢٩/١ ـ ١٣٠

(٢) المِدْراس : بيت تدرس فيه التوراة .

ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وأن ميكائيل مَلَك الرحمة ينزل بالغيث والرخاء .

التفسير والبيان :

قل أيها النبي لهم : من كان عدوّاً لجبريل ، فهو عدوٌّ لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها ، فإن الله نزله بالوحي والقرآن على قلبك بإذن الله وأمره ، والقرآن موافق لما تقدمه من الكتب كالتوراة والإنجيل الداعية إلى توحيد الله وأصول الأخلاق والعبادات ، وهو هداية من الضلالات ، وبشرى لمن آمن به بالجنة ، فكيف يكون طريق الخير سبباً للبغض والكراهية .

ثم أكد الله سبحانه حكمه المبرم وهو من كان عدوّاً لله بمخالفة أوامره ، وعدم إطاعته ، والكفر بما أنزله لهداية الناس ، وعدوّاً للملائكة بكراهة العمل بما ينزلون به من وحي ورسالة يبلغونها للناس ، وعدوّاً لرسل الله بتكذيبهم في دعوى الرسالة ، مع وجود الأدلة على صدقهم ، أو بقتل بعضهم كقتل زكريا ويحيى ، وعدوّاً لجبريل وميكائيل بادعاء أن الأول يأتي بالنذر ، فإن الله عدوٌّ له ومجازيه على ذلك ؛ لأنه كافر به ومعادٍ له ، وظالم لنفسه ، وتلك العداوة كفر صريح .

فقه الحياة أو الأحكام :

تعددت اعتذارات اليهود عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن ، فقالوا سابقاً : إنهم مؤمنون بالتوراة ، كافرون بغيرها ، وقالوا : إنهم ناجون حتماً في الآخرة ؛ لأنهم شعب الله وأحباؤه ، وقالوا هنا : إن جبريل أمين الوحي على محمد عدوهم ، فلا يؤمنون بما جاء به . فأبطل الله تعالى مزاعمهم ، وفند حججهم ، وأظهر تناقضهم ، وأبان لهم أن معاداة الله وملائكته ورسله سبب واضح قاطع لإنزال العقاب بهم في الدنيا والآخرة ، وفي هذا وعيد شديد ، وتنديد بأن اليهود أعداء

الحق والرسالات الإلهية وأعداء القرآن وسائر الكتب السماوية ؛ لأن معاداة أمين الوحي جبريل ، ومعاداة محمد ﷺ ، ومعاداة الكتب السماوية ، معاداة لكل الملائكة وسائر الأنبياء والكتب ؛ إذ إن المقصد منها واحد ، وهو هداية الناس ، وإرشادهم إلى الخير ، ولأن رسالة جميع الأنبياء واحدة ، والغاية منها متحدة ، فلا يصح التفريق بين الملائكة والرسل والكتب ، وكلها من مصدر واحد ، وتهدف خيراً مشتركاً ، وتدعو إلى توحيد الله ، وعبادته ، والالتزام بأصول الأخلاق والفضائل التي هي عنوان تقدم الفرد والجماعة .

كفرهم بالقرآن ونقضهم العهود

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

الإعراب :

﴿ بينات ﴾ حال .

﴿ أو كلما .. ﴾ الهمزة استفهام بمعنى التوبيخ ، والواو حرف عطف وكلما : نصب على الظرفية .

﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ الكاف حرف تشبيه ، لا موضع لها من الإعراب ، وموضع الجملة رفعٌ وصفٌ لفريق .

البلاغة :

﴿ رسول من عند الله ﴾ التنكير للتفخيم ، ووصف الرسول بأنه آت من عند الله لإفادة مزيد التعظيم ﴿ وراء ظهورهم ﴾ مثل يضرب للإعراض عن الشيء ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

المفردات اللغوية :

﴿ ولقد ﴾ اللام لام القسم ﴿ بينات ﴾ واضحات ﴿ الفاسقون ﴾ المتمردون من الكفرة ، قال الحسن البصري : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي ، وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره . واللام في ﴿ الفاسقون ﴾ للجنس ، والأحسن - كما قال الزمخشري - أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب .

﴿ عاهدوا عهداً ﴾ على الإيمان بالنبي إن خرج ، أو النبي ألا يعاونوا عليه المشركين . ﴿ نبذه ﴾ طرحه ، والمراد نقضه ، وهو جواب كلما ، وهو محل الاستفهام الإنكاري ﴿ بل ﴾ للانتقال .

﴿ وراء ظهورهم ﴾ أي لم يعملوا بما فيها من الإيمان بالرسول وغيره ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ مافيها من أنه نبي حق أو أنها كتاب الله .

سبب نزول الآية (٩٩) :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن عبد الله بن صوريا قال للنبي ﷺ : يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فأنزل الله في ذلك : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ .

وسبب نزول الآية (١٠٠) :

أن مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ، وذكر ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمد قال : والله ما عهد إلينا في محمد ، ولا أخذ علينا ميثاقاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أو كلما عاهدوا .. ﴾ الآية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ما جبل عليه اليهود من خبث النفس ونقض العهد ، وتكذيب رسل الله ، ومعاداة جبريل أمين الوحي عليه السلام ، أعقب ذلك أن من عادة اليهود التكذيب بايات الله ، وعدم الوفاء بالعهود ، وتكذيب الرسل ، والإعراض عن القرآن . وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ حيث عارضوا دعوته ، وأعرضوا عن القرآن الكريم .

التفسير والبيان :

والله لقد أنزلنا إليك يا محمد دلائل واضحات تدل على صدق رسالتك ، تقترن أصولها الاعتقادية ببراهينها ، وأحكامها العملية بوجوه منافعها وغاياتها المصلحية ، فلا تحتاج إلى دليل آخر يوضحها ، فهي كالنور يظهر الأشياء ، وهو ظاهر بنفسه ، ولا يكفر بها إلا المتمردون على آياتها وأحكامها من الكفرة ، الذين استحبوا العمى على الهدى ، حسداً لمن ظهر الحق على يديه ، وعناداً ومكابرة منهم .

إنهم كفروا بالله ، وكلما عاهدوا عهداً مع الله ، أو مع رسول الله نقضه فريق منهم : ﴿ الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ﴾ [الأنفال ٥٦/٨] بل نقضه أكثرهم ، ولم يوفوا به ، فاليهود غادرون بمن ائتمنهم ، خائنون الأمانة ، ناقضون العهود أو العقود والمواثيق ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم ، فنقضوه ، وأكثرهم لا يؤمنون بالتوراة ، وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدون نقض المواثيق ذنباً ، ولا يبالون به ، ولن يؤمنوا أيضاً بالنبي ﷺ وبالقرآن ، كأنهم لا يعلمون أن التوراة كتاب الله ، لا يدخلهم فيه شك ، يعني أن علمهم بذلك رصين ، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم .

ولما جاءهم محمد ﷺ بكتاب مصدق للتوراة في الأصول الدينية العامة ،

كتوحيد الله وإثبات البعث ، والتصديق بالرسل ، ترك فريق من اليهود كتاب الله وراء ظهورهم ـ **وهو تمثيل لتركهم** وإعراضهم عنه ، مثل أي شيء يرمى به وراء الظهر ـ استغناء عنه ، وقلة التفات إليه ؛ لأنهم لم ينفذوا بعض ما فيه ، ولم يؤمنوا به إيماناً حقاً كأنهم لا يعلمون أن من لم يؤمن بالقرآن الموافق للتوراة ، لا يكون مؤمناً بكل منهما ، وهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا سجل من قبائح اليهود أوضحه الله تعالى وهو من أخبار الغيب ، التي لا يعلمها إلا علام الغيوب ، وقد رصد فيه عيوب أربعة وهي :

١ ـ التكذيب بآيات الله وبيناته وأدلته الواضحة القاطعة على وجوده ووحدانيته وربوبيته ولزوم عبادته وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه .

٢ ـ عدم الثقة بهم في أي شيء ؛ لأنهم دأبوا على نقض العهود والغدر بالمعاهدين في كل زمان .

٣ ـ انقطاع الأمل وسد باب الرجاء في إيمان أكثرهم ؛ لأن الضلال قد استحوذ عليهم .

٤ ـ لم ينبذ فريق منهم كتاب الله « التوراة » جملة وتفصيلاً ، بل نبذوا منه ما يبشر بالنبي ﷺ ويبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به ، فإن ما في كتابهم من البشارة بنبي يجيء من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على هذا النبي الكريم .

اشتغال اليهود بالسحر والشعوذة والطلاسم

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ۚ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ اتبعوا ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ نبذ فريق ..﴾ و ﴿ تتلوا ﴾ أي تتبع بمعنى : تلت ، فأقام المستقبل مقام الماضي . ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ إما حال من ضمير ﴿ كفروا ﴾ أي كفروا معلمين ، أو حال من الشياطين ، أو بدل من ﴿ كفروا ﴾ لأن تعليم السحر كفر في المعنى ، أو خبر ثان لـ ﴿ لكنّ ﴾ . ﴿ وما أنزل ..﴾ ما : بمعنى الذي في موضع نصب بالعطف على السحر ، أو في موضع نصب بالعطف على ﴿ ما تتلوا ..﴾ أو في موضع جر بالعطف على ﴿ ملك سليمان ﴾ .

﴿ فيتعلمون ﴾ إما معطوف على ﴿ يعلّمان ﴾ أو معطوف على فعل مقدر ، وتقديره : يأتون فيتعلمون ، أو معطوف على ﴿ يعلمون الناس ﴾ أي يعلمونهم فيتعلمون ، أو يكون مستأنفاً ، وهو الأوجه ، والضمير لما دل عليه : من أحد .

﴿ وما هم بضارين به من أحد ﴾ أي ماهم السحرة بضارين بالسحر أحداً ، ومن : زائدة . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ، ماله في الآخرة من خلاق ﴾ اللام في ﴿ لمن اشتراه ﴾ لام الابتداء ، و ﴿ من ﴾ بمعنى الذي في موضع رفع ؛ لأنه مبتدأ ، وخبره ﴿ ماله في الآخرة ﴾ واشتراه : صلته ، و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة لتأكيد

النفي ، و ﴿ خلاق ﴾ مبتدأ ، و ﴿ له في الآخرة ﴾ خبره ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول الذي هو « مَن » ولام ﴿ لمن ﴾ علّقت ﴿ علموا ﴾ أن تعمل فيما بعدها . ويجوز أن تكون « من » شرطية .

﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أن ههنا مصدرية ، والتقدير : ولو وقع إيمانهم ، و ﴿ لو ﴾ حرف يمتنع له الشيء لامتناع غيره ، وجوابه ﴿ لمثوبة ﴾ و « مثوبة » مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة ؛ لأنه تخصص بالصفة وهو ﴿ من عند الله ﴾ فقرب من المعرفة ، وخبره : ﴿ خير ﴾ .

البلاغة :

﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ هذا جار على الأسلوب البلاغي : وهو أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزّل منزلة الجاهل به .

﴿ لمثوبة من عند الله ﴾ عبر بالجملة الاسمية لإفادة الثبوت والاستقرار .

المفردات اللغوية :

﴿ ماتتلو ﴾ أي تلت الشياطين على عهد ملك سليمان من السحر أي في زمان ملكه ، والمراد بالشياطين : شياطين الإنس والجن ﴿ وما كفر سليمان ﴾ أي وما سحر ، والسحر لغة : كل ما لطف مأخذه وخفي سببه ، وسحره : خدعه ، والملكان : رجلان صاحبا هيبة ووقار يجلها الناس ويحترمونها . وبابل : بلد بالعراق في أرض الكوفة لها شهرة تاريخية قديمة ﴿ فتنة ﴾ اختبار وابتلاء ﴿ اشتراه ﴾ استبدل ماتتلو الشياطين ﴿ خلاق ﴾ نصيب وحظ ﴿ شروا ﴾ باعوا . ﴿ لمثوبة ﴾ : المثوبة : الثواب . وكان أهل بابل قوماً صابئين يعبدون الكواكب السبعة ، ويسمونها آلهة ، ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطّلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى إليهم ابراهيم خليله صلوات الله عليه ، فدعاهم إلى الله تعالى ، وحاجهم بما بهرهم به وأقام عليهم به الحجة[1] .

سبب نزول الآية (١٠٢) :

قال محمد بن إسحاق : قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون من محمد ، يزعم أن سليمان كان نبياً ؟ والله ما كان إلا ساحراً ، فأنزل الله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ .

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ١ / ٤٣

وأخرج الطبري عن شهر بن حوشب قال : قالت اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، أفما كان ساحراً يركب الريح ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أن اليهود سألوا النبي ﷺ زماناً عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوه عنه ، فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك ، قالوا : هذا أعلم بما أنزل إلينا منا ، وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به ، فأنزل الله : ﴿ واتَّبعوا ماتَتْلوا الشياطين ﴾ .

وقال الكلبي : إن الشياطين كتبوا السحر والنَّيرنجيات (تصرفات تخيل وليست حقيقة ، وهو أخذ كالسحر وليس به) على لسان آصف : هذا ما علَّم آصف بن بَرخيا ـ كاتب نبي الله سليمان ـ الملك ، ثم دفنوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه ، ولم يشعر بذلك سليمان . ولما مات سليمان استخرجوه من تحت مصلاه ، وقالوا للناس : إنما ملَكَكُمْ سليمان بهذا فتعلموه ، فلما علم علماء بني إسرائيل قالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان . وأما السفلة فقالوا : هذا علم سليمان ، وأقبلوا على تعلمه ، ورفضوا كتب أنبيائهم ؛ ففشت الملامة لسليمان ، فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمداً ﷺ ، وأنزل الله عذر سليمان على لسانه ، وأنزل براءته مما رمي به ، فقال : ﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين ﴾ .

المناسبة :

حين نبذ فريق من اليهود وهم أحبارهم وعلماؤهم التوراة ، وأعرضوا عنها ؛ لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ ، اشتغلوا بصناعات وأعمال صادّة عن الأديان ، من صنع شياطين الإنس والجن ، وهي السحر والشعوذة والطلاسم التي نسبوها إلى سليمان ، وزعموا أن ملكه كان قائماً عليها .

وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين ، فصدقوهم فيما زعموا منها ،

وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر . وإنما قص القرآن علينا ذلك للذكرى ، وليبين لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر ، فكان شاغلاً عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود . وقد زعموا أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه ، ثم استخرجها الناس وتناقلوها .

التفسير والبيان :

نبذ اليهود كتاب الله ، واتبع فريق من أحبارهم وعلمائهم الذين نبذوا التوراة ، السحر والشعوذة في زمن ملك سليمان ؛ لأن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، ويضمون إليه أكاذيب ، ثم يلقنونها الكهنة ، فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان ، وقام ملك سليمان بهذا . فرد الله عليهم بأن سليمان ما فعل ذلك ، وما عمل سليمان بالسحر ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدوينه وتعليمه الناس على وجه الإضرار والإغواء ، ونسبته إلى سليمان على وجه الكذب وجحد نبوته ، ويعلمونهم ما أُنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران صالحان قانتان ، أطلق الناس عليهما ملكين من باب الشبه . وقرأ الحسن البصري : المِلكين ـ بكسر اللام تشبيهاً بالملوك في الخلق وسماع الكلمة .

وكان هذان الملكان يعلمان الناس السحر الذي كثرت فنونه الغريبة في عصرهم ، ليتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدّعون النبوة من السحرة كذباً إنما هم سحرة ، لا أنبياء . وقد كان تعلمها السحر بالإلهام دون معلم ، وهو المقصود بالإنزال ، والذي أنزل عليهما كان من جنس السحر ، لا عينه .

ولكن هذين الملكين اتبعا في تعليم السحر سبيل الإنذار والتحذير ، فلا يعلمان أحداً من الناس ، حتى يقولا له : إنما نحن ابتلاء واختبار من الله عز

وجل ، فلا تعمل بالسحر ولا تعتقد تأثيره ، وإلا كنت كافراً ، أما إذا تعلمته لتعلمه فقط دون اعتقاد بحقيقته ولا تأثير له ولا عمل به ، فلا ضرر ، وكانا يقولان ذلك حفاظاً على حسن اعتقاد الناس فيهما .

فتعلم الناس من الملكين ما يفرّق به بين المرء وزوجه ، أو ماهو تمويه من حيلة أو نفث في العُقَد أو تأثير نفس وغير ذلك من وسائل التفريق غالباً .

والمعنى في عطف ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ على قوله ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ أن اليهود اتخذوا السحر من الملكين لا على الوجه المراد من توقي الناس وتحذيرهم ، وقد ألهما فنون السحر ليعلّما الناس حيل السحرة وخِدَعهم .

والسحر في الحقيقة لا يؤثر بطبعه ولا بقوة ذاتية فيه ، فلا يحدث الضرر منه إلا بأمر الله وإرادته ، فهو مجرد سبب ظاهري فقط ، وإذا أصيب إنسان بضرر بعمل من أعمال السحرة ، فإنما ذلك بإذن الله تعالى ، وما السحر حينئذ إلا وسيلة أو سبب قد يرتبط المسبب أو النتيجة به ، إذا شاء الله ، فهو الذي يوجد المسببات حين حصول الأسباب ، قال الحسن البصري : من شاء الله منعه ، فلا يضره السحر ، ومن شاء خلى بينه وبينه فضره .

ومن تعلم السحر وعمل به فإنه يتعلم ما يضره ولا ينفعه ؛ لأنه كان سبباً في إضرار الناس ولأنه قصد الشر ، فيكرهه الناس لإيذائه ، ويعاقبه الله في الآخرة لإضراره غيره ، وإفساده المصالح ، وكل عامل يجزى بما عمل .

وتالله لقد علم اليهود بأن من ترك كتاب الله وأهمل أصول الدين وأحكام الشريعة التي تسعد في الدارين ، واستبدل به كتب السحر ، ماله في الآخرة إلا العذاب الأليم ؛ لأنه قد خالف حكم التوراة التي حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان كعقوبة عابد الأوثان .

ولبئس ما باعوا به أنفسهم باتخاذ السحر محل التوراة ، فهم جهلة لا يعلمون حرمة السحر علم اعتقاد وامتثال ؛ لأنهم لم يعملوا بالعلم الصحيح ، وإنما اكتفوا بعلم مبهم لا أثر له في النفس .

ولو أنهم أي اليهود آمنوا الإيمان الحق بالتوراة ، وفيها البشارة بنبي آخر الزمان ، وآمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن ، وتركوا كتب السحر والشعوذة ، واتقوا الله بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه ، لاستحقوا الثواب العظيم من عند الله ، جزاء على أعمالهم الصالحة ، وهو خير لهم لو كانوا يعلمون العلم الصحيح ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا على علم حقيقي وإنما على ظن وتقليد ، إذ لو كانوا على علم ، لظهرت نتائجه في أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه وصاروا من المفلحين ، ولما خالفوا كتاب الله ، واتبعوا أهواءهم . فهم حين لم يعملوا بعلمهم الأصيل ، جعلوا كأنهم غير عالمين .

فقه الحياة أو الأحكام :

السحر : أصله التمويه بالحيل والتخاييل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ماهي به ، كالذي يرى السراب من بعيد ، فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة بسرعة يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه .

وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع كثيرة ، ولا سيما في قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخييل للأعين حتى ترى ماليس بكائن كائناً ، كما قال تعالى : ﴿ يُخيَّلُ إليه من سِحْرِهم أنها تَسْعى ﴾ [طه ٢٠/٦٦] وقال : ﴿ فلما ألْقَوْا سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ واسترهبوهم ﴾ [الأعراف ٧/١١٦] .

وروى مالك وأبو داود عن بُريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن

من البيـــان لسحراً ، وإن من العلم جهـــلاً[١] ، وإن من الشعر حكمـــاً ، وإن من القول عيالاً » أمـا قولـه : « إن من البيـان لسحراً » فـالرجل يكون عليـه الحق ، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه ، فيذهب بالحق . وهذا مـــذمـوم . وهـو المراد بـــالحـــديث في الأصـح ، أمـــا السحر الحـلال الـــذي أقره النبي ﷺ : فهو أن ينبئ شخص عن حق فيوضحه ، ويجليه بحسن بيـانـه ، بعـد أن كان خفياً .

والسحر : إما حيلة بخفـة يـد ، وشعوذة ، وإمـا صنـاعـة وعلم خفي يعرفـه بعض الناس .

وهل للسحر حقيقة أم لا ؟ اختلف الناس في ذلك[٢] .

فرأى جمهور العلمـاء : أن للسحر حقيقـة ، يخلق الله عنـده مـا شـاء ، وأنـه تقتدر به النفوس البشرية على التأثير في عالم العنـاصر ، إمـا بغير معين ، أو بمعين من الأمور كالكواكب السماوية ، ويرون أن النفوس الساحرة ثلاث مراتب :

الأولى ـ المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا مُعين .

والثـانيـة ـ بمعين من مـزاج الأفـلاك (أي طبيعتهـا) ، أو العنـاصر (المـاء والهواء والتراب والنار) ، أو خواص الأعداد ، أي حـساب الجُمّل ، فلكل حرف من الأحرف الهجائية رقم حسابي معين .

والثالثة ـ تأثير في القوى المتخيلة : بأن يعمـد الشخص إلى القوة المتخيلـة ،

---

(١) ومعنى قـولـه « من العلم جهلاً » أن يتكلف العـالم إلى علمـه مـالا يعلم فيجهّله ذلـك . ومعنى قوله : « إن من الشعر حكماً » : هو هذه الأمثال والمواعظ التي يتعظ بها النـاس . ومعنى « إن من القول عيالاً » هو عرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ولا يريده .

(٢) تفسير القرطبي : ٤٤/٢ ـ ٤٧ ، تفسير ابن كثير : ١٤٥/١ ـ ١٤٧ ، تفسير الكشـــاف : ٢٣١/١ ، البحر المحيط : ٣٢٧/١

فيلقي فيها أنواعاً من الخيالات والصور ، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين ، بقوة نفسه المؤثرة ، فينظر الراءون كأن شيئاً موجوداً في الواقع ، وليس هناك شيء من ذلك .

وتنال هذه المراتب بالرياضة ، والتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة ، فهي لذلك وجهة وسجود لغير الله ، والوجهة لغير الله كفر ، فلهذا كان السحر كفراً .

ويرى المعتزلة ، وبعض أهل السنة[1] : أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو خداع وتمويه وتخيل . والسحر بهذا المعنى أنواع :

أ ـ كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها ، كما يفعل بعض المشعوذين ، من أنه يريك أنه ذبح عصفوراً ، ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه ، لخفة حركته ، إذ إن معه اثنين أحدهما المذبوح الذي خبأه ، والآخر الذي أظهره .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وكان سحر سَحَرة فرعون من هذا النوع ، فقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصي بصور الحيات والثعابين حتى خيل إلى الناس أنها تسعى ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا حبالُهم وعِصيُّهم يُخَيَّلُ إليه من سِحْرهم أنها تَسْعى ﴾ [طه ٢٠/٦٦] من طريق تحمية الزئبق بالنار الموضوعة في أسراب ، وتمدده بفعل الحرارة .

ب ـ ما يدعونه من حديث الجن والشياطين بالمواطأة مع قوم أعدوهم لذلك ، وإطاعتها بالرقى والعزائم . وهذا كان فعل الكهان من العرب في

---

(١) وهم أبو جعفر الاسترابادي من الشافعية ، وأبو بكر الرازي من الحنفية ، وابن حزم الظاهري وطائفة .

الجاهلية ، كانوا يوكلون أناساً بالاطلاع على أسرار الناس ، حتى إذا جاء أصحابها أخبروهم بها ، فيعتقدون فيهم أن الشياطين تخبرهم بالمغيبات .

جـ ـ السعي بالنميمة والوشاية والإفساد ، من وجوه خفية لطيفة ، يتم فيها تحريض الناس على بعضهم بعضاً[١] .

وقد وفق ابن خلدون بين الرأيين : فمن قال : إن للسحر حقيقة نظر إلى المرتبتين الأوليين ، ومن قال بأنه لا حقيقة له ، نظر إلى المرتبة الثالثة .

حكم السحر :

ليس تعلم السحر محظوراً ، وإنما الذي يُحظَر ويُمنع هو العمل به ، قيل لعمر بن الخطاب : فلان لا يعرف الشر ، قال : أجدر أن يقع فيه . نقل ابن كثير عن أبي عبد الله الرازي المعتزلي أنه قال : اتفق المحققون على أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور[٢] .

ومن السحر : ما يكون كفراً من فاعله ، مثل ما يدّعون من تغيير صور الناس ، وإخراجهم في هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر في ليلة ، والطيران في الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق ، فذلك كفر منه ، ويقتل هذا الساحر ؛ لأنه كافر بالأنبياء ، يدّعي مثل آياتهم ومعجزاتهم .

وأما من زعم أن السحر خُدَع ومخاريق وتمويهات وتخييلات ، فلا يقتل الساحر ، إلا أن يقتل بفعله أحداً ، فيُقتل به .

ولا ينكر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات ، مما ليس في مقدور البشر ، من مرض وتفريق وزوال عقل ، وتعويج عضو ، إلى غير ذلك ، مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٤٥/١

(٢) المرجع السابق : ص ١٤٤

وأجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماوات وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل المنزلة عليهم ، فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر .

الفرق بين معجزات الأنبياء عليهم السلام وبين السحر :

لا يصح لمؤمن أن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم وبين التصديق بأفعال السحرة ، لقوله تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ [طه ٢٠/٦٩] .

وهناك فرق واضح بين المعجزة والسحر القائم على وجوه التخييلات : وهو أن معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها ازددت بصيرة في صحتها . ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ، لظهر عجزهم عنها .

أما مخاريق السحرة وتخييلاتهم فهي نوع من الحيلة والتلطف لإظهار أمور لا حقيقة لها ، فما يظهر منها ليس على الحقيقة ، ويعرف ذلك بالتأمل والبحث . ومن شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتي بمثل ماقام به[1] .

والسحر يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون جماعة يعرفونه ، ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد ، والمعجزة لا يمكّن الله أحداً أن يأتي بمثلها وبمعارضتها[2] .

وخلاصة القول : إن الساحر لا قدرة له على شيء من الأمور الخارقة ، وإن

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٤٩/١

(٢) تفسير القرطبي : ٤٧/٢

السحر يعتمد في الغالب على الخداع والتخييلات والتمويهات ، وإن السحرة نصابون يسلبون أموال الناس ، وهم في فقر دائم ، ولو كانوا قادرين على ما يدعونه لأغنوا أنفسهم ، وحققوا الأمجاد بإزالة الممالك ، واستخراج الكنوز ، والغلبة على البلدان ، والاستغناء عن طلب مافي أيدي الناس ، كما قال أبو بكر الجصاص الرازي[1] .

يتبين مما ذكر ما يأتي :

١ ـ السحر في اللغة : كل مالطف مأخذه وخفي .

٢ ـ السحر كما وصفه القرآن تخيل يخدع الأعين ، فيريها ماليس كائناً أنه كائن .

٣ ـ السحر إما حيلة وشعوذة أو صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ، ومنه تأثير الأرواح والتنويم المغناطيسي .

٤ ـ حكاية القرآن : ﴿ يُفَرِّقون به بين المرء وزوجِه ﴾ ليس دليلاً على أن السحر يفعل هذا ، وإنما هي حكاية لما كان معروفاً عندهم .

٥ ـ السحر لا يؤثر بطبعه ولا أثر له في نفسه ، وإنما هو سبب ، وما يترتب عنه من أضرار من قبيل ربط المسببات بالأسباب ، كما نصت الآية : ﴿ وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ [البقرة ١٠٢/٢] .

٦ ـ دلت الآية على أن **عمل السحر كفر** وهو قول مالك وأبي حنيفة ، لقوله تعالى : ﴿ واتَّبعُوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ أي من السحر ، وقوله : ﴿ وما كفَر سليمان ﴾ أي بعمل السحر ، وقوله : ﴿ ولكنَّ الشياطينَ كَفَرُوا ﴾ أي به وبتعليمه ، وقوله عن هاروت وماروت : ﴿ إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفرْ ﴾ .

---

(١) أحكام القرآن : ٤٨/١

ورأى الشافعي أن السحر معصية : إن قتل بها قتل ، وإن أضرّ بها أُدّب على قدر الضرر . والرأي الأول أصح ؛ لأن السحر كلام يعظم به غير الله تعالى ، مثل سحر أهل بابل الذي كان تعظيماً للكواكب ، وهو رأي عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى الأشعري وقيس بن سعد وسبعة من التابعين .

لكن تكفير السحرة محصور بمن يعظم الكواكب ، ويسند الحوادث إليها ، أو يزعم أنه يقدر على خوارق العادات ؛ لأنه يدعي أنه يقدر على مثل معجزات الأنبياء .

أما الإفساد بالنميمة أو خفة اليد ، دون ادعاء ماذكر ، فلا يكون كفراً ، ولا يعد فاعله كافراً .

٧ ـ **عقوبة الساحر** : للعلماء رأيان في قتل الساحر ، قال الجمهور (أبو حنيفة ومالك وأحمد) : يقتل الساحر ، لقوله ﷺ : « حدُّ الساحر ضربه بالسيف »[1] وإذا عمل المسلم السحر ، كان مرتداً ، فيقتل لقوله ﷺ : « من بدّل دينه فاقتلوه » .

ويقتل الساحر ولا تقبل توبته في رأي أبي حنيفة ، سواء أكان مسلماً أم ذمياً ؛ لأن الساحر جمع إلى كفره السعي في الأرض بالفساد ، فأشبه المحارب (قاطع الطريق) . ولا يقتل الساحر الذمي في رأي مالك إلا أن يَقْتل بسحره ، ويضمن ما جَنَى ، ويُقْتل إن جاء منه مالم يعاهد عليه[2] .

٧ ـ أجاز سعيد بن المسيب والمزني أن يطلب من الساحر حل السحر عن المسحور ، قال ابن بطال : وفي كتاب وَهْب بن مُنَبِّه : أن يأخذ سبع ورقات من

---

(١) أخرجه الترمذي عن جُنْدَب ، لكنه ليس بالقوي ، انفرد به إسماعيل بن مسلم ، وهو ضعيف .

(٢) أحكام القرآن للجصاص : ٥٠/١ ومابعدها ، تفسير القرطبي : ٤٧/٢ ومابعدها .

سدْر أخضر ، فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ، ويقرأ عليه آية الكرسي ، ثم يحسو منه ثلاث حَسَوات ، ويغتسل به ، فإنه يذهب عنه كل مابه ، إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حُبِس عن أهله .

٨ ـ تساءل ابن العربي بمناسبة ﴿ وماأنزلَ على الملكين ﴾ فقال : كيف أنزل الله تعالى الباطل والكفر ؟ ثم قال : كل خير أو شر أو طاعة أو معصية أو إيمان أو كفر منزّل من عند الله تعالى ؛ قال النبي ﷺ في الصحيح : ماذا فتح الليلة من الخزائن ؟ ماذا أنزل الله تعالى من الفتن ؟ أيقظوا أصحاب الحُجَر ، رُبَّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة[1] .

٩ ـ هل هاروت وماروت ملَكان ؟ اختلف العلماء ، فقال جماعة : هما ملكان بعثهما الله يبينان للناس بطلان ما يدعون حقيقته ، ويكشفان لهم عن وجوه الحيل التي يخدعون بها الناس ، وينهيانهم عن العمل بها ، يقولان : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ فكانا يعلمانهم للتحرز لا للعمل ، لأن الملائكة أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله : ﴿ لا يَعْصُون الله ما أَمَرَهُم ويَفْعَلُون ما يُؤْمرون ﴾ [التحريم ٦/٦٦] ، ﴿ بل عباد مُكْرَمون ، لا يَسْبِقُونه بالقولِ ، وهم بأمرِه يَعْملون ﴾ [الأنبياء ٢٦/٢١ ـ ٢٧] ، ﴿ يُسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرون ﴾ [الأنبياء ٢٠/٢٠] .

قال الزمخشري : والذي أنزل على الملكين هو علم السحر ، ابتلاء من الله للناس ، من تعلمه منهم وعمل به ، كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه ، لا ليعمل به ، ولكن ليتوقاه ولئلا يغتربه ، كان مؤمناً :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وروي عن الحسن البصري : أنه كان يقرأ : ﴿وماأنزل على المِلكين ﴾ بكسر

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٢٨/١ ، وانظر أيضاً تفسير ابن كثير : ١٤٨/١

اللام ، ويقول : كانا علجين[1] أقلفين (غير مختونين) ملكين ببابل ، يأمران بالسحر ويتمسكان به .

أدب الخطاب مع النبي ﷺ ومصدر الاختصاص بالرسالة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

الإعراب :

﴿ راعنا ﴾ جملة فعلية في موضع نصب بـ ﴿ تقولوا ﴾ ومن قرأ « راعناً » بالتنوين ، نصبه بـ ﴿ تقولوا ﴾ على المصدر ، أي لا تقولوا رعونة .

﴿ من أهل الكتاب ﴾ من للبيان ﴿ من خير ﴾ من زائدة ، والتقدير : خير من ربكم .

البلاغة :

﴿ من ربكم ﴾ الإضافة للتشريف ، وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم . ومن لابتداء الغاية .
﴿ والله يختص ﴾ ﴿ والله ذو الفضل ﴾ التصدير في الجملتين بلفظ الجلالة ، للإيذان بفخامة الأمر .

المفردات اللغوية :

﴿ راعنا ﴾ أمر من المراعاة ، أي راعنا سمعك أي اسمع لنا مانريد أن نسألك عنه أو انظر في مصالحنا وتدبير أمورنا ، وكان يقولون له ذلك ، وهي بلغة اليهود سب من الرعونة وهي الجهل

---

(١) العلج : الواحد من كفار العجم .

والحق ، فسرُّوا بذلك ، وخاطبوا بها النبي ، فنهي المؤمنون عنها . وأمروا أن يقولوا بدلها : ﴿ انظرنا ﴾ أي انظر إلينا ، أو انتظرنا وتأنَّ علينا وأمهلنا ﴿ أليم ﴾ مؤلم وهو النار .

سبب نزول الآية (١٠٤) :

قال ابن عباس في رواية عطاء : وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها ، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك ، وكان « راعنا » في كلام اليهود سباً قبيحاً ، فقالوا : إنا كنا نسب محمداً سراً ، فالآن أعلنوا السب لمحمد ، فإنه من كلامه ، فكانوا يأتون نبي الله ﷺ فيقولون : يا محمد راعنا ، ويضحكون ، ففطن بها رجل من الأنصار ، وهو سعد بن معاذ ، وكان عارفاً بلغة اليهود ، وقال : ياأعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم لأضربنّ عنقه ، فقالوا : ألستم تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا : راعنا ﴾ الآية[1].

سبب نزول الآية (١٠٥) :

قال المفسرون : إن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود : آمنوا بمحمد ﷺ ، قالوا : هذا الذي تدعوننا إليه ، ليس بخير مما نحن عليه ، ولوددنا لو كان خيراً ، فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم .

التفسير والبيان :

خاطب الله المؤمنين في هذه الآية في شأن مشترك بينهم وبين اليهود ، موجهاً لهم إلى ما هو الأمثل في اختيار اللفظ الذي يبدأ به الكلام مع النبي ﷺ ،

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٨ ويلاحظ أن الواحدي ذكر « سعد بن عبادة » والذي عليه المفسرون أنه « سعد بن معاذ » .

فكانوا يقولون إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم : راعنا سمعك ، أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ، ونراجعك القول لنفهم عنك .

وكانت الكلمة ﴿ راعنا ﴾ عند اليهود كلمة سب قبيح من الرعونة ، فكانوا يخاطبون بها النبي قاصدين معنى السب والشتم ، وأصلها في العبرية « راعينو » أي شرير ، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة ، وأمرهم بكلمة تماثلها في المعنى ، وتختلف في اللفظ ، وهي ﴿ انظرنا ﴾ التي تفيد معنى الإنظار والإمهال ، كما تفيد معنى المراقبة التي تستفاد من النظر بالعين . وإجمال المعنى : أقبل علينا وانظر إلينا .

واسمعوا أيها المؤمنون القرآن سماع قبول وتدبر وإمعان ، وللكافرين ومنهم اليهود عذاب مؤلم شديد ، وفيه إشارة إلى أن ما صدر منهم من سوء أدب في خطاب النبي ﷺ كفر ؛ لأن من يصف النبي بأنه شرير ، فقد أنكر نبوته . فهذا أدب للمؤمنين ، وتشنيع على اليهود .

وأنتم أيها المؤمنون الذين عرفتم شأن اليهود مع أنبيائهم كونوا على حذر ، فما يود أهل الكتاب ومشركو العرب أن ينزل عليكم خير من ربكم كالقرآن والرسالة ، والكتاب الكريم أعظم الخيرات ، فهو الهداية العظمى ، وبه جمع الله شملكم ووحد صفوفكم ، وطهر عقولكم من زيغ الوثنية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وهم يودون نزول الشر بكم وانتهاء أمركم وزوال دينكم .

وحسد الحاسد لا يمنع نعم الله ، والله العليم القدير الحكيم يختص بالنبوة والرحمة والخير من يشاء من عباده : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام ١٢٤/٦] ويعلم من يؤدي واجبه بشأنها خير أداء ، فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه ، وفضل أوتيه من عند ربه ، فالله وحده صاحب الفضل العظيم .

فقه الحياة أو الأحكام :

هاتان الآيتان تذكران شيئاً من جهالات اليهود وقبائحهم ، كما سبق ، والمقصود نهي المسلمين عن مثل أفعال اليهود ، وترسيخ عقيدتهم بأن مصدر الخير والرحمة واختيار من هو أهل للنبوة والرسالة هو الله تعالى ، فلا يصح لأحد أن يحسد أحداً على ما آتاه الله من فضله ، وبدئت الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وهو أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة ، من ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن ذكر فيها هذا الخطاب الدال على إقبال الله على المؤمنين ، وتذكيرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بأتم طاعة وأحسن امتثال .

وموضوع هذا الأدب الجميل : هو أن يتجنب المؤمن في مخاطبة النبي ﷺ ما قد يوهم الانتقاص أو الاستهزاء ، ومنعاً من استغلال الأعداء استعمال لفظة أو غيرها ، وقد كان اليهود يعنون بكلمة ﴿ راعنا ﴾ السب والشتم ، ويخاطبون بها النبي ﷺ ، ويضحكون فيما بينهم ، فقال لهم سعد بن معاذ ، وكان يعرف لغتهم : عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ، لأضربنّ عنقه .

وفي تعبير ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ إيماء إلى أن ما صدر من اليهود من سوء الأدب في خطابه ﷺ كفر لا شك فيه ؛ لأن من يصف النبي ﷺ بأنه « شرير » فقد أنكر نبوته ، ومن فعل ذلك فقد كفر .

ففي هذه الآية (١٠٤) دليلان :

أحدهما ـ على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض من قدر النبي ﷺ ، وهو يؤكد مذهب المالكية ـ وفي رواية عن أحمد ـ القائلين بوجوب حد القذف حال التعريض بالقذف ، وخالفهم الحنفية والشافعية ، وأحمد

في ظاهر الرواية عنه حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة .

الثاني ـ التمسك بسد الذرائع وحمايتها وهو مذهب الإمامين مالك وأحمد ، والذريعة : عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه ، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع ، أي أن كل وسيلة مباحة أدت إلى محظور أو ممنوع فهي حرام ، وكل وسيلة أدت إلى مطلوب شرعاً فهي مطلوبة ، أي أن وسيلة الحرام حرام ، ووسيلة الواجب واجبة ، ووسيلة المباح مباحة .

وقوله تعالى : ﴿ لا تقولوا : راعنا ﴾ نهي يقتضي التحريم ، سداً للذرائع ، حتى لا يتخذ اللفظ المحتمل ذريعة لشيء قبيح . وقوله سبحانه : ﴿ وقولوا : انظرنا ﴾ أمر للمؤمنين أن يخاطبوه ﷺ بالإجلال . وقوله عز وجل : ﴿ واسمعوا ﴾ يفيد وجوب السماع لما أمر به ونهى جل وعز .

ودل قوله تعالى : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء ﴾ على سد باب الحسد ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ﴿ يختص برحمته ﴾ أي بنبوته ، خص بها محمداً ﷺ . وقيل : الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً وحديثاً . ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه عنهم .

إثبات نسخ الأحكام الشرعية

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾
أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

الإعراب :

﴿ ماننسخ ﴾ ما شرطية في موضع نصب بفعل « ننسخ » و « ننسخ » مجزوم بها . و ﴿ ننسها ﴾ حذف منه المفعول الأول ، وتقديره « ننسكها » أي نأمر بتركها ، وهو مجزوم بالعطف على « ننسخ » المجزوم بما الشرطية ، وجواب الشرط : ﴿ نأت بخير منها ﴾ أي بالإضافة إلى مصالح العباد إليها في نفسها .

﴿ كما سئل ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ لأنها صفة لمصدر محذوف ، أي : أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى . و « ما » في « كما » مع الفعل بعدها في تقدير المصدر ، أي : كسؤال موسى ، والمصدر مضاف إلى المفعول .

البلاغة :

﴿ ألم تعلم ﴾ الاستفهام للتقرير ، والخطاب للنبي ﷺ ، والمراد : أمته ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وما لكم من دون الله ﴾ . أما إظهار لفظ الجلالة بدل الضمير في قوله تعالى : ﴿ أن الله ﴾ و ﴿ من دون الله ﴾ فهو لتكوين المهابة في النفوس .

﴿ ضل سواء السبيل ﴾ من إضافة الصفة للموصوف ، أي الطريق السوي ، وفيه تشنيع على من ظهر له الحق ، فعدل عنه إلى الباطل .

المفردات اللغوية :

﴿ ماننسخ ﴾ النسخ في اللغة : الإزالة ، يقال : نسخت الشمس الظل ، أي أزالته . وفي الاصطلاح الشرعي : رفع الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ عنه . والإنساء : إذهاب الآية من ذاكرة النبي ﷺ بعد تبليغه إياها ، فمعنى ﴿ ننسها ﴾ نبح لكم تركها ، من نسي : إذا ترك ، ثم تعدى بالألف . ﴿ نأت بخير منها ﴾ أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الأجر . ﴿ أو مثلها ﴾ في التكليف والثواب . ﴿ على كل شيء قدير ﴾ ومنه النسخ والتبديل .

﴿ ولي ﴾ الولي : القريب والصديق . والنصير : المعين ، والفارق بينهما أن الولي قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً عمن ينصره .

﴿ تسألوا ﴾ السؤال : الاقتراح المقصود به التعنت . ﴿ يتبدل ﴾ بدل وتبدل واستبدل : جعل شيئاً موضع آخر . ﴿ ضل ﴾ عدل وجار وأخطأ الطريق الحق . ﴿ سواء السبيل ﴾ السواء من كل شيء في الأصل : الوسط . ومنه قوله تعالى : ﴿ في سواء الجحيم ﴾ [الصافات ٥٥/٣٧] والسبيل : الطريق .

سبب نزول الآية (١٠٦) :

قال المفسرون : إن المشركين قالوا : أترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، ما في هذا القرآن إلا كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً ، مثل تغيير حد الزاني بالتعيير باللسان : ﴿ فآذوهما ﴾ والزانية بالإمساك في البيوت : ﴿ فأمسكوهن .. ﴾ إلى الجلد ، فأنزل الله : ﴿ وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ ﴾ الآية [النحل ١٠١/١٦] وأنزل أيضاً : ﴿ ماننسخْ من آية أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها ﴾ [البقرة ١٠٦/٢] .

سبب نزول الآية (١٠٧) :

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي كعب ورهط من قريش ، قالوا : يا محمد اجعل لنا الصفا ذهباً ، ووسع لنا أرض مكة ، وفجّر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بكَ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال المفسرون : إن اليهود وغيرهم من المشركين تمنوا على رسول الله ﷺ ، فمن قائل يقول : يأتينا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى موسى بالتوراة ، ومن قائل يقول : وهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي : ائتني بكتاب من السماء ، فيه من رب العالمين : إلى ابن أبي أمية ، اعلم أني قد أرسلت محمداً إلى الناس ؛ ومن قائل يقول : لن نؤمن لك ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رافع بن خزيمة ووهب بن زيد لرسول الله : يا محمد ، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء ، نقرؤه ، أو فجّر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ إلى قوله : ﴿ سواء السبيل ﴾ .

سبب نزول الآية (١٠٨) وما بعدها :

كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود ، حسداً للعرب ، إذ خصّهم الله برسوله ، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب ﴾ الآية (١٠٩) .

وأخرج ابن جرير الطبري عن مجاهد قال : سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، قال : نعم ، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل ، إن كفرتم ، فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ الآية .

التفسير والبيان :

نزل القرآن منجماً مفرقاً على وفق المناسبات والحوادث والوقائع ، أخذاً بمبدأ تربوي ناجح ألا وهو التدرج في التشريع لإصلاح المجتمع العربي الجاهلي تدريجياً ، ومراعاة للمصالح ، وتمكيناً من التخلص من العادات والتقاليد الموروثة شيئاً فشيئاً ، وإعداداً للحكم الشرعي المستقر ، بتقبل النفوس له وتربيتها على وفق الغاية الشرعية بنحو بطيء ، واقتناع عقلي ذاتي بأفق التشريع ومراميه البعيدة ، فإذا توافرت المصلحة العامة للأمة بقي الحكم ، وإن لم تتوافر عدّل أو بدل ونسخ .

والنسخ الذي هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر يكون إما بنسخ لفظ الآية ومعناها ، أو أحدهما ، أو بانتهاء الحكم المستفاد منها مع بقاء نصها . كل ذلك بحسب المصلحة أو الحاجة ، كالطبيب الذي ينوّع الأدوية والأغذية باختلاف الأزمنة والأمزجة والأحوال الصحية ، والأنبياء صلوات الله عليهم هم أطباء الأمة ، ومصلحو النفوس ، يوحى إليهم بتبديل الحكم الشرعي لمراعاة الأحوال الحاضرة أو المستقبلية ، فما قد يصلح علاجاً في الماضي قد لا يصلح في المستقبل . وذلك كله يدل على مرونة الإسلام .

وليس النسخ لظهور أو بداء المصالح الجديدة المقتضية لتغيير الحكم ، فالله سبحانه الناسخ يعلم الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو يتدرج في معالجة الأوضاع تبعاً للظروف والأحوال ، منعاً من المفاجأة وأحكام الطفرة ، كالتدرج في تحريم الخمر أو الربا الذي مرّ بمراحل أربع ، والتدرج في تقرير أحكام الجهاد من سلم مطلق إلى إعداد النفوس ، إلى فرضية القتال بحسب الضعف ، ثم بحسب القوة وكثرة العدد .

ومعنى الآية : ما نغير حكم آية ، أو نجعلك تنساها فلا تذكرها ، أو نأمر بتركها أو نؤجلها ، إلا أتينا بما هو خير منها للعباد بكثرة الثواب إن كان الناسخ أثقل أو تحقيق المصلحة إن كان الناسخ أخف ، أو مثلها على الأقل في التكليف والثواب .

قال الفخر الرازي : وقد جاء النسيان بمعنى الترك في قوله تعالى : ﴿ فنسيَ ولم نجدْ له عَزْماً ﴾ [طه ١١٥/٢٠] أي فترك ، وقال تعالى : ﴿ اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ [الجاثية ٣٤/٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ كذلك أتتك آياتنا ، فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسى ﴾ [طه ١٢٦/٢٠] .

ونسخ الحكم قد يكون ببدل أخف وأيسر ، كنسخ عدة المتوفى عنها زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ، أو ببدل مساوٍ كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة ، أو بأشق منه وثوابه أكثر كنسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين ، ونسخ حبس الزناة في البيوت إلى الجلد ، ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان لأنه كما في الحديث الثبت : « أفضل الأعمال أحمزها » أي أشقها ، وقد تكون الخيرية بإسقاط التكليف لا إلى بدل في رأي جمهور الأصوليين ، مثل نسخ وجوب تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ، ونسخ ادخار لحوم الأضاحي ، ونسخ تحريم المباشرة في ليالي رمضان ، بقوله سبحانه : ﴿ فالآن باشروهن ﴾ [البقرة ١٨٧/٢] ، ونسخ وجوب الإمساك بعد النوم في ليالي

رمضان ، ونسخ قيام الليل في حقه ﷺ .

أليس الله على كل شيء قدير ؟ فالله القادر على كل شيء لا يصعب عليه نسخ الأحكام .

وأليس الله ملك السموات والأرض ؟ فهو يملك كل ما في الكون أرضه وسمائه ، ويتصرف بحسب إرادته ومشيئته ، ويدبر الأمور حسبما يرى من المصلحة ، فله أن ينسخ ماشاء من الأحكام .

وليس لكم ولي سواه يتولى أموركم ، ولا ناصر ولا معين ينصركم ويعينكم غير الله وحده . وفي هذا نصح للمسلمين أن يعملوا بما يأمرهم به رسولهم ، وينتهوا عما نهاهم عنه .

ثم أتبع التحذير بالوعيد لمن يطلب المعجزات تعنتاً وعناداً ، فمن يترك الثقة بالآيات المنزلة بحسب المصالح ، ويطلب غيرها معاندة للنبي ﷺ ، كما طلبت اليهود من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، فقد اختار الكفر على الإيمان ، وضلّ عن الحق ، وترك السبيل السوي كما قال تعالى : ﴿ فماذا بعد الحقّ إلا الضلالُ ، فأنّى تُصْرَفُون ؟ ﴾ [يونس ٣٢/١٠] . ومعنى قوله تعالى : ﴿ أم تريدون أن تسألوا ﴾ بل تريدون ، أو هي على بابها في الاستفهام ، وهو إنكاري ، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين ، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع .

وقوع النسخ :

النسخ جائز عقلاً بإجماع أهل الشرائع ماعدا اليهود والنصارى ، وواقع شرعاً بإجماع المسلمين ، ماعدا أبا مسلم الأصفهاني .

ودليل الجواز العقلي : أنه لا يترتب على فرض وقوعه محال ، وهو معنى الجواز ؛ لأن أحكام الله تعالى إن لم يراع في شرعيتها مصالح العباد ، فذلك تابع

لمشيئة الله ، والنسخ فعل لله ، والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فقد يأمر بالفعل في وقت ، وينهى عنه في وقت ، كما أمر بالصيام في نهار رمضان ، ونهى عنه في يوم العيد .

أما لو راعينا في أحكام الله مصالح العباد ، وأن التشريع قائم على أساس المصالح ، كما تقول المعتزلة ، فالمصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان ، فما قد يكون مصلحة لشخص أو في زمن ، قد لا يكون مصلحة لشخص آخر أو في زمن آخر ، وما دامت المصالح تتغير ، والأحكام يراعى في تشريعها مصالح الناس ، فإن النسخ أمر ممكن غير محال ، ويكون جائزاً عقلاً .

وأدلة وقوع النسخ فعلاً كثيرة .

منها : إجماع الصحابة والسلف على أن شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة ، أي في غير أصول العقيدة والأخلاق ، مثل تحريم الشحوم ، وكل ذي ظفر على اليهود بسبب ظلمهم ، وأكلهم أموال الناس بالباطل بالربا وغيره .

ومنها : الإجماع على نسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس ، باستقبال الكعبة ، وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث ، ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان ، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ بالعفو عنه .

أما أبو مسلم الأصفهاني من علماء التفسير المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، فإنه أجاز النسخ مطلقاً بين الشرائع ، كما هو المشهور عنه ، ولكنه منع وقوعه في الشريعة الواحدة ، مستدلاً بقول الله تعالى في صفة القرآن : ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، تنزيلٌ من حكيمٍ حَميدٍ ﴾ [فصلت ٤١/٤٢] فلو وقع النسخ في القرآن ، لأتاه الباطل . وأجيب بأن النسخ إبطال ، لا باطل ؛ لأن النسخ حقّ وصدق ، والباطل ضدّ الحقّ ، كل ما في الأمر أن يصبح حكم المنسوخ غير معمول

به ، فلا دلالة في الآية على مطلوب الأصفهاني .

ثم إن كل آية قيل فيها : إنها منسوخة ، فإنه يؤولها تأويلاً إما بالتخصيص ، أو بانتهاء أمد الحكم الشرعي ، أو بالتقييد ببعض الأحوال ، أو الأشخاص ، ونحو ذلك ، كما فعل في آيات العدة وآيات القتال وغيرها الآتية .

أنواع النسخ :

للنسخ أحوال تسع أهمها ثلاث :

١ ـ نسخ التلاوة والحكم معاً : مثل نسخ صحف إبراهيم وموسى والرسل السابقين ، ومثل نسخ عدد الرضعات من عشر إلى خمس ، قالت عائشة رضي الله عنها كما في صحيح مسلم وغيره : « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن ، فنسخن بخمس رضعات ، فتوفي رسول الله ﷺ ، وهن فيما يتلى من القرآن » والقسم الأول منسوخ الحكم والتلاوة ، والقسم الثاني وهو الخمس منسوخ التلاوة باقي الحكم عند الشافعية .

٢ ـ نسخ التلاوة دون الحكم : مثل قول عمر رضي الله عنه : « كان فيما أنزل : الشيخ والشيخة إذا زنيا ، فارجموهما ألبتة ، نكالاً من الله ورسوله » ثبت في الصحيح : أن هذا كان قرآناً يتلى ، ثم نسخ لفظه ، وبقي حكمه .

وأضاف الحنفية أمثلة أخرى من القراءات الشاذة ، مثل قراءة ابن مسعود في صوم كفارة اليمين : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وقراءة ابن عباس : « فأفطر فعدّة من أيام أخر » وقراءة سعد بن أبي وقاص : « وله أخ أو أخت لأم ، فلكل واحد منهما السدس » .

٣ ـ نسخ الحكم دون التلاوة : وهو كثير ، مثل نسخ حكم آية الوصية للوالدين والأقربين ، ونسخ آية الاعتداد بحول كامل ، ونسخ آية الحبس للمرأة في

البيوت ، وإيذاء الرجل باللسان في حدّ الزنا ، ونسخ آية تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ .

ويجوز بالاتفاق نسخ نص القرآن بالقرآن ، والسنة المتواترة بمثلها ، وخبر الآحاد بمثله وبالمتواتر .

ويجوز عند الأكثرين نسخ المتواتر بالآحاد أي نسخ القرآن بغير القرآن ، والمتواتر بغير المتواتر ، ونفى الشافعي وقوعه وقال : لا ينسخ القرآن بالسنة ، ولا السنة بالقرآن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بخيرٍ منها أو مِثْلها ﴾ دلت الآية على أن الآتي بالبدل هو الله سبحانه ، وهو القرآن ، فكان الناسخ للقرآن هو القرآن ، لا السنة ، وأيضاً فإن الله جعل البدل خيراً من المنسوخ أو مثلاً له ، والسنة ليست خيراً من الكتاب ولا مثلاً له ، فلا تكون ناسخة له . ثم إن الآية ذيلت ببيان اختصاص ذلك التبديل بمن له القدرة الكاملة ، وهو الله تعالى ، فكان النسخ من جهته فقط ، وهو القرآن ، لا السنة . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا بدّلنا آية مكان آية ﴾ [النحل ١٠١/١٦] حيث أسند التبديل إلى نفسه ، وجعله في الآيات .

وأجيب بأن السنة من عند الله كالقرآن ، لقوله تعالى : ﴿ وما يَنْطِقُ عن الْهَوَى ، إن هو إلا وحيٌ يُوحَى ﴾ [النجم ٣/٥٣ـ٤] إلا أن القرآن معجز ومتعبد بتلاوته ، والسنة ليست كذلك . والمراد بالخيرية والمثلية هو في الأحكام بحسب مصلحة الناس ، لا في اللفظ ، فيكون الحكم الناسخ خيراً من الحكم المنسوخ لاشتماله على تحقيق مصالح العباد ، وقد تأتي السنة بما هو أنفع للمكلف ، مما يدل على أن هذه الآية ليست دالة على أن القرآن لا ينسخ بالسنة .

وقد وقع نسخ القرآن بالسنة في آية الوصية بالحديث المتواتر : « لا وصية لوارث » .

وقال الشافعي أيضاً : لا يجوز نسخ السنة بالقرآن ، ويتطلب كون الناسخ سنة أيضاً ؛ لأن الله تعالى في قوله : ﴿ لتُبيِّن للناسِ ما نُزِّل إليهم ﴾ [النحل ٤٤/١٦] جعل السنة بياناً ، فلو نسخت قرآناً ، خرجت عن كونها بياناً ، وذلك غير جائز .

وأجيب : بأن المراد بالبيان هو التبليغ ، سواء بالقرآن وغيره .

المراد بالآية في قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ :

ذهب الإمام محمد عبده إلى أن الآية لا يراد منها الآية القرآنية ، بل المراد المعجزات الدالة على صدق الرسل ، حيث يبدل الله معجزة الرسول السابق بالمعجزة التي يأتي بها الرسول الذي بعده ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ . وأجيب بأن هذه الآية جاءت للتمهيد في تحويل القبلة ، ونسخ التوجه إليها بالتوجه إلى الكعبة ، فهي في نسخ الأحكام المقررة بالآيات . والمراد بالآية إذا أطلقت : القطعة من السورة المتضمنة أمراً أو نهياً أو غير ذلك .

فقه الحياة أو الأحكام :

أجمع السلف على وقوع النسخ في الشريعة ، ودلت وقائع ثابتة على وقوعه . بغض النظر عن التعسف في تأويل الآيات المنسوخة ، وليس النسخ جهلاً بالحكم الأخير ، أو من باب البَدَاء ، بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة ، وحكم إلى حكم ، لنوع من المصلحة التشريعية الملائمة لحاجات الناس ، إظهاراً لحكمة الله ، وكمال مُلْكه ، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية ، وإنما كان يلزم البداء (الظهور بعد الخفاء أو ظهور مصلحة لم تكن ظاهرة للمشرع) لو لم يكن عالماً بمآل الأمور ، وأما العالم بذلك ، فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح ، كالطبيب المراعي أحوال العليل ، فراعى

ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ، فخطابه يتبدل ، وعلمه وإرادته لاتتغير ، فإن ذلك محالٌ على الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئاً واحداً ، والفرق بين النسخ والبداء : أن النسخ تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالاً فيحرّم ، أو كان حراماً فيحلّل . وأما البداء : فهو ترك ماعزم عليه ، وهذا يلحق البشر لنقصانهم .

والناسخ في الحقيقة هو الله تعالى ، والنسخ : إزالة ماقد استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخ عنه .

والمنسوخ : هو الحكم الثابت نفسه ، لا مثله ، كما تقول المعتزلة : بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل . وقادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الحسن صفة ذاتية للحسن لاتفارقه ، ومراد الله حسن . والفرق بين التخصيص والنسخ أن الأول قصر للحكم على بعض الأفراد ، والثاني قصر له على بعض الأزمان .

وجمهور العلماء على أن النسخ يختص بالأوامر والنواهي ، وأما الأخبار فلا يدخلها النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى . وقد يرد في الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق ، ثم تقيد في موضع آخر ، فيرتفع ذلك الإطلاق ، فليس هو من قبيل نسخ الأخبار ، وإنما هو من باب الإطلاق والتقييد ، مثل قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ ، أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ [البقرة ١٨٦/٢] ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال ، لكنه قيّد في موضع آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ فيكشف ماتَدْعون إليه إن شاء ﴾ [الأنعام ٤١/٦] .

موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفية الردّ عليه

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

الإعراب :

﴿ لو ﴾ مصدرية . ﴿ كفاراً ﴾ إما مفعول ثان « ليردونكم » أو منصوب على الحال من الكاف والميم في « يردونكم » . ﴿ حسداً ﴾ مفعول لأجله ، أي لأجل الحسد . ﴿ من عند أنفسهم ﴾ إما متعلق « بودّ » أو « بحسد » والوجه الأول أوجه .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المفردات اللغوية :

﴿ الحسد ﴾ تمني زوال نعمة الغير . ﴿ فاعفوا ﴾ اتركوهم ، والعفو : ترك العقاب على الذنب . ﴿ واصفحوا ﴾ أعرضوا فلا تجازوهم ، والصفح : إزالة أثر الذنب من النفس أو الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه ، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب . ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ نصره ومعونته ، وما يأمر فيهم من القتال والقتل ، وهو قتل بني قريظة ، وإجلاء يهود بني النضير وفرض الجزية عليهم . ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم .

سبب نزول الآية (١٠٩) :

قال ابن عباس : نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد : ألم تروا إلى ماأصابكم ، ولو كنتم على الحق ، ماهُزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم .

المناسبة العامة للآية (١٠٩) :

بعد أن نهى الله سبحانه في الآيات السالفة عن الاستماع لنصح اليهود ورفض آرائهم ، ذكر هنا وجه العلّة ، وهي أنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإسلام ويتمنون أن يحرموا منها ، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي والكيد له ونقض العهود ، وإنما يتمنون أن يرتد المسلمون عن دينهم .

التفسير والبيان :

تمنى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوا المسلمين عن دينهم وأن يعودوا كفاراً بعد أن كانوا مؤمنين ، حسداً لهم ، عن طريق التشكيك في الدين وإلقاء الشبه على المؤمنين ، وطلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أوّل النهار ويكفروا آخره ، ليتأسى بهم بعض ضعاف الإيمان .

وسبب ذلك : الحسد الكامن والخبث الباطن في نفوسهم ، لا ميلاً مع الحق ، ولا رغبة فيه . ومدعاة التمني : هو ماظهر لهم بالدليل الواضح أن الإسلام دين الحق الصحيح ، وأن محمداً على الحق ، فاعفوا عنهم أيها المسلمون واصفحوا عن أفعالهم ، واصبروا حتى يأتي نصر الله لكم ، ويأذن الله بالقتال ، ويأتي أمره فيهم : وهو قتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير وإذلالهم ، والله هو القادر على تحقيق النصر : ﴿ ولينصرنّ اللهُ من يَنْصُرُه ، إن اللهَ لقويٌّ عزيز ﴾ [الحج ٢٢/٤٠] .

ثم نبّه الله سبحانه إلى بعض وسائل النصر الذي وُعِدوا به : وهو أداء الصلاة كاملة الأركان ، تامة الأوصاف ، وأداء الزكاة للفقراء ، ففي الصلاة تتوطد دعائم الإيمان ، وتتقوى الصلة بالله والثقة به ، وتتوثق روابط الأخوة بالاجتماع في المساجد ، وفي الزكاة تتحقق سعادة المجتمع بإغناء الفقراء ، وتتجلى وحدة الأمة بتكافل أبنائها ، وتعاضد فئاتها ، وثواب كل ذلك مرصود لكم في الآخرة ، فكل ماتعملونه من خير ، تجدون جزاءه الكامل عند ربكم : ﴿ فمن يَعْمل مِثْقالَ ذرّة

خيراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة ٧/٩٩] والله عالم بجميع أعمالكم ، بصير بقليلها وكثيرها ، لا تخفى عليه خافية ، من خير أو شرّ ، فالصلاة والزكاة من أسباب النصر في الدنيا ، وكذلك من أسباب السعادة في الآخرة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

فقه الحياة أو الأحكام :

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من حسد المؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو ، أو الاحتمال ، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح .

ويأمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه . روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال : كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً ، إذ خصّهم الله برسوله ﷺ ، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب ، لو يردونكم ﴾ .

والحسد نوعان : مذموم ومحمود ، فالمذموم : أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ، سواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا . وهذا النوع الذي ذمّه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ أم يَحْسدُون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فَضْلِه ﴾ [النساء ٥٤/٤] وإنما كان مذموماً ؛ لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنعم على من لا يستحق .

وأما المحمود وهو المسمى بالغبطة أو المنافسة ، فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله عليه السلام : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو

يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجلٍ آتاه الله مالاً ، فهو ينفقه آناء الليل ، وآناء النهار » وحقيقته : أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ، ولا يزول عنه خيره . وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلّتهم ، هم أصحاب القدرة والشوكة ؛ لأن الصفح لا يكون إلا من القادر . أخرج ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد ـ وأصله في الصحيحين ـ : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : ﴿ فاعْفُوا واصْفَحُوا حتى يَأْتِيَ اللهُ بأمرِه ، إنَّ اللهَ على كلّ شيءٍ قديرٌ ﴾ [البقرة ١٠٩/٢] . وكان رسول الله ﷺ يتأوّل من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بالقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش .

وقد جرت سنة الله في القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة ، لما في الصلاة من إصلاح حال الفرد ، ولما في الزكاة من إصلاح حال المجتمع ، وكلاهما من أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ، بدليل ماأردف الله تعالى الأمر بها بقوله : ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خيرٍ تَجِدوه عند الله ﴾ جاء في الحديث : « إن العبد إذا مات ، قال الناس : ماخلف ؟ وقالت الملائكة : ماقدّم ؟ » .

ودلّ قوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ على أنه مهما فعل الناس من خير أو شرّ ، سراً وعلانية ، فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلها . وهذا الكلام وإن خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعداً ووعيداً ، وأمراً وزجراً ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدّوا في طاعته ، إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده ، حتى يثيبهم عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وما تُقَدّموا لأنفسِكم من خيرٍ تَجِدُوه عِنْدَ اللهِ ﴾ [البقرة ١١٠/٢] .

وثبت في الحديث : « إذا مات الإنسان ، انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة

جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[١] . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مرّ ببقيع الغَرْقد[٢] ، فقال : السلام عليكم أهل القبور ، أخبار ماعندنا أن نساءكم قد تزوجن ، ودُوركم قد سُكنت ، وأموالكم قد قُسمت ، فأجابه هاتف : يا ابن الخطاب ، أخبار ماعندنا أن ماقدمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلفناه فقد خسرناه » . وثبت مثله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فمن مواعظه أنه كان إذا دخل المقبرة قال : السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة ، والمحالّ المقْفِرة ، من المؤمنين والمؤمنات ، ثم قال : أما المنازل فقد سُكنت ، وأما الأموال فقد قُسِمت ، وأما الأزواج فقد نُكحت ، فهذا خبر ماعندنا ، فليت شعري ماعندكم ؟ والذي نفسي بيده لو أن لهم في الكلام لقالوا : إن خير الزاد التقوى .

رأي كل فريق من اليهود والنصارى في الآخر

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

(١) رواه البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(٢) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة .

الإعراب :

﴿ هوداً ﴾ جمع هائد ، أي تائب ، من قوله تعالى : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ [الأعراف ١٥٦/٧] أي تبنا ، وهو خبر كان المنصوب .

﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ الجملة حال .

البلاغة :

﴿ تلك أمانيّهم ﴾ جملة اعتراضية لإبطال دعواهم ، مكونة من مبتدأ وخبر . ﴿ قل : هاتوا برهانكم ﴾ أمر للتبكيت والتقريع .

﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ خصّ الوجه بالذكر ؛ لأنه أشرف أجزاء الإنسان . والوجه ههنا استعارة ، والمعنى : من أخلص نفسه له ، لا يشرك به غيره ، ولا يعبد سواه . ﴿ عند ربه ﴾ العندية للتشريف ، وإظهار اسم الرب محل الضمير لإظهار مزيد اللطف به .

﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ فيه توبيخ شديد لأهل الكتاب ؛ لأنهم جعلوا أنفسهم بمنزلة من لا يعلم شيئاً أصلاً .

المفردات اللغوية :

﴿ هوداً ﴾ جمع هائد ، وهم اليهود . ﴿ أو نصارى ﴾ أتباع المسيح ، قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران ، لما تناظروا بين يدي النبي ﷺ ، أي قال اليهود : لن يدخلها إلا اليهود ، وقال النصارى : لن يدخلها إلا النصارى . ﴿ تلك ﴾ القولة ﴿ أمانيّهم ﴾ شهواتهم الباطلة ، الأماني : جمع أمنية ، وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه . والعرب تسمي كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنياً وغروراً ، وضلالاً وأحلاماً . ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ حجتكم على ذلك .

﴿ بلى ﴾ يدخل الجنة غيرهم ، وهو ﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ جعل وجهه خالصاً لله ، وانقاد له ، فإسلام الوجه لله : هو الانقياد له والإخلاص له في العمل ، بحيث لا يتخذ وسيطاً بينه وبين ربه . وخصّ الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ، فغيره أولى ، قال الفخر الرازي : إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله ، وقد يكنى بالوجه عن النفس ، كما قال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص ٨٨/٢٨] . ﴿ وهو محسن ﴾ موحّد . ﴿ فله أجره عند ربّه ﴾ أي ثواب عمله الجنة . ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ في الآخرة .

﴿ على شيء ﴾ معتد به ، وكفرت اليهود بعيسى ، وكفرت النصارى بموسى . ﴿ يتلون الكتاب ﴾ كل من الفريقين يتلون الكتاب المنزل عليهم ، وفي كتاب اليهود تصديق عيسى ، وفي

كتاب النصارى تصديق موسى . ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴾ اي كما قال المشركون من العرب وغيرهم . ﴿ مثل قولهم ﴾ بيان لمعنى ذلك ، أي قالوا لكل ذي دين : ليسوا على شيء . ﴿ فالله يحكم بينهم .. ﴾ في أمر الدين ، فيدخل المحق الجنة ، والمبطل النار .

سبب نزول الآية (١١٣) :

نزلت في يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود ، فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ماأنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعيسى والإنجيل ، وقالت لهم النصارى : ماأنتم على شيء من الدين ، فكفروا بموسى والتوراة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] .

التفسير والبيان :

لقد نجم عن عدم إيمان أهل الكتاب بالقرآن وبمحمد ﷺ ضلال وتمزق وانقسام شديد بسبب اتباع الأهواء ، أما اليهود وهم أسوأ حالاً من النصارى فلهم حالان : الأولى ـ تضليل من عداهم ، وادعاؤهم أنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة مقصورة عليهم . والثانية ـ تضليل اليهود للنصارى ، وتضليل النصارى لهم ، مع أن التوراة شريعة للنصارى ، والإنجيل متمم للتوراة .

ومعنى الآية : أن اليهود قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ، وكل طائفة منها تكفّر الأخرى . تلك تمنياتهم الباطلة التي لا أساس لها ، ولا فائدة منها ، وإلا فهاتوا البرهان على ماتزعمون أيها اليهود والنصارى ، إن كنتم صادقين ، فليست المسألة مجرد دعوى . وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدّعى ، فهو في

---

(١) البحر المحيط : ٣٥٠/١

العرف تكذيب للدعوى ؛ لأنه لا برهان لهم عليها . وفي هذا إيماء إلى أنه لاتقبل دعوى من دون برهان عليها .

ثم ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ بلى ﴾ كلمة تفيد الجواب لإثبات نفي سابق ، وردّ لما زعموه ، فإن الذي يدخل الجنة مَن لم يكن هوداً أو نصارى ، وهو كل من انقاد لله وأخلص في عمله ، وهو محسن في عبادته وعمله واعتقاده ، وهؤلاء لهم الأجر عند ربهم بلا خوف ولا حزن في الآخرة ، خلافاً لعبدة الأوثان والأصنام الذين هم في خوف مما يستقبلهم ، وحزن مما ينزل بهم .

والآية تدل على أن الإيمان وحده لا يكفي ، بل لابدّ من إحسان العمل أيضاً ، وجرت سنة القرآن أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح ، مثل قوله تعالى : ﴿ ومن يعملْ مِنَ الصالحاتِ من ذَكَرٍ أو أُنْثى وهو مؤمنٌ ، فأولئك يَدْخلون الجنةَ ، ولا يُظْلَمون نَقِيراً ﴾ [النساء ١٢٤/٤] وقوله : ﴿ فمن يعملْ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كُفْران لسعيه ﴾ [الأنبياء ٩٤/٢١] .

واشتدّ الخصام والنزاع بين أهل الكتاب ، فلم يكتفوا بما سبق ، بل قالت اليهود : ليست النصارى على شيء من الدين يعتدّ به ، فلا يؤمنون بالمسيح الذي بشّرت به التوراة ، ولا يزالون إلى اليوم يدّعون أن المسيح المبشّر به لما يأت بعد ، وينتظرون ظهوره ، وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل . وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء من الدين الصحيح ، فأنكروا تتميم المسيح لشريعة اليهود .

قالوا ذلك والحال أنهم أصحاب كتاب يدّعون تلاوته ويؤمنون به ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتي بعد موسى ، والإنجيل يقول : إن المسيح جاء متمماً لناموس (شريعة) موسى ، لا ناقضاً ، فلو أن اليهود تؤمن بالتوراة ، والنصارى تؤمن بالإنجيل ، لما قالوا مثل ذلك ؛ لأن كل كتاب نزل من عند الله ، مصدقاً لما

سبقه ، ومبشراً لما يأتي بعده ، وكل منهما مشروع في وقت ، والمعنى : أن دينهم واحد ، ترك كل فريق منهم بعضه ، وكتاب كل منهم حجة عليهم .[١]

وهم في هذا الموقف لا يؤمنون بشيء ، ولقد قال المشركون عبدة الأوثان الذين لا يعلمون شيئاً لعدم وجود كتاب سماوي لديهم مثل مقالة أهل الكتاب ، فقالوا لأهل كل دين : لستم على شيء ، والله يحكم بين الجميع يوم القيامة بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، فهو العليم بما عليه كل فريق من حق أو باطل ، ويجازيهم على بطلانهم أشدّ الجزاء ، وأما الجنة : فهي لمن أخلص العبادة لله ، وانقاد له ، وأخلص نفسه لربه ، لا يشرك به غيره ، وهو محسن أي عامل بأوامر الله ، متجنب نواهيه .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن من شأن أهل الكتاب أن يؤمن كل فريق بكتاب الآخر ، ثم يؤمنون جميعاً بالقرآن ؛ لأنهم على علم بأصول الدين والوحي ، وإقرار بمبدأ النبوة ، واعتراف بوجود الإله ، خلافاً لكفار العرب المشركين عبدة الأصنام والأوثان ؛ لأنهم لا كتاب لهم .

فلا مسوغ لوقوع التنازع والتناقض والتباغض والتعادي والتعاند بين اليهود والنصارى ، وما عليهم إلا أن يعملوا ويؤمنوا بكل ماجاء في كتابهم ، فيهتدوا إلى الإيمان الحق ، والتصديق برسالة كل نبيّ آت .

وطريق النجاة لكل إنسان : هو الإيمان الخالص لله ، المتضمن تمام الخضوع والانقياد لأمر الله ، المنزّه عن كل شرك ، القائم على العمل الصالح والعبادة الخالصة لله عزّ وجلّ ، فلا ينفع الإيمان وحده دون اقترانه بالعمل الصالح . وليس لأحد أو شعب أن يدّعي أنه أحق برحمة الله دون غيره ؛ لأن الله ربّ العالمين ، يجازي كل إنسان بما عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ولا تقبل

دعوى أحد من غير برهان ، فمن ادّعى نفياً أو إثباتاً ، فلا بدّ له من الدليل ، وتدل الآية على بطلان التقليد : وهو قبول الشيء بغير دليل . والقرآن ذاته مليء بالاستدلال على القدرة والإرادة والوجود والوحدانية بالآيات الكونية والأدلة العقلية ، ويكفي دليلاً على وجوده تعالى الخلق والإبداع والتكوين ، كما يكفي دليلاً على وحدانيته عدم صلاح الكون والعالم بتعدّد الآلهة كما قال تعالى : ﴿ قل : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء ٢٢/٢١] .

ظلم مانع الصلاة في المساجد ، وصحة الصلاة في أي مكان

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

الإعراب :

﴿ ومن أظلم ﴾ مبتدأ وخبر ، ولما كان معنى هذا الاستفهام النفي كان خبراً . ﴿ أن يذكر فيها اسمه ﴾ في منصوب : إما بدل من ﴿ مساجد ﴾ بدل اشتمال ، كقوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ﴾ [البروج ٤/٨٥ ـ ٥] وإما مفعول لأجله ، أي لئلا يذكر فيها اسمه ، وكراهةَ أن يذكر فيها اسمه ، كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ [الأنبياء ٣١/٢١] أي لئلا تميد بهم ، وكقوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء ١٧٦/٤] أي لئلا تضلوا ، وكراهة أن تضلوا .

﴿ ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ : ﴿ أن يدخلوها ﴾ في موضع رفع ؛ لأنه اسم ﴿ كان ﴾ و ﴿ لهم ﴾ الخبر ، و ﴿ خائفين ﴾ منصوب على الحال من واو ﴿ يدخلوها ﴾ .

البلاغة :

﴿ ومن أظلم ﴾ استفهام بمعنى النفي ، أي لا أحد أظلم منه . ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل لا يوصف .

﴿ عليم ﴾ صيغة مبالغة ، أي واسع العلم .

المفردات اللغوية :

﴿ ومن أظلم ﴾ استفهام إنكاري ويفيد النفي . والظلم : وضع الشيء في غير موضعه . والمسجد : موضع العبادة لله تعالى . ﴿ وسعى في خرابها ﴾ تخريبها وهدمها وتعطيلها ، نزلت إخباراً عن الروم الذين خربوا بيت المقدس ، أو في المشركين لما صدوا النبي ﷺ عام الحديبية عن البيت . ﴿ أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ خبر بمعنى الأمر ، أي أخيفوهم بالجهاد ، فلا يدخلها أحد آمناً . ﴿ خزي ﴾ ذلّ وهوان بالقتل والسبي وفرض الجزية . ﴿ عذاب عظيم ﴾ هو النار .

﴿ فثمّ ﴾ هناك . ﴿ وجه الله ﴾ جهته وقبلته التي رضيها . ﴿ واسع ﴾ يسع فضله كل شيء ، فلا يحصر ولا يتحدد . ﴿ عليم ﴾ شامل العلم بتدبير خلقه .

سبب نزول الآية (١١٤) :

هناك روايتان عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية ، ففي رواية الكلبي عنه : نزلت في طططوس الرومي وأصحابه من النصارى ، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل ، فقتلوا مقاتلتهم ، وسبوا ذراريهم ، وحرفوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وقذفوا فيه الجيف .

وقال قتادة : هو بختنصر وأصحابه غزوا اليهود ، وخربوا بيت المقدس ، وأعانتهم على ذلك النصارى من أهل الروم .

وفي رواية عطاء عن ابن عباس : نزلت في مشركي أهل مكة ، ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ومن أظلمُ ممن مَنَعَ مساجدَ الله ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن أبي زيد قال : نزلت في المشركين ، حين صدوا رسول الله عن مكة يوم الحديبية .

ورجح ابن العربي أنها نزلت في صلاة النبي ﷺ قِبَل بيت المقدس ، ثم عاد فصلى إلى الكعبة ، فاعترضت عليه اليهود ، فأنزلها الله تعالى له كرامة ، وعليهم حجة ، كما قال ابن عباس .

وعلى أي حال ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فتشمل أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ، وينطبق على ماوقع من تيطس الروماني الذي دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة ، وخربها ، وهدم هيكل سليمان ، وأحرق بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك . كما ينطبق على مشركي مكة الذين منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة ، وكذلك على الصليبيين الذين أغاروا على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين ، وصدهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد ، ويتكرر الأمر من اليهود في الوقت الحاضر بتخريب كثير من مساجد فلسطين ، وإحراق المسجد الأقصى ، ومحاولات هدمه المتكررة .

المناسبة :

ذكر النصارى في قوله : ﴿ وقالت النصارى : ليست اليهود ﴾ وذكر المشركون في قوله : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴾ وفي أي فريق نزلت هذه الآية بسببه ، كان ذلك مناسباً لذكرها .

التفسير والبيان :

لاظلم ولا اعتداء على الحرمات أشد من منع العبادة في المساجد العامة ، والسعي في تخريبها وهدمها أو تعطيل وظائفها وشعائر الدين فيها ، لما في ذلك من انتهاك حرمة الدين المؤدي إلى نسيان الخالق ، وإشاعة المنكرات والفساد بين

الناس . وما كان ينبغي لهؤلاء المخربين أو المعطلين أن يدخلوها إلا بخشية ومهابة وخوف من عظمة الله والدين وسطوة الإسلام والمسلمين . وقد توعدهم الله بالذل والهوان في الدنيا ، كما حل بالرومان الذين تشتت ملكهم ، وبالعذاب الشديد في الآخرة في جهنم وبئس المصير .

وإذا حيل بين المسلم وبين المساجد ، فله أن يصلي في أي مكان ، وأينما توجه المصلي فهو متجه إلى الله ، فلله جهة المشرق والمغرب أي أن ذلك له ملك وخلق ، فتجوز الصلاة إليه ، والله تعالى عنه راض ، مقبل عليه ، وهو معه ، لأن الله تعالى واسع لا يحده مكان ، ولا ينحصر ولا يتحدد بجهة ، وواسع العلم يعلم كل من اتجه إليه .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن تدمير المساجد أو الصد عنها جرم عظيم ، لا يرتكبه إلا من فقد الإيمان ، وعادى جوهر الدين ، واتبع الأهواء ، وحارب الأخلاق والفضائل ، ولم يقدم على تلك الجريمة في الماضي أو في العصر الحاضر ، سواء في ديار الإسلام أو غيرها إلا الملحدون المارقون من الدين ، الذين يبتغون نشر الإلحاد وتقويض دعائم الدين والإسلام .

ومن حمد الله أن دين الإسلام دين السعة واليسر ، وبلاد الله تسع المؤمنين ، فلا يمنعهم تخريب مساجد الله أن يولوا وجوههم نحو قبلة الله ، أينما كانوا في أرض الله .

وقد نزلت الآية (١١٥) ـ كما ذكر ابن جرير الطبري ـ قبل الأمر بالتوجه إلى استقبال الكعبة في الصلاة ، وفيها إبطال ما كان يعتقده أرباب الملل السابقة من أن العبادة لا تصح إلا في الهياكل والمعابد .

وبعد الأمر بالتوجه إلى الكعبة يظل المقصود من الآية قائماً ، فهي تقرر

أمراً اعتقادياً له صلة بالإيمان الذي يعمر به قلب المؤمن ، فأينما كان المؤمنون من شرق وغرب ، فثمّ وجه الله الذي أمرنا باستقباله ، وهو الكعبة .

والحكمة من الاتجاه إلى القبلة ، بالرغم من أن القصد هو الله الذي لايحده مكان ، هو توحيد وجهة العابدين ، وتجميع مشاعرهم وعواطفهم في إطار هدف واحد ، ولأنه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، وهو بهذه الطريقة محال على الله ؛ لأن ذاته تعالى ليست محصورة في شيء من خلقه ، شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه ، وجعل استقباله كاستقبال وجه الله تعالى .

قال ابن العربي : إن الله تعالى أمر بالصلاة عبادةً ،.وفرض فيها الخشوع استكمالاً للعبادة ، وألزم الجوارح السكون ، واللسان الصمت إلا عن ذكر الله تعالى ، ونصب البدن إلى جهة واحدة ، ليكون ذلك أنفى للحركات ، وأبعد للخواطر ، وعُينت له جهة الكعبة تشريفاً له[1] .

والخلاصة : هل الآية (١١٥) منسوخة ؟ للعلماء رأيان[2] :

رأي يقول : إن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، في مسيره في سفره ، وفي حال المسايفة وشدة الخوف .

ورأي الجمهور : أنها منسوخة ، وفيها تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة ، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم ، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس ، والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة ، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ، ولهذا

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣٥/١

(٢) تفسير ابن كثير : ١٥٧/١ وما بعدها .

يقول تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة ١١٥/٢] .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ : قال ابن عباس : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا ـ والله أعلم ـ شأن القبلة ، قال الله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب .. ﴾ الآية .

فاستقبل رسول الله ﷺ ، فصلى نحو بيت المقدس ، وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ، ونسخها ، فقال : ﴿ ومن حيث خرجت ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ [البقرة ١٥٠/٢] .

حكم الخطأ في الاتجاه لغير القبلة :

إذا صلّى الإنسان في أثناء الغيم لغير القبلة مجتهداً ، ثم بان له بعدئذ أنه صلى لغير القبلة ، فإن صلاته جائزة عند الجمهور (أبي حنيفة ومالك وأحمد) ، لكن في رأي مالك تستحب له الإعادة في الوقت ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أُمر ، والكمال يستدرك في الوقت ، استدلالاً بالسنة فمن صلى وحده ، ثم أدرك تلك الصلاة في وقتها في جماعة ، أنه يعيد معهم . ولا يعيد في الوقت استحباباً إلا من استدبر القبلة أو شرّق أو غرّب جداً مجتهداً . وأما من تيامن أو تياسر قليلاً مجتهداً ، فلا إعادة عليه في وقت ولا غيره .

وقال الشافعي : لا يجزيه ؛ لأن القبلة شرط من شروط الصلاة .

صلاة النافلة على الراحلة :

لا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة ، لما أخرجه مسلم عن ابن عمر ، قال : « كان رسول الله ﷺ يصلي ، وهو مُقْبل من مكة إلى المدينة على راحلته ، حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة ١١٥/٢] .

واختلف الفقهاء في المسافر سفراً لا تقصر في مثله الصلاة (أقل من ٨٩ كم) ، فقال المالكية والثوري : لا يتطوع على الراحلة إلا في سفر تقصر في مثله الصلاة ؛ لأن الأسفار التي حُكي عن رسول الله ﷺ أنه كان يتطوع فيها ، كانت مما تقصر فيه الصلاة .

وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وداود الظاهري : يجوز التطوع على الراحلة ، خارج المصر ، في كل سفر ، سواء أكان مما تقصر فيه الصلاة أم لا ؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفر من سفر ، فكل سفر يجوز فيه ذلك ، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له[١] .

الصلاة على الغائب :

أجاز الشافعي الصلاة على الغائب ، بدليل أن النبي ﷺ صلى بأصحابه سنة تسع من الهجرة على النجاشي ملك الحبشة ـ واسمه أَصْحَمَة ، وهو بالعربية : عطية ، وقد تساءل الصحابة : كيف نصلي على رجل مات ، وهو يصلي لغير قبلتنا ؟ فنزلت الآية : ﴿ وإنّ من أهل الكتاب لمن يُؤمنُ بالله ﴾ [آل عمران ١٩٩/٣][٢] لكن هذا الخبر غريب جداً وهو مرسل أو معضل .

المقصود بوجه الله في القرآن والسنة :

اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة[٣] ، فقال جماعة : ذلك من مجاز الكلام ؛ إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد (المخلوق) وأجلها قدراً . والمراد بمن له الوجه : أي الوجود ، وعليه يتأول قوله تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوَجْهِ الله ﴾ [الدهر ٩/٧٦] . المراد به : لله الذي له الوجه .

---

(١) تفسير القرطبي : ٨٠/٢ ـ ٨١

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق : ٨٣/٢

وكذلك قوله : ﴿ إلا ابتغاءَ وجهِ ربه الأعلى ﴾ [الليل ٢٠/٩٢] . أي الذي له الوجه . قال ابن عباس : الوجه : عبارة عنه عز وجل ، كما قال : ﴿ ويبقى وَجْهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن ٢٧/٥٥] ، ومعنى ﴿ فثم وجه الله ﴾ : فثمَّ الله . وهذا يدل على نفي الجهة والمكان عنه تعالى ، لاستحالة ذلك عليه ، وأنه في كل مكان بعلمه وقدرته .

وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ماتوجبه العقول من صفات القديم تعالى وهذا أولى وأحوط .

افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله والمطالبة بتكليمه الناس

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

الإعراب :

﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ ﴿ ما ﴾ رفع بالابتداء ، والخبر في المجرور ، أي كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع . ﴿ فيكونُ ﴾ قرئ بالرفع والنصب ، فمن قرأ بالرفع جعله عطفاً على قوله تعالى : ﴿ يقول ﴾ تقديره : فهو يكون . ومن قرأ بالنصب ، اعتبر لفظ الأمر ، وجوابُ الأمر بالفاء منصوب ، والنصب ضعيف ؛ لأن « كُنْ » ليس بأمر في الحقيقة .

البلاغة :

﴿ سبحانه ﴾ جملة اعتراضية لإبطال دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد . ﴿ كل له قانتون ﴾ استعمال صيغة جمع العقلاء في ﴿ قانتون ﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غيرهم للتشريف .

المفردات اللغوية :

﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له عما يصفون ، وتعجباً مما يقول الجاهلون . ﴿ قانتون ﴾ منقادون ، والقنوت : الخضوع والانقياد .

﴿ بديع ﴾ مبدع ، والإبداع : هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سابق . ﴿ قضى ﴾ أراد . ﴿ أمراً ﴾ أي إيجاده .

﴿ لولا ﴾ هلا . والآية : الحجة والبرهان . والتشابه : التماثل . واليقين : هو العلم القاطع بالدليل والبرهان .

المناسبة وسبب النزول :

دلت الآيات السابقة على زعم اليهود أن الجنة خاصة بهم ، وزعموا أيضاً كما تفيد الآية هنا أن عزيراً ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله ، فأكذبهم الله جميعاً بالدليل القاطع .

فهذه الآية (١١٦) نزلت في اليهود حيث قالوا : عزير ابن الله ، وفي نصارى نجران حيث قالوا : المسيح ابن الله ، وفي مشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

وأما سبب نزول الآية (١١٨) : فهو ماأخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس ، قال : قال رافع بن خزيمة لرسول الله : إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله : فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ الآية .

وحكى القرطبي : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ أي يخاطبنا بنبوتك يا محمد ، قال ابن كثير : وهو ظاهر السياق[١] .

التفسير والبيان :

قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، ولا فرق بين أن يصدر هذا القول من الجميع أو البعض ؛ فإن أفراد الأمة متكافلون في كل ما يعملون وما يقولون . سبحانه وتعالى تنزيهاً له عما يدعون ، فليس لله حاجة إلى المعونة ، وله كل ما في السموات والأرض ، الكل خاضع لسلطانه ، منقاد لإرادته . وهو الذي أبدع وابتكر السموات والأرض لا على مثال سبق ، ومالك مافيهن ، وإذا أراد أمراً أوجده فوراً أسرع مما بين حرفي « كن » من غير امتناع . والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية ، عبر عنها بما يقربها للفهم بقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ . وإذا اختار الله بعض خلقه للنبوة أو الرسالة كالرسل والملائكة ، فلا يتجاوز حد مرتبة المخلوق ، ويظل الكل عبيداً لله : ﴿ إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحمن عبداً ﴾ [مريم ١٩/٩٣] فمن كان له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً ، ومن كان له كل ما في الكون منقاد لأمره ، ومَن أبدع السماء والأرض ، ومن له أمر التكوين والإيجاد الفوري ، أيحتاج إلى الولد والوالد ؟!

ويؤيد هذه الآية قول الله تعالى عن مشركي العرب : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمنَ حتى نُؤْتى مثلَ ماأُوتي رُسُلُ الله ، اللهُ أعلمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه ﴾ [الأنعام ٦/١٢٤] وقوله تعالى : ﴿ وقالوا : لن نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبُوعاً ﴾ إلى قوله : ﴿ قل : سبحان ربي ، هل كنتُ إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء ١٧/٩٠ ـ ٩٣] وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءَنا : لولا أُنزِلَ علينا

---

(١) تفسير القرطبي : ٢/٩٢ ، تفسير ابن كثير : ١/١٦١

الملائكةُ ، أو نَرَى ربَّنا ﴾ الآيـة [الفرقان ٢١/٢٥] وقولـه تعـالى : ﴿ بل يريـدُ كل امرئٍ منهم أن يُـؤتى صُحُفـاً مُنَشَّرة ﴾ [القيامـة ٥٢/٧٥] إلى غير ذلـك من الآيـات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجـة لهم بـه ، وإنما هو الكفر والمعاندة ، كما قال من قبلهم من أمم أهل الكتـاب (اليهود والنصارى) وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهلُ الكتابِ أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك ، فقالوا : أرِنَا اللهَ جَهْرةً ﴾ [النساء ١٥٣/٤] وقال تعالى : ﴿ وإذ قُلْتُم : يـاموسى ، لن نُـؤمِنَ لـك حتى نَرَى اللهَ جَهْرةً ﴾ [البقرة ٥٥/٢] .

أما الذين لا يعلمون من المشركين ؛ لأنه لا كتاب لهم ، ولا هم أتباع نبي يبين لهم ما يليق بالألوهية فقالوا : هلا يكلمنا الله بأنك رسولـه حقاً ، أو يرسل إلينـا ملكاً فيخبرنا بذلك ، كما يرسله إليك ، أو تأتينـا ببرهـان على صـدقـك في دعواك النبـوة ، وليس مرادهم من هـذه المطـالب إلا الاستكبـار والعتـو والعنـاد ، والاستخفاف بالآيات البينات ، والجحود بالقرآن .

ومثل هـذه الأسئلـة التي يراد منهـا التعنت ، قـد قـالهـا من قبلهم من الأمم الماضية ، كما ذكرنا في الآيات المؤيدة لهذه الآية .

قال أهل الكتاب سابقاً مثل قول المشركين ، وقد تماثلت قلوبهم وأرواحهم ، وأشبهت قلـوب مشركي العرب قلـوب من تقـدمهم في العمى والقسـوة والعنـاد والكفر ، والألسنـة ترجمـان القلـوب ، فمـا في القلب يعبر عنـه اللسـان . والحـق واحـد ، ومخـالفتـه هي الضـلال وهـو واحـد ، وإن تعـددت طرقـه ، واختلفت وجوهـه ، وآثـاره تتشـابـه ، حتى كأنهم متواصون بـه فيما بينهم ، كما قـال تعـالى : ﴿ أتَوَاصَوْا به ، بل هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ [الذاريات ٥٣/٥١] .

والله سبحانه بيّن الآيـات وأوضح الـدلالات على صـدق الرسل أحسن بيـان

وأتمه ، بما لا يدع مجالاً للشك لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان ، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين ، وعندهم الفهم الصحيح بسبب إنصافهم وصفاء نفوسهم ، وبعدهم عن العناد والمكابرة ، وقد كان هذا شأن الصحابة يسألون النبي ﷺ فيما لم يعرفوا دليله ، لمحبتهم الحق ، ووقوفهم عند البينة والدليل ، فهم نماذج المنصفين الموقنين الذين اتبعوا الرسل بقناعة وعقل ، وفهموا ماجاءوا به عن الله تبارك وتعالى .

وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال الله فيهم : ﴿ إن الذينَ حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يُؤمنون . ولو جَاءَتْهُم كلُّ آيةٍ ، حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾ [يونس ٩٦/١٠ـ٩٧] .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الاستجابة لنداء الإيمان تتطلب إعمال العقل وتفتح الفكر ، وصفاء النفس ، وإدراك حقائق الكون ، ولو إدراكاً بسيطاً ، وتقتضي تجرداً عن الحظوظ النفسية ، والأهواء الشخصية ، وترك العناد . فإذا توافرت هذه الاستعدادات ، تسارع نور الإيمان إلى القلب ، فملأ النفس بهجة وسعادة وطمأنينة : ﴿ ألا بذكرِ الله تطمئِنُّ القلوبُ ﴾ [الرعد ٢٨/١٣] .

أما نسبة الولد لله فهذا جهل بحقيقة الألوهية التي تمتاز بسمو الاتصاف بشيء فيه نقص من خصال البشر ، ولا تحتاج إلى أحد من الخلق ، فالله هو الأحد الواحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد ، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولداً من مخلوقاته : ﴿ مااتَّخذ الله من وَلَدٍ ، وما كانَ معه من إلَه ، إذاً لذهبَ كلُّ إلَهٍ بما خَلَق ، ولعلا بعضُهم على بعضٍ ، سبحانَ الله عما يَصِفُون ﴾ [المؤمنون ٩١/٢٣] فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث ، والقدم يقتضي الوحدانية والثبوت ، فهو سبحانه القديم الأزلي ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، كما ذكر .

والمخلوقات كلها تقنُت لله ، أي تخضع وتطيع ، والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم .

قال الجصاص عن قوله تعالى : ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ : فيه دلالة على أن ملك الإنسان لا يبقى على ولده ؛ لأنه نفى الولد بإثبات الملك بقوله تعالى : ﴿ بل له مافي السمواتِ والأرضِ ﴾ يعني ملكه ، وليس بولده[1] .

وقال القرطبي : والله تعالى مبدع السموات والأرض أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال سبق . وكل من أنشأ مالم يسبق إليه قيل له : مبدع . ومنه أصحاب البدع ، وسميت البدعة بدعة ؛ لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام ، وفي البخاري : « ونعمت البدعة هذه » يعنى قيام رمضان .

وكل بدعة صدرت من مخلوق ، فلا يخلو إما أن يكون لها أصل في الشرع أو لا ، فإن كان لها أصل ، كانت واقعة تحت عموم ماندب الله إليه ، وحض رسوله عليه ، فهي في حيّز المدح . وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، فهذا فعله من الأفعال المحمودة ، وإن لم يكن الفاعل قد سُبق إليه . ويَعْضُد هذا قول عمر رضي الله عنه : « نعمت البدعة هذه » لَمَّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حيّز المدح . وإن كانت في خلاف ماأمر الله به ورسوله ، فهي في حيز الذم والإنكار .وهو معنى قوله ﷺ في خطبته : « وشرُّ الأمور مُحْدثاتها ، وكلُّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ » يريد مالم يوافق كتاباً أو سنة ، أو عمل الصحابة رضي الله عنهم . وقد بيّن هذا بقوله ﷺ : « من سنَّ في الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

---

(١) أحكام القرآن للجصاص الرازي : ٦٥/١

ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[١] .

أما الخلق والإيجاد فيحدث بمجرد الأمر الإلهي ، فإذا قضى أمراً أوجده فوراً ، أي إذا أراد إحكام أمر وإتقانه ـ كما سبق في علمه ـ قال له : كن . قال ابن عرفة : قضاء الشيء : إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ، ومنه سمي القاضي ؛ لأنه إذا حكم ، فقد فرغ مما بين الخصمين .

ويلاحظ أن « قضى » لفظ مشترك ، يكون بمعنى الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سَبْعَ سموات في يومين ﴾ [فصّلت ١٢/٤١] أي خلقهن ، ويكون بمعنى الإعلام ، كما قال تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ [الإسراء ٤/١٧] أي أعلمنا ، ويكون بمعنى الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء ٢٣/١٧] ، ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ، ومنه سمي الحاكم قاضياً . ويكون بمعنى توفية الحق ، قال الله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ [القصص ٢٩/٢٨] ، ويكون بمعنى الإرادة ، كقوله تعالى : ﴿ فإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ أي إذا أراد خلق شيء .

قال ابن عطية : « قضى » معناه قدّر ، وقد يجيء بمعنى أمضى[٢] .

وبمناسبة قوله سبحانه ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ ذكر العلماء أن الأمر يأتي في القرآن على أربعة عشر وجهاً :

الأول ـ الدّين ، قال الله تعالى : ﴿ حتى جاءَ الحقُّ وظَهَرَ أَمْرُ اللهِ ﴾ [التوبة ٤٨/٩] يعني دين الإسلام .

---

(١) تفسير القرطبي : ٨٦/٢ـ٨٧

(٢) المصدر السابق : ٨٨/٢

الثاني ـ القول ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إذا جاء أمرنا ﴾ [هود ٤٠/١١] يعني قولنا ، وقوله : ﴿ فتنازعوا أمْرَهم بينَهم ﴾ [طه ٦٢/٢٠] يعني قولهم .

الثالث ـ العذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لما قُضِي الأمر ﴾ [إبراهيم ٢٢/١٤] يعني : لما وجب العذاب بأهل النار .

الرابع ـ عيسى عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ إذا قَضَى أمراً ﴾ [مريم ٣٥/١٩] يعني عيسى من غير أب .

الخامس ـ القتل ببدر ، قال الله تعالى : ﴿ فإذا جاء أمرُ اللهِ ﴾ [غافر ٧٨/٤٠] يعني القتل ببدر ، وقوله تعالى : ﴿ ليقضيَ اللهُ أمراً كان مَفْعولاً ﴾ [الأنفال ٤٢/٨] يعني قتل كفار مكة .

السادس ـ فتح مكة ، قال الله تعالى : ﴿ فتربّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه ﴾ [التوبة ٢٤/٩] يعني فتح مكة .

السابع ـ قتل بني قريظة وجلاء بني النضير ، قال الله تعالى : ﴿ فاعْفُوا واصْفَحوا حتى يأتي اللهُ بأمرِه ﴾ [البقرة ١٠٩/٢] .

الثامن ـ القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ أتى أمرُ اللهِ ﴾ [النحل ١/١٦] .

التاسع ـ القضاء ، قال الله تعالى : ﴿ يدبّر الأمر ﴾ [الرعد ٢/١٣] يعني القضاء .

العاشر ـ الوحي ، قال الله تعالى : ﴿ يدبّر الأمرَ من السماء إلى الأرضِ ﴾ [السجدة ٥/٣٢] أي يُنزل الوحي من السماء إلى الأرض ، وقوله : ﴿ يتنزّل الأمرُ بينهن ﴾ [الطلاق ١٢/٦٥] يعني الوحي .

الحادي عشر ـ أمر الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إلى الله تصيرُ الأمور ﴾ [الشورى ٥٣/٤٢] يعني أمور الخلائق .

الثاني عشر ـ النصر ، قال الله تعالى : ﴿ يقولونَ : هل لنا من الأمرِ من شيءٍ ﴾ [آل عمران ١٥٤/٣] يعنون النصر ، ﴿ قل : إن الأمرَ كلَّه للهِ ﴾ يعني النصر .

الثالث عشر ـ الذنب ، قال الله تعالى : ﴿ فذاقتْ وَبَال أمْرِها ﴾ [الطلاق

٩/٦٥] يعني جزاء دينها .

الرابع عشر ـ الشأن والفعل ، قال الله تعالى : ﴿ وما أَمرُ فِرْعونَ بِرَشِيد ﴾ [هود ٩٧/١١] أي فعله وشأنه ، وقال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ [النور ٦٣/٢٤] أي فعله .

التحذير من اتباع اليهود والنصارى

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

الإعراب :

﴿ بشيراً ﴾ حال من كاف ﴿ أرسلناك ﴾ و﴿ نذيراً ﴾ عطف عليه ﴿ ولا تُسألُ ﴾ قرئ بالرفع على أن ﴿ لا ﴾ نافية ، والجملة خبرية حال ، وقرئ بالجزم ﴿ تسألْ ﴾ على أن ﴿ لا ﴾ ناهية .

﴿ مالك من الله ﴾ فيه وجهان : أحدهما ـ أن يكون التقدير فيه : مالك من عذاب الله من ولي ، والثاني ـ أن يكون المعنى : مالك الله ولياً ولا نصيراً ، والعرب تقول مثل هذا بحرف الجر ، كقوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ﴾ [النحل ١٠/١٦] أي ماء لكم هو شراب .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ ﴿ الذين ﴾ اسم موصول مبتدأ ، و﴿ آتيناهم ﴾ صلته ، و﴿ يتلونه ﴾ جملة فعلية منصوبة على الحال من ضمير ﴿ آتيناهم ﴾ . و﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ خبره . ﴿ حق تلاوته ﴾ منصوب على المصدر .

البلاغة :

﴿ أصحاب الجحيم ﴾ التعبير عن الكافرين والمكذبين بذلك إيذان بأنه لا يرجى منهم الرجوع

﴿ هو الهدى ﴾ تعريف الهدى مع اقترانه بضمير الفصل يفيد قصر الهداية على دين الله ، فهو قصر الصفة على الموصوف . ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ من باب التهييج .

المفردات اللغوية :

﴿ الجحيم ﴾ النار ، وهي جهنم ، وأصحابها هم الكفار .

﴿ ملّتهم ﴾ دينهم ﴿ هدى الله ﴾ هو الإسلام ﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ من العلم ﴾ الوحي من الله ﴿ مالك من الله من ولي ﴾ يحفظك ﴿ ولانصير ﴾ يمنعك منه .

﴿ ومن يكفُرْ به ﴾ أي بالكتاب المؤتى ، بأن يحرفه ﴿ الخاسرون ﴾ الهالكون .

سبب نزول الآيات (١١٩ ـ ١٢١) :

قيل : نزلت في أبوي النبي ﷺ ، لكن الحديث مرسل غير ثابت . وقال مقاتل فيما رواه بسنده : إن النبي ﷺ قال : « لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تُسأَلُ عن أصحابِ الجحيمِ ﴾ .

وأما الآية (١٢٠) : فقال المفسرون : إنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة ، ويطمعون أنه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه ووافقوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال ابن عباس : هذا في القبلة ، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم ، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة ، شق ذلك عليهم ، فيئسوا منه أن يوافقهم على دينهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وأما الآية (١٢١) : فقال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي : نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة ، كانوا أربعين رجلاً من الحبشة وأهل الشام . وقال الضحاك : نزلت فيمن آمن من اليهود . وقال قتادة وعكرمة : نزلت في محمد ﷺ .

المناسبة :

لَمّا بيَّن الله الآيات ، ذكر من بُينت على يديه ، فأقبل عليه وخاطبه ﷺ ليُعلم أنه هو صاحب الآيات ، وبعد إثبات الوحدانية أردفه بإثبات النبوة .

التفسير والبيان :

هذه الآية (١١٩) إيناس للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره ، فهي تقرر له أنه أرسله للناس رسولاً يبشر المؤمنين وينذر الكافرين ، ويسعد الناس بالعقيدة المطابقة للواقع ، وبالشرائع والأحكام التي تسعد الناس قاطبة ، ويبشر من أطاعه بالجنة ، وينذر من عصاه بالنار ، وأن مهمته تبليغ الرسالة دون شيء بعدها ، فلا حرج عليه إن أصروا على الكفرِ والعناد : ﴿ ما عليكَ من حسابِهم من شيءٍ ﴾ [الأنعام ٥٢/٦] ﴿ فلا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ ﴾ [فاطر ٨/٣٥] ﴿ فلعَلَّك باخِعٌ نَفْسَك على آثارِهم إن لم يُؤمنوا بهذا الحديثِ أسَفاً ﴾ [الكهف ٦/١٨] .

ولا تسأل عن أصحاب النار ، فلا يضرنك تكذيبهم لك ، ولا تأس عليهم ولا تحزن ، فأنت لم تبعث مكرهاً ولا جباراً ، فتكون مقصراً إن لم يؤمنوا ، بل بعثت معلماً ومبلغاً وهادياً بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال تعالى : ﴿ ليسَ عليك هُدَاهم ، ولكنَّ اللهَ يهدي مَنْ يشاءُ ﴾ [البقرة ٢٧٢/٢] .

وكان النبي ﷺ يرجو أن يؤمن أهل الكتاب برسالته ، لموافقتهم له في أصل الدين ، من توحيد الله ، وتقويم الاعوجاجات والتقاليد الفاسدة ، فعز عليه إعراضهم عن إجابة دعوته ، ولسان حالهم يقول : يا محمد مهما تأتنا من بينة ، ومهما فعلت لإرضائنا ، فلن نرضى حتى تتبع ملتنا .

والملة : هي الطريقة المشروعة للعباد ، والكفر كله ملة واحدة ، وتسمى ديناً ؛ لأن العباد انقادوا لمن سنها . وتسمى شريعة ؛ لأنها مورد إلى ثواب الله ورحمته .

فرد الله عليهم : إن هدى الله ودينه الذي هو الإسلام والذي أنزله على الأنبياء هو الهدى الواجب اتباعه وحده ، أما غيره فمبني على الهوى والشهوة ، وهو ماأضافه إليه اليهود والنصارى ، فإن اتبعت يا محمد أهواءهم ، وماأضافوه إلى دينهم ، بعدما استقر في قلبك من اليقين والطمأنينة بالوحي الإلهي الذي نزل عليك ، ومنه أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل ، فالله لا ينصرك ولا يؤيدك ، وإذا لم ينصرك الله ويتولاك ، فمن ذا الذي ينصرك من بعده ؟. وفي هذا قطع الأمل للنبي عليه السلام في إسلامهم ، لأن رضاهم عنه معلق بمستحيل : وهو اتباع ملتهم والدخول في دينهم .

وهذا الإنذار للنبي والوعيد هو في الحقيقة خطاب للناس كافة ، ممثلين في شخص النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه الإمام والقائد والقدوة .

ثم استدرك الحق سبحانه على ماذكر قبل ، حتى لا ييأس النبي ﷺ يأساً دائماً من إيمان أهل الكتاب ، فأخبر بأن بعض الكتابيين يتلون التوراة تلاوة تدبر وإمعان ، ويفهمها حق الفهم ، ولا يتعصب تعصباً أعمى ، ولا يحرفون ولا يغيرون مافيه من نعت رسول الله ﷺ ، ولا يبيع آخرته بدنياه ، ويسأل الله الجنة ، ويتعوذ من النار ، فهؤلاء يدركون أن ماجئت به الحق ، فيؤمنون بالتوراة دون تحريض ، ومن يؤمن بها يؤمن بالقرآن والنبي ، مثل عبد الله بن سَلاَم وأشباهه ، ومن يكفر بكتابه من المحرفين ، فلا يؤمن بك أصلاً ، أولئك هم الهالكون ، وكثير ماهم ، وهم الذين خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وحق عليهم العذاب ؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار ؟! فالمقصود بكلمة ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، وقال قتادة : المقصود به القرآن ، قال القرطبي : والآية تعم . وعلى كلا الحالين ، المقصود بقوله تعالى : ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ : يتبعونه حق اتباعه ، باتباع الأمر والنهي ، فيحللون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بما تضمنه .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن دين الله وتكاليفه يسر لا عسر ، فهو يمتاز بشيئين أساسيين هما : التعقل والمنطق ، والقيام بالواجب قدر الطاقة والوسع ، دون إعنات ولا إرهاق . وليست مهمة الأنبياء لقسر الناس وإكراههم على الإيمان والاعتقاد الحق ، وإنما هي محصورة بالتبليغ والبيان ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، والنبي بعد التبليغ لا يكون مسؤولاً عنهم ولا مؤاخذاً بكفر من كفر بعد التبشير والانذار .

وإن المساومات الرخيصة على العقيدة الحقة لا تفيد شيئاً ، ولا تحقق هدفاً . وإن من يتمسك بدينه الأصلي حتى ولو كان من اليهود والنصارى فلابد من أن يؤديه دينه الذي لم يبدله ولم يحرفه إلى الاستمساك بالقرآن والإقرار بنبوة محمد ﷺ ؛ لأن دين الله في الأصل ذو جوهر واحد ، وعباداته وشرائعه تلتقي عند غاية واحدة ، وهي توحيد الإله والاعتراف بربوبيته ، والأخلاق والفضائل الإنسانية الصحيحة لا يختلف فيها اثنان . وليس غرض اليهود والنصارى بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتاهم بكل ما يسألون عنه لم يرضوا عنه ، وإنما يرضيهم ترك ما هو عليه من الإسلام ، واتباعهم .

وفي كل ذلك عبرة للأجيال ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الأَلْبابِ ﴾ [يوسف ١١١/١٢]. وإن تلاوة كتاب الله ينبغي أن تكون بتدبر وفهم وإمعان ، لا لمجرد التلاوة ، كما قال تعالى : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرُون القرآنَ ، أم على قلوبٍ أقفالُها ﴾ [محمد ٢٤/٤٧] وقال : ﴿ ليدبَّرُوا آياتِهِ ، وليتذكَّرَ أولُو الألباب ﴾ [صٓ ٢٩/٣٨] .

والفائدة المنشودة من القرآن هي العمل به ، فهو كما ثبت في الحديث الصحيح : « والقرآن حجة لك أو عليك » ومن يتلو القرآن ، وهو معرض عن آياته والعمل به ، يكون كالمستهزئ بربه . أما الأمي فعليه سؤال العلماء لشرح

معنى القرآن ، وإفهامه مراده : ﴿ فاسألوا أهلَ الذِّكْرِ إن كُنْتُم لاتَعْلمون ﴾ [النحل ٤٣/١٦] .

هذا .. وقد استدل بالآية (١٢٠) أبو حنيفة والشافعي وداود الظاهري وأحمد بن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة ، لقوله تعالى : ﴿ ملتهم ﴾ فوحد الملة ، وبقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون ٦/١٠٩] ، وبقوله عليه السلام : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » على أن المراد به الإسلام والكفر ، بدليل قوله عليه السلام : « لا يرث المسلم الكافر » .

وذهب الإمام مالك ، وأحمد في الرواية الأخرى : إلى أن الكفر ملل ، فلا يرث اليهودي النصراني ، ولا يرثان المجوسي ، أخذاً بظاهر قوله عليه السلام : « لا يتوارث أهل ملتين » . وأما قوله تعالى : ﴿ ملتهم ﴾ فالمراد به الكثرة ، وإن كانت موحدة في اللفظ ، بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة ، كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة ـ مثلاً ـ علمَهم ، وسمعت عليهم حديثهم ، يعني علومهم وأحاديثهم .

والخطاب في قوله تعالى : ﴿ ولئن اتَّبعت أهواءهم ﴾ إما للرسول ، لتوجه الخطاب إليه ، وإما للرسول ، والمراد به أمته . وإذا كان الرسول هو المخاطب فأمته أولى ؛ لأن منزلتهم دون منزلته .

وسبب الآية : أنهم كانوا يسألون المسالمة والهدنة ، ويَعِدون النبي ﷺ بالإسلام ، فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأمره بجهادهم .

واستدل الإمام أحمد بقوله : ﴿ من العلم ﴾ على كفر من اعتقد أن القرآن مخلوق ، فإنه سئل عمن يقول : القرآن مخلوق ؛ فقال : كافر ، قيل : بِمَ كفَّرته ؟ فقال : بآيات من الله تعالى : ﴿ ولئن اتَّبعت أهواءَهم بعدما جاءَك من العِلْمِ ﴾ [الرعد ٣٧/١٣] والقرآن من علم الله ، فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

والمقصود من تلاوة كتاب الله حق التلاوة : اتباعه حق الاتباع ، كما بينا ، قال أبو موسى الأشعري : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة ، وقال الحسن البصري : هم الذين يعملون بمحكَمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويَكِلُون ماأشكل عليهم إلى عالمه .

تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

المفردات اللغوية

﴿ واتقوا ﴾ خافوا ﴿ لا تجزي ﴾ تغني ﴿ عدل ﴾ فداء ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ يمنعون من عذاب الله .

التفسير والبيان :

يكرر المولى سبحانه للتأكيد تذكير اليهود بالنعم التي أنعم الله بها عليهم ، لتجديد ثقتهم ونشاطهم ، وتشجيعهم وحفز هممهم ، وبعث نفوسهم على الإيمان وحثهم على اتباع النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ، ثم قرن الله تعالى بالعظة والتذكير التخويف من حساب يوم القيامة .

ففي الآية الأولى يعظ الله اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل ، ويذكرهم بالنعم الكثيرة الدنيوية والدينية التي أنعم بها على آبائهم ، بإنقاذهم من أيدي عدوهم ، وإنزاله المن والسلوى عليهم ، وتمكينهم في البلاد بعد المذلة والقهر ، وإرساله الرسل منهم ، وتفضيلهم على عالمي زمانهم ، حين كانوا مطيعين للرسل ،

مصدقين لما جاءهم من عند ربهم ، حتى يتركوا ضلالهم ، ويثوبوا إلى رشدهم . ومن أجل النعم التوراة المنزلة عليهم ، فمن شكر النعمة وآمن بجميع ما فيها ، آمن بالنبي ﷺ المبشر به فيها .

وفي الآية الثانية يحذرهم الله من عذاب يوم القيامة بسبب تحريف التوراة ، والتكذيب برسول الله محمد ﷺ ، ذلك اليوم الذي لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئاً من الحقوق التي لزمتها ، فلا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ، ولا تدفع عنها شيئاً ، ولا يؤخذ منها فدية تنجو بها من النار ، ولا يشفع بما يجب عليها شافع ، ولا ناصر ينصرهم ، فيمنع عنهم عذاب الله .

فقه الحياة أو الأحكام :

تؤكد هذه الآية ما جاء في صدر السورة ، لحث اليهود وغيرهم على اتباع الرسول النبي الأمي المطابقة صفته لما في التوراة ، وتأمرهم ببواعث الإيمان : وهي تذكر النعم الدينية والدنيوية التي أنعم الله بها على آبائهم ، والإقلاع عن حسد بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال خاتم النبيين منهم ، وألا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه .

فإن أبوا فإن مصيرهم المحتوم هو الحساب الشديد يوم القيام ، المحقق الوقوع والنتيجة أو الأثر وهو العقاب ، دون أن ينفع الوسطاء أو الشفعاء ،والبدل أو الفداء ، والنصر أو المنع من العذاب ، ويكون كل امرئ مسؤولاً عن نفسه ، ولا يسأل أحد عن غيره ، كما قال تعالى : ﴿ كلُّ امرئٍ بما كَسَب رَهينٌ ﴾ [الطور ٥٢ / ٢١] ﴿ ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٤] .

اختبار ابراهيم عليه السلام
وخصائص البيت الحرام وفضائل مكة

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ
ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه ﴾ فيه تقديم المفعول على الفاعل ، وهو واجب ، لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول .

﴿ من آمن منهم ﴾ بدل منصوب من ﴿ أهله ﴾ بدل بعض من كل ، وضمير ﴿ منهم ﴾ يعود إلى المبدل منه ؛ لأن بدل البعض من الكل ، لابد أن يعود منه ضمير إلى المبدل منه لفظاً أو تقديراً .

﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ﴾ : ﴿ من ﴾ إما منصوب بفعل مقدر تقديره : وأرزق من كفر ، وإما مرفوع مبتدأ ، وهي شرط ، و ﴿ فأمتعه ﴾ الخبر والجواب . و ﴿ قليلاً ﴾ منصوب إما لأنه صفة لمصدر محذوف ، وتقديره : تمتيعاً قليلاً ، أو لأنه صفة لظرف محذوف ، وتقديره : زماناً قليلاً .

البلاغة :

﴿ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ تشريف له ، بتكليفه الأوامر والنواهي التي يظهر بها استحقاقه للإمامة .

﴿ وأمناً ﴾ فيه استعمال المصدر محل اسم الفاعل للمبالغة ، وتقديره : وآمناً .

و ﴿ طهّرا بيتي ﴾ إضافة البيت لله عز وجل للتشريف والتعظيم ، لا أن هناك مكاناً محل لله تعالى.

المفردات اللغوية :

﴿ ابتلى إبراهيم ﴾ اختبره ، والابتلاء : الاختبار ، أي معرفة حال المختبر بتكليفه بأمور يشق عليه فعلها أو تركها ، ليجازيه عليها. ﴿ بكلمات ﴾ أي أوامر ونواهٍ ، قيل : هي مناسك الحج ، وقيل خصال الفطرة : وهي المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق الشعر وقلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء . ﴿ فأتمهن ﴾ أداهن تامات . ﴿ إماماً ﴾ قدوة في الدين أو رسولاً . ﴿ ذريتي ﴾ أولادي ، أي اجعل أئمة منهم . ﴿ عهدي ﴾ بالإمامة . ﴿ الظالمين ﴾ الكافرين منهم ، دل على أنه ينال غير الظالم .

﴿ البيت ﴾ بيت الله الحرام أو الكعبة . ﴿ مثابة ﴾ مرجعاً ومآباً يثوبون إليه من كل جانب . ﴿ وأمناً ﴾ مأمناً من الظلم والإغارة الواقعة في غيره ، كان الرجل يلقى قاتل أبيه ، فلا يتعرض له ﴿ مقام إبراهيم ﴾ هو الحجَرُ الذي قام عليه عند بناء البيت . ﴿ مصلى ﴾ مكان صلاة ، بأن تصلوا خلفه ركعتي الطواف .

﴿ طهرا بيتي ﴾ من الأوثان . ﴿ العاكفين ﴾ المقيمين فيه ، الملازمين له . و ﴿ الثمرات ﴾ المأكولات التي تخرجها الأرض . والاضطرار : الإلجاء والحمل على الشيء أو الإكراه .

سبب نزول الآية (١٢٥) :

﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ : روى البخاري وغيره عن عمر قال : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو أخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت : ﴿ واتَّخِذوا من مَقَامِ ابراهيمَ مُصَلًّى ﴾ . وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة ، فقلت لهن : ﴿ عَسَى ربُّه إن طلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَه أزواجاً خَيْراً منكن ﴾ [التحريم ٦٦ / ٥] فنزلت .

المناسبة العامة للآيات :

بعد أن ذكرَّ الله تعالى بني إسرائيل نعمه ، وأبان كيف قابلوا النعم بالكفر والجحود ، أعقب ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام أبي الأنبياء ، الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ، ولو صدقوا لاتبعوا النبي محمداً ﷺ ؛ لأنه أثر دعوة أبيه ابراهيم حين دعا لأهل الحرم ، فالكلام كله متصل مع أهل الكتاب .

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد لقومك المشركين وغيرهم حين اختبر الله ابراهيم ببعض التكاليف من أوامر ونواهٍ ، فأتى بها على وجه الكمال ، وأداها خير أداء ، كما قال سبحانه : ﴿ وإبراهيم الذي وفىٰ ﴾ [النجم ٣٧/٥٣] . وبما أن الله تعالى عالم بصدق المختبر ، فكان المراد أنه عامله معاملة المختبر ، ليظهر ذلك للخلق .

والمراد من ذكر الوقت في قوله ﴿ وإذا ابتلى ﴾ ما وقع فيه من الحوادث . ولم يعين القرآن الكلمات ، فقيل : هي مناسك الحج ، وقيل : إنها الكوكب والشمس والقمر التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، وقيل : غير ذلك .

فجازاه الله تعالى أحسن الجزاء ، وقال له : إني جاعلك للناس رسولاً وإماماً تؤمهم في دينهم ، ويأتمون بك في هذه الخصال ، ويقتدي بك الصالحون ، فدعا الناس إلى ملة التوحيد ونبذ الشرك .

قال ابراهيم : وجاعل بعض ذريتي كذلك ؟ متمنياً لذريته الخير في سلوكهم ودينهم وأخلاقهم ، ولا غرو فالإنسان يتمنى أن يكون ابنه أحسن منه .

فأجابه الله تعالى : أجبتك إلى طلبك ، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن لا ينال عهدي بالإمامة أو النبوة الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ، إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس ؛ لأن الإمام قدوة للناس في حراسة الدين

وأهله وحمل الأتباع على الاستقامة ، ومنع الجور ، فإذا كان الإمام ظالماً لنفسه بالانحراف ، فكيف يقوّم غيره ؟ والمراد بالعهد : النبوة أو الإمامة .

وفيه دليل على مقت الظلم ، والتنفير من الظالمين ، والبعد عنهم .

ثم ذكّرَ الله تعالى العرب في هذه الآيات بنعم كثيرة ، منها : جعل البيت الحرام (الكعبة) مرجعاً للناس يقصدونه ، ومآباً يثوبون إليه للعبادة وقت الحج وغيره ، وفي ذلك تنشيط لحركة التجارة والاقتصاد وجلب الخير ، ومنها جعله مأمناً يطمئن إليه الأفراد من المخاوف ، فمن دخله كان آمناً ، ويتخطف الناس من حوله ، كما قال سبحانه : ﴿ أولم يَرَوْا أنا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ، ويتَخطَّفُ الناسُ من حولهم ، أفبالباطلِ يُؤمنون ، وبنعمةِ اللهِ يَكْفُرون ؟ ﴾ [العنكبوت ٦٧/٢٩] .

ثم أمر الله المسلمين أن يتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، بأن يفضلوه على غيره في الصلاة ، لشرفه بقيام ابراهيم فيه ، فالأمر فيه للندب ، لا للوجوب ، والمسلمون مأمورون بذلك كما أمر به المؤمنون المعاصرون لإبراهيم الخليل عليه السلام .

وهذا البيت طاهر مطهر ، وصينا إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان وعبادة الأصنام التي كان عليها المشركون قبل أن يصير في يد إبراهيم عليه السلام ، وتطهيره من كل رجس حسي أودنس معنوي كاللغو والرفث والتنازع فيه ، حين أداء المناسك والعبادات كالطواف والسعي بين الصفا والمروة ، والإقامة فيه ، والركوع والسجود ، وقد روي عن النبي ﷺ : أنه لما فتح مكة ، دخل المسجد ، فوجدهم قد نصبوا على البيت الأوثان ، فأمر بكسرها ، وجعل يطعن فيها بعود في يده ، ويقول : ﴿ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ ، إن الباطِلَ كان زَهُوقاً ﴾ [الإسراء ٨١/١٧] .

وفيه أن إبراهيم ومن بعده كانوا مأمورين بهذه العبادات ، وإن لم تعرف

الكيفية وطريقة الأداء . وسمي بيتاً ؛ لأن الله جعله معبداً لأداء العبادة الصحيحة ، وأمر المصلين أن يتجهوا إليه في عبادتهم .

والحكمة في اتخاذ الكعبة مقراً لاتجاه المصلين : هو توحيد المشاعر والعواطف ، وحصر الاتجاه إلى الذات الإلهية المقدسة ، رمزاً إلى حضوره تعالى ، والحضور الحقيقي محال عليه ، فكان المراد أن رحمته الإلهية تحضره . ومن ثم كان التوجه إلى الكعبة كالتوجه إلى تلك الذات العلية .

ومن نعمه تعالى على العرب التي أمر الله نبيه أن يذكّرهم بها : دعاء إبراهيم عليه السلام : أن يجعل هذا البلد في أمن وطمأنينة ، فلا يتسلط عليه الجبارون ، ولا يعكر صفوه المجرمون الآثمون ، ويحميه سبحانه وتعالى من الخسف والزلزال والغرق والهدم ونحو ذلك من مظاهر سخط الله على بلاد أخرى .

ودعاؤه أن يرزق أهله من أنواع الثمار وأطيبها ، ومن خيرات الأرض وبركاتها وأمنها ، إما بالزرع بالقرب منه ، وإما بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة ، وقد حصل كل ذلك ، كما هو مشاهد ، وكما قال تعالى : ﴿ أولم نمكّنْ لهم حَرَماً آمِناً يُجبَى إليه ثمراتُ كلّ شيءٍ ، رِزْقاً من لدُنّا ، ولكنّ أكثرَهم لا يَعْلَمُون ﴾ [القصص ٥٧/٢٨] .

وفي إجابة دعاء إبراهيم تكريم للمؤمنين ، وإن كانت رحمة الله شاملة للمؤمنين والكافرين ، فيرزق الله الجميع ، كما قال تعالى : ﴿ كلاّ نُمِدُّ هَؤلاء وهؤلاء من عَطاء ربِّك ، وما كان عطاءُ ربِّك محظوراً ﴾ [الإسراء ٢٠/١٧] لكن تمتيع الكافر بنعم الدنيا قصير محدود ، ثم إلى النار ، فمن كفر يرزقه الله أيضاً ، ويمتعه بهذا الرزق أمداً قليلاً ، وهو مدة وجوده في الدنيا ، ثم يساق إلى عذاب جهنم سوقاً اضطرارياً ، وبئس المصير مصيرهم الذي ينتظرهم .

وفيه ترغيب لعرب قريش بالإيمان ، وزجر عن الكفر ، وترهيب لهم

ولأهل الكتاب من الإعراض عن دعوة الإسلام ، فالله تعالى خص طلب الرزق للمؤمنين ، إشارة إلى جدارتهم واستحقاقهم له .

فقه الحياة أو الأحكام :

النبوة أو الإمامة في الدين الصالحة الدائمة الأثر تتطلب الاستقامة على أوامر الله واجتناب نواهيه ، والإمامة المؤقتة القائمة على الانحراف والظلم تحفر لنفسها قبرها بيدها ، وتدمر كيانها ، وتقوض عرش وجودها . فالظلم مانع من الإمامة ومن اتخاذ الظالم قدوة للناس . ولا تكون الإمامة الصالحة أو النبوة إلا للأفاضل الذين يعملون الصالحات ، ويرشدون إلى الخير ، ويزجرون أنفسهم وغيرهم عن الشر والآثام ، ولا حظّ للظالمين في شيء من هذا ؛ لأن الظلم مؤذن بخراب المدنيات ، وتدمير الحضارة والعمران .

واستدل جماعة بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل ، مع القوة على القيام بذلك . فأما أهل الفسوق والجور والظلم ، فليسوا له بأهل ، لقوله تعالى : ﴿ لا ينالُ عهدي الظالمين ﴾ .

والذي عليه أكثر العلماء : أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدي السفهاء ، وشن الغارات على المسلمين ، والفساد في الأرض .

وإن تعظيم البيت الحرام بالطواف حوله والسعي فيه أمر قديم من عهد أبينا إبراهيم عليه السلام ، وتخصيصه بالاتجاه إليه رمز لوجوده تعالى هناك ، مع أن ذاته العليه لا تتحدد بمكان ، وحضوره تعالى معناه حضور رحمته ، وإفاضة فضله ، وإسباغ نعمه ، وإجابة الدعاء فيه .

والجدير بالرزق الإلهي : من آمن بالله واليوم الآخر ، وأطاع ربه ، واستقام على أوامر الله ، واجتنب ما نهى الله عنه .

والإنسان مخير في اختيار الحق والطيّب والتزام جادة الاستقامة ، وترك الباطل والخبيث ، بما أعطاه الله من العقل ، وبما أرشده به من الوحي ، فمن حاد عن ذلك ، فقد ظلم نفسه ، وعرَّضها للعذاب والشقاء ، ويكون ذلك سبباً لحمله على العذاب ، وإلجائه إليه ، وصب السخط عليه والانتقام منه .

وأما الكلمات التي اختبر الله بها ابراهيم : فهي الوظائف التي كلفه بها ، ولما كان تكليفها بالكلام سميت به ، كما يسمى عيسى بالكلمة ؛ لأنه صدر عن الكلمة ، وهي كن ، وتسمية الشيء بمقدمته أحد قسمي المجاز .

واختلف العلماء في بيان المراد من الكلمات على أقوال ، منها ما يأتي :

أحدها ـ أنها شرائع الإسلام ، وقد أكملها إبراهيم عليه السلام ، فما قام أحد بوظائفَ الدين مثله ، ثم قام بها بعده كثير من الأنبياء عليهم السلام ، وخصوصاً محمداً ﷺ . قال ابن عباس : ما ابتلى الله أحداً بهن ، فقام بها كلها إلا إبراهيم عليه السلام ، ابتُلِي بالإسلام ، فأتمه ، فكتب الله له البراءة ، فقال : ﴿ وإبراهيمَ الذي وفّى ﴾ [النجم ٣٧/٥٣] .

الثاني ـ أنها الفطرة التي أقامها الله تعالى فيه . روت عائشة في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « عَشْر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللِّحْية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم (غسل عُقَد ظهور الأصابع لاجتماع الوسخ فيها) ، وحلق العانة ، ونَتْف الإبط ، وانتقاص الماء أي الاغتراف منه ، ونسيت العاشرة ، إلا أن تكون المضمضة » .

الثالث ـ أنها الكوكب والشمس والقمر ، التي رآها واستدل بأفولها على وجود الله تعالى ووحدانيته . وهذا القول هو الذي فسر به ابن كثير (الكلمات) ثم أورد قول ابن جرير الطبري وحاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على

التعيين إلا بحديث أو إجماع . ثم قال : ولم يصح في ذلك خبر ، بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

الرابع ـ قال ابن عباس : « الكلمات التي ابتلى اللهُ بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجة نمرود في الله ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه ، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه » ويظهر أن هذا أصح الأقوال .

واختلف العلماء أيضاً في تفسير الأمن على أربعة أقوال :

الأول ـ أنه أمن من عذاب الله تعالى ، والمعنى أن من دخله معظّماً له ، وقصده محتسباً الأجر ، سلم من العذاب ، ويعضده قول النبي ﷺ في الصحيح : « من حج فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

الثاني ـ معناه : من دخله كان آمناً من التشفي والانتقام ، كما كانت العرب تفعله فيمن أناب إليه ، من تركها لحق يكون لها عليه .

الثالث ـ أنه أمنٌ من حد يقام عليه ، فلا يقتل به الكافر ، ولا يقتص فيه من القاتل ، ولا يقام الحد على المحصن والسارق ، قاله أبو حنيفة وغيره .

الرابع ـ أنه أمن من القتال ، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلّط عليها رسولَه والمؤمنين ، ولم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار » .

قال ابن العربي : والصحيح فيه القول الثاني ، وهذا إخبار من الله تعالى عن منّته على عباده ، حيث قرر في قلوب العرب تعظيم هذا البيت ، وتأمينَ من لجأ إليه ، إجابة لدعوة إبراهيم ﷺ ، حين أنزل به أهله وولده ، فتوقع عليهم الاستطالة ، أي الاعتداء ، فدعا أن يكون أمناً لهم ، فاستجيب دعاؤه[1] .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣٨/١ ـ ٣٩

والصحيح من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى معناه : موضعاً للصلاة المعهودة ، كما بان في سبب نزول الآية السابق ذكره عن عمر رضي الله عنه ، واتضح منه أربعة أمور : وهي أن ذلك الموضع هو المقام المراد في الآية ، وأن المراد به الصلاة المتضمنة للركوع والسجود ، لا مطلق الدعاء ، وأن الصلاة عقب الطواف ، وأن ركعتي الطواف مطلوبتان ، وهما عند المالكية : واجبتان ، فمن تركهما ، فعليه دم .

وقال الجصاص الحنفي عن قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى ﴾ هو أمر ظاهره الإيجاب ، والمراد بالآية فعل الصلاة بعد الطواف ، وقد روي أن النبي ﷺ قد صلاهما عند البيت . فدلت هذه الآية على وجوب صلاة الطواف ، ودل فعل النبي ﷺ لها تارة عند المقام ، وتارة عند غيره على أن فعلها عنده ليس بواجب .

ويفهم من قوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ عدم جواز تولية الظالم ، أو الفاسق ، ولا فرق بين القاضي وبين الخليفة في أن شرط كل واحد منهما العدالة ، وأن الفاسق لا يكون خليفة ولا يكون حاكماً ، كما لا تقبل شهادته ولا خبره لو روى خبراً عن النبي عليه السلام .

قال ابن خُوَيزِمَنْداد : وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ، ولا إمام صلاة ، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تُقبل شهادته في الأحكام ، غير أنه لا يُعزل بفسقه ، حتى يعزله أهل الحل والعقد .

وقال أيضاً : وأما أخذ الأرزاق (المخصصات المالية) من الأئمة الظلمة فله ثلاث أحوال : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذاً على موجب الشريعة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطاً

حلالاً وظلماً ، فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج . وإن كان ما في أيديهم ظلماً صُرَاحاً فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم[1] .

وقال الجصاص : دل قوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ على أن الإجابة وقعت له في أن ذرية إبراهيم أئمة .

واستدل أبو حنيفة بقوله تعالى : ﴿ وأمناً ﴾ على ترك إقامة الحد في الحرم على الزاني الْمُحْصَن والسارق إذا لجأ إليه ، وعضدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ [آل عمران ٩٧/٣] . والصحيح ـ كما قال القرطبي ـ إقامة الحدود في الحرم ، وأن ترك إقامتها من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت .

وآية : ﴿ أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود ﴾ استدل بها أبو حنيفة والشافعي والثوري على جواز صلاة الفرض والنفل داخل البيت الحرام ، قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبلاً حائطاً من حيطانها ، فصلاته جائزة ، وإن صلى نحو الباب ، والباب مفتوح ، فصلاته باطلة ، وكذلك من صلى على ظهرها ؛ لأنه لم يستقبل منها شيئاً .

وقال مالك : لا يصلي في البيت الفرض ولا السُّنن ، ويصلي فيه التطوع (غير الرواتب) ؛ غير أنه إن صلى فيه الفرض ، أعاد في الوقت ، ودليله : ما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي ﷺ لما دخل البيت ، دعا في نواحيه كلها ، ولم يصلِّ فيه حتى خرج منه ؛ فلما خرج ركع في قُبَلِ الكعبة ركعتين .

والحاصل : لا خلاف في صحة التطوع في الكعبة ، وأما الفرض فلا يصح عند المالكية ؛ لأن الله تعالى عين الجهة بقوله تعالى : ﴿ فولُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة ١٥٠/٢] .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠٩/٢ وما بعدها .

وأما **الصلاة على ظهر الكعبة** ، فأجازها الشافعي ، وقال مالك : من صلى على ظهر الكعبة ، أعاد في الوقت . وقال أبو حنيفة : من صلى على ظهر الكعبة ، أعاد في الوقت . وقال أحمد : من صلى على ظهر الكعبة ، فلا شيء عليه .

وهل **الصلاة عند البيت** أفضل أو الطواف به ؟ اختلفوا ، فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل . والجمهور على أن الصلاة أفضل .

بناء البيت الحرام ودعاء إبراهيم وإسماعيل

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

الإعراب :

﴿ ربنا تقبل منا ﴾ أي يقولان : ربنا تقبل منا ، فحذف « يقولان » وحذف القول كثير في كتاب الله وكلام العرب .

البلاغة :

﴿ وإذ يرفعُ إبراهيم ﴾ عبر بالمضارع عن الماضي ، لاستحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان ، فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع ، وإلى البنّاء وهو إبراهيم وإسماعيل

عليها السلام .

﴿ التواب الرحيم ﴾ من صيغ المبالغة ، على وزن فعّال وفعيل .

المفردات اللغوية :

﴿ القواعد ﴾ واحدها قاعدة ، وهي ما يقوم عليه البناء من الأساس أو من طبقات البناء ، فالقواعد : هي الأسس أو الجدران . ورفعها : إعلاء البناء عليها . وتقبّل الله العمل : قبله ورضي به .

﴿ مسلمين ﴾ منقادَيْن لك ﴿ أمة ﴾ جماعة ﴿ من ذريتنا ﴾ أي اجعل من أولادنا ، ومن للتبعيض ، وأتى به لتقدم قوله : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ ، ﴿ مناسكنا ﴾ شرائع عبادتنا أو حجنا ، واحدها منسَك ـ بفتح السين ، من النسك : وهو غاية الخضوع والعبادة ، وشاع استعماله في عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك في معالم الحج وأعماله لما فيها من الكلفة والبعد عن العادة . ﴿ وتب علينا ﴾ سألاه التوبة ، مع عصمتها تواضعاً وتعليماً لذريتها . وتاب العبد إلى ربه : إذا رجع إليه : لأن اقتراف الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد : رحمه وعطف عليه .

﴿ وابعث فيهم ﴾ أي أهل البيت ﴿ رسولاً منهم ﴾ من أنفسهم ، وقد أجاب الله دعاءه بمحمد ﷺ ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ والحكمة ﴾ أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة ﴿ ويزكيهم ﴾ يطهر نفوسهم من دنس الشرك وأنواع المعاصي ﴿ العزيز ﴾ الغالب ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ماتقتضيه الحكمة والمصلحة .

المناسبة :

بعد أن ذكّر الله تعالى العرب بما أنعم عليهم من فضائل البيت الحرام ، أردف ذلك بتذكيرهم بأن الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذي ينتمون إليه ، وقد كانت قريش تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل ، وتدعي أنها على ملة إبراهيم ، وسائر العرب في ذلك تبع لقريش .

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد لقومك وقت أن بنى إبراهيم وابنه إسماعيل قواعد البيت وأساسه ، والفضيلة في كون البنّاءين نبيين ، وفي تخصيصه للعبادة وسط بلاد وثنية ، لا في أفضلية أحجاره ولا موقعه ولا بأنه نزل من السماء . وجعل التوجه إليه توجهاً إلى الله الذي لا يحده مكان ولا تحصره جهة ، وعُدَّ استلام الحجر الأسود تعبدياً كاستقبال الكعبة في الصلاة ، فلا مزية له في ذاته ، بل هو كسائر الأحجار بدليل قول عمر بن الخطاب عند استلامه : « أما والله ، إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلتك ، ثم دنا فقبّله »[1] .

وفي أثناء إقامة البناء يدعو إبراهيم وإسماعيل قائلين : ربنا إنك أنت السميع لدعائنا ، العليم بنياتنا في جميع أعمالنا . ربنا واجعلنا منقادين لك ، ومخلصين في الاعتقاد فلا نتوجه إلا إليك ، ولا نستعين بأحد إلا بك ، وفي العمل بألا نقصد بعملنا إلا مرضاتك . ربنا واجعل من ذريتنا جماعة مخلصة لك ، منقادة لأوامرك ، ليستمر الإسلام دائماً في الأجيال . ربنا بصّرنا وعرفنا أمور عبادتنا ومواضع نسكنا ، أي أعمال الحج ، كمواقيت الإحرام ، وموضع الوقوف بعرفة ، وموضع الطواف والسعي ، واقبل توبتنا ، إنك أنت التواب الرحيم ، أي كثير التوبة على عبادك بقبولها منهم ، الرحيم بالتائبين لإنجائهم من العذاب .

وهذا منهما إرشاد لذريتهم ، وطلب للتثبت والدوام على الطاعة ، لا أنهما كان لهما ذنب ؛ لأن الأنبياء معصومون ، وليبينوا للناس بعد معرفة المناسك وبناء البيت أن ذلك الموقف وتلك المواضع ، مكان التطهر من الذنوب وطلب التوبة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

ربنا وأرسل في الأمة المسلمة رسولاً منهم ، ليكون أشفق عليهم ، ويكونوا أعزّ الناس به ، وأقرب لإجابة دعوته ، وقد عرفوه معرفة تامة ، ولمسوا منه الصدق والأمانة والعفة والاستقامة ، ونحو ذلك ، يقرأ عليهم آيات دينك المشتملة على إثبات وحدانية الله ، وعلى الإقناع بالبعث والجزاء ، ويعلمهم القرآن وأسرار الشريعة ومقاصدها ، وماتكمل به نفوسهم من العلوم والمعارف ، ويطهرهم من دنس الشرك والوثنية وأنواع المعاصي ، ويعلمهم صالح الأخلاق ، إنك أنت القوي الذي لا يغلب ، الحكيم في كل صنع ، فلا تفعل إلا ماتقتضيه الحكمة والمصلحة ، قال مالك : والحكمة : المعرفة بالدين ، والفقه بالتأويل ، والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

في هذه الأدعية تعليم لنا أن نطلب في ختام أعمالنا قبولها ، وأن ندعو بصلاح أنفسنا وذريتنا ليستمر الإسلام في كل زمان ، ويظهر الانقياد والخضوع لخالق السماء والأرض ، والله تعالى جعل المناسك ومواقف الحج أمكنة للتخلص من الذنوب وطلب الرحمة من الله ، والله كريم رحيم . وقد أجاب الله دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل ، فأرسل خاتم النبيين محمداً ﷺ رسولاً من العرب ، قال ﷺ : « أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورؤيا أمي » ، وأكرم الله أمة العرب ، فجعلها بالإسلام خير الأمم ، وكان لها السيادة والمجد والسلطة في المشارق والمغارب ، حيناً من الزمان ، وكان منها ومن المسلمين غير العرب رجال هم مفخرة التاريخ في العدل والسياسة والقضاء والعلم والفكر والأدب والحضارة .

أما بناء الكعبة : فكان بالطين والحجارة ، وظل كذلك إلى أن هدمتها قريش وأعادوا بناءها ، ورفعوها عن الأرض عشرين ذراعاً ، وتم وضع الحجر من قبل النبي ﷺ وهو شاب قبل البعثة ؛ لأنهم حكّموا أول من يطلع عليهم ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ ، فحكّموه ، ووضع الحجر في ثوب ، ثم أمر سيد كل

قبيلة ، فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو ، فرفعوا إليه الحجر الأسود ، فكان هو يضعه ﷺ . ولم يُدخلوا حِجْر الكعبة في البناء أي حِجْر إسماعيل من جهة الشمال ، لعجز النفقة لديهم ، ثم رأى النبي تجديد البناء ، لكنه كما روت عائشة رضي الله عنها قال : « لولا حداثة عهد قومِك بالكفر ، لنقضت الكعبة ، ولجعلتها على أساس إبراهيم ، فإن قريشاً حين بنت الكعبة استقصرت ، ولجعلتُ لها خلْفاً » ، يعني باباً . وفي البخاري : « لجعلت لها خَلْفين » يعني بابين .

ثم لما غزا أهل الشام في عهد الأمويين عبد الله بن الزبير ، ووهَت الكعبة من حريقهم ، أعاد بناءها ابن الزبير ، وبناها على ماأخبرته عائشة ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحِجْر ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، فزاد في طوله عشرة أذرع ، وجعل لها بابين ، أحدهما يُدخل منه ، والآخر يُخرج منْه ، كما روى مسلم في صحيحه .

ثم لما قتل ابن الزبير أعاد الحجاج بناء الكعبة ، ورد مازاد فيه من الحِجْر إلى بنائه ، وسَدَّ الباب الذي فتحه ، وأعاده إلى بنائه ، بأمر الخليفة عبد الملك .

ورُوي أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم مابنى الحجاج من الكعبة ، وأن يردَّه على بناء ابن الزبير ، لما جاء عن النبي ﷺ ، وامتثله ابن الزبير ، فقال له مالك : ناشدتك الله ياأمير المؤمنين ، ألا تجعل بهذا البيت ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد منهم ، إلا نقض البيت وبناه ، فتذهب هيبته من صدور الناس .

وأما كسوة الكعبة ، فقال العلماء : لا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء ، فإنه مهدي إليها ، ولا ينقص منها شيء .

سفاه من يرغب عن ملة إبراهيم

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

الإعراب

﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ نصب ﴿ نفسه ﴾ إما بنزع الخافض الجار ، وتقديره : سفه في نفسه ، أو لأن ﴿ سفه ﴾ بمعنى جهل ، وهو فعل متعد بنفسه ، أو منصوب على التمييز ، وهو قول الكوفيين . ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ : ﴿ في ﴾ متعلقة بعامل مقدر ، وتقديره : وإنه صالح في الآخرة لمن الصالحين ، ولا يجوز أن تتعلق بالصالحين ؛ لأنه يؤدي إلى تقديم معمول الصلة على الموصول .

﴿ ووصى بها ﴾ الضمير يعود إلى الملة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ .

البلاغة :

﴿ ومن يرغب ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي ، أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه ، والجملة واردة لتوبيخ الكافرين . ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ التأكيد ب (إن) و (اللام) لتعلقه بأمر غيبي في الآخرة ، بخلاف حال الدنيا ، فإنه مشاهد .

﴿ إذ قال له ربه : أسلم ﴾ التفات عن الحضور إذ السياق : (قلنا) إلى الغيبة . و﴿ ربه ﴾ لإظهار مزيد اللطف والاعتناء بتربيته . وجواب إبراهيم ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ دليل على قوة إسلامه ، وفيه إشارة إلى وجوب الخضوع لله تعالى ، وفيه التفات من الخطاب إلى الغائب .

المفردات اللغوية :

﴿ ومن يرغب ﴾ رغب في الشيء : أحبه ، ورغب عنه : كرهه ، ﴿ سفه نفسه ﴾ جهل أنها مخلوقة لله يجب عليها عبادته ، أو استخف بها واعتهنها أي أذلها واحتقرها . ﴿ اصطفيناه ﴾ اخترناه بالرسالة في ذلك الوقت .

﴿ أسلِمْ ﴾ أي انقاد لله وأخلص له العبادة والدين .

﴿ ووصى بها ﴾ التوصية : إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل في الدين أو الدنيا ، ﴿ فلا تموتن ﴾ نهي عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى الموت .

سبب نزول الآية (١٣٠) :

قال ابن عيينة : روي أن عبد الله بن سلام دعا ابنَيْ أخيه : سلمة ومهاجراً ، إلى الإسلام ، فقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة : إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم سلمة ، وأبى مهاجر ، فنزلت فيه الآية .

التفسير والبيان :

بعد أن ذكر الله سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهن ، وأنه عهد إليه ببناء البيت وتطهيره للعبادة ، أردف ذلك ببيان أن ملة إبراهيم وهي التوحيد وإسلام القلب لله ، لا يصح لأحد التحول عنها ، وبها وصى يعقوب بنيه ، ووصى بها من قبله إبراهيم .

فلا يرغب أحد عن ملة إبراهيم ودينه إلا شخص أذل نفسه واستخف بها ؛ لأن من يترك الخير والحق والهدى ، فقد امتهن نفسه وأذلها .

ولقد اصطفى الله إبراهيم في الدنيا ، فجعله أبا الأنبياء ، وجعله في الآخرة من المشهود لهم بالصلاح والاستقامة وإرشاد الناس للعمل بملته . وهذه بشارة لإبراهيم بصلاح حاله في الآخرة ووعد له بذلك .

اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من الأدلة على وحدانية الله ، فما كان منه إلا أن بادر بالانقياد والامتثال ، وقال : أخلصت ديني لله الذي أوجد الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ إني وجَّهت وجهيَ للذي فَطَر السموَاتِ والأرضَ حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام ٧٩/٦] .

ولقد أراد إبراهيم الخير لذريته ، فأوصاهم بالملة الحنيفية ، وكذلك فعل يعقوب عليها السلام ، وقالا لهم : إن الله اختار لكم هذا الدين ـ دين الإسلام ، الذي لا يتقبل الله سواه ، فاثبتوا على الإسلام لله ، ولا تفارقوه ، حتى لا تفاجأكم المنية ، وأنتم على غير الدين الحق الذي اصطفاه لكم ربكم . وفي هذا فتح باب الأمل أمام المنحرف ليعود إلى الله ويعتصم بالدين ، قبل الموت .

فانظروا أيها اليهود : هل أنتم تتبعون آباءكم إبراهيم ويعقوب أو لا ؟

فقه الحياة أو الأحكام :

تندد هذه الآيات بكل من أعرض عن ملة إبراهيم ـ ملة التوحيد والانقياد والإخلاص لله ، وتوبخ الكافرين الذين كرهوا هذه الملة . وملة الإسلام قديمة دعا لها الأنبياء جميعاً ، والإسلام في كلام العرب : الخضوع والانقياد للمسلَم إليه ، وليس كل إسلام إيماناً ، لكن كل إيمان إسلام ؛ لأن من آمن بالله فقد استسلم وانقاد لله ، وليس كل من أسلم آمن بالله ؛ لأنه قد يتكلم فَزَعاً من السيف ، ولا يكون ذلك إيماناً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قالتْ الأعرابُ : آمنَّا ، قل : لم تُؤْمنوا ، ولكن قولوا : أسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات ١٤/٤٩] فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمناً ، فدل على أنه ليس كل مسلم مؤمناً ، فإن الإيمان باطن ، والإسلام ظاهر . وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام ، والإسلام ويراد به الإيمان ؛ للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه .

وقال القدرية والخوارج : إن الإسلام هو الإيمان ، فكل مؤمن مسلم ، وكل

مسلم مؤمن ، لقوله تعالى : ﴿ إن الدِّينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ [آل عمران ١٩/٣] فدل على أن الإسلام هو الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن .

ووصى بالإسلام إبراهيم ويعقوب ؛ لأنه الدين الحق ، وبنو إبراهيم : إسماعيل ، وأمه هاجر القبطية ، وهو أكبر ولده ، نقله إلى مكة وهو رضيع له سنتان ، وولد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة ، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة ، وكان سنه يوم مات أبوه إبراهيم عليهما السلام تسعاً وثمانين سنة ، وهو الذبيح في قول مشهور . وإسحاق : أمّه سارة ، وهو الذبيح في قول آخر ، وهو الأصح في رأي القرطبي[1] . ومن ولده : الروم واليونان والأرمن ونحوهم وبنو إسرائيل ، وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة ، ومات بالأرض المقدسة ، ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام . ودخل يعقوب فيمن أوصى إبراهيم .

ولم ينقل أن يعقوب أدرك جده إبراهيم ، وإنما ولد بعد موت إبراهيم ، وأوصى يعقوب بنيه كما فعل إبراهيم ، عاش يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة ، ومات بمصر ، وأوصى أن يُحمل إلى الأرض المقدسة ، ويُدفن عند أبيه إسحاق ، فحمله يوسف ودفنه عنده .

وبما أن الإسلام قديم وهو دعوة كل الإنبياء ، أوصى إبراهيم ويعقوب بالتزامه ، فقالا : الزموا الإسلام وداوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا ، فأتى بلفظ موجز يتضمن المقصود ، ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت ، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ، ولا يدري متى ؛ فإذا أُمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه ، فقد توجه الخطاب من وقت الأمر دائباً لازماً .

فظاهر قوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ : وهو النهي عن

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣٥/٢ والأصح كما سيأتي في سورة (الصافات) أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

الموت إلا على حالة الإسلام ، غير مراد ، وإنما المقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت ، فهو نهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف الإسلام[1] .

إبطال دعوى اليهود أنهم على دين إبراهيم ويعقوب

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ
وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا
أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ
أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ
مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

الإعراب :

﴿ ماتعبدون ﴾ ﴿ ما ﴾ اسم استفهام في موضع نصب بـ ﴿ تعبدون ﴾ وتقديره : أي شيء تعبدون ﴿ من بعدي ﴾ أي بعد موتي ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . ﴿ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ في موضع جر على البدل من ﴿ آبائك ﴾ ولا ينصرف للعجمة والتعريف . ﴿ إلهاً واحداً ﴾ إما منصوب بدل من قوله ﴿ إلهك ﴾ أو حال منه .

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٣٩٩/١

﴿ تلك أمة ﴾ مبتدأ وخبر . ﴿ قد خلت ﴾ صفة « لأمة » وكذلك ﴿ لها ما كسبت ﴾ .

﴿ بل ملةَ ﴾ منصوب بفعل مقدر ، وتقديره : بل نتبع ملة إبراهيم ﴿ حنيفاً ﴾ إما حال منصوب ، من إبراهيم ؛ لأن المعنى : بل نتبع إبراهيم أو منصوب بفعل مقدر تقديره : أعني ، إذ لا يجوز وقوع الحال من المضاف إليه .

﴿ فإن آمنوا بمثل ﴾ الباء زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ [يونس ٢٧/١٠] أي مثلُها كالآية الأخرى : ﴿ وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها ﴾ [الشورى ٤٠/٤٢] . و ﴿ ماآمنتم ﴾ : « ما » مع الفعل بعدها في تأويل المصدر ، وتقديره : بمثل إيمانكم به أي بالله .

البلاغة :

﴿ أم كنتم شهداء ﴾ معنى الاستفهام هنا : التقريع والتوبيخ ، وهو في معنى النفي ، أي ماكنتم شهداء ، فكيف تنسبون إليه مالا تعلمون ولاشهدتموه أنتم ولا أسلافكم . ﴿ إذ حضر يعقوب الموتُ ﴾ كنى بالموت عن مقدماته ؛ لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً . ﴿ آبائك ﴾ مجاز للتغليب ، إذ شمل العم وهو إسماعيل ، والجد وهو إبراهيم ، والأب وهو إسحاق .

﴿ وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي قال اليهود : كونوا يهوداً ، وقال النصارى : كونوا نصارى .

﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ فيه إيجاز ، أي يكفيك الله شرهم . والتعبير بالسين بدل سوف للدلالة على أن النصر عليهم قريب . ﴿ السميع العليم ﴾ من صيغ المبالغة ، ومعناه : الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء .

المفردات اللغوية :

﴿ أم كنتم شهداء ﴾ « أم » هنا بمعنى « بل » وبمعنى همزة الإنكار والمعنى : أكنتم حضوراً ، والهمزة بمعنى النفي ، أي ماكنتم شهداء ، وحضور الموت : حضور أماراته ومقدماته ، ﴿ بعدي ﴾ بعد موتي .

﴿ أمة ﴾ جماعة ، ﴿ خلت ﴾ مضت وذهبت ﴿ لها ما كسبت ﴾ ما عملت ، ﴿ ولكم ماكسبتم ﴾ أي أنتم مجزيون بأعمالكم .

﴿ هوداً أو نصارى ﴾ أو للتفصيل ، والهود : اليهود ، جمع هائد أي تائب ، وقائل الأول : يهود المدينة ، وقائل الثاني : نصارى نجران . ﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين الحق القيم .

﴿ قولوا : آمنا ﴾ خطاب للمؤمنين . ﴿ وماأنزل إلى إبراهيم ﴾ من الصحف العشر . ﴿ الأسباط ﴾ واحدهم سبط أي ولد الولد ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب ، والشعوب من العجم ، وهم أولاد يعقوب ﴿ وماأوتي موسى ﴾ وهو التوراة ﴿ و ﴾ ما أوتي ﴿ عيسى ﴾ وهو الإنجيل ﴿ لانفرق بين أحد منهم ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كاليهود والنصارى .

﴿ شقاق ﴾ خلاف معكم ، مأخوذ من الشق وهو الجانب ، فكأن كل واحد في شق غير شق صاحبه ، لما بينهما من عداوة .

سبب نزول الآية (١٣٣) :

نزلت في اليهود حين قالوا للنبي ﷺ : ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية ؟ .

وسبب نزول الآية (١٣٥) :

هو ماأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا للنبي ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال : نزلت في رؤوس يهود المدينة : كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وأبي ياسر بن أخطب ، وفي نصارى أهل نجران ، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين ، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها ، فقالت اليهود : نبينا موسى أفضل الأنبياء ، وكتابنا التوراة أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن ، وقالت النصارى : نبينا عيسى أفضل الأنبياء ، وكتابنا أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بمحمد والقرآن . وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين : كونوا على ديننا ، فلا دين إلا ذلك ، ودعوهم إلى دينهم .

التفسير والبيان :

ما كنتم يا معشر اليهود المكذبين محمداً حاضرين حين احتضر يعقوب ، فلا تكذبوا عليه ، فإني ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية وهي الإسلام ، وبه أوصوا ذريتهم . والدليل أن يعقوب قال لبنيه : أي شيء تعبدون بعد موتي ؟ فأجابوه : نعبد إلهك الله الواحد الذي دلت الأدلة على وجوده ووحدانيته ، ولا نشرك به سواه . وهو إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ونحن له منقادون خاضعون لحكمه . وجعلوا إسماعيل (وهو عمه) أباً ، تشبيهاً له بالأب ، وفي الحديث الصحيح عند الشيخين : « عم الرجل صِنْو أبيه » .

ثم رد الله تعالى على اليهود أنهم نسل الأنبياء وحفدتهم ، فلا يدخلون النار إلا أياماً معدودات ، بقوله : تلك أمة قد مضت بما لها وما عليها ، وجرت سنة الله في عباده ألا يُجزَى أحد إلا بعمله ، ولا يُسأل عن عمل غيره ، كما قال تعالى : ﴿ أم لم ينبَّأ بما في صُحُفِ موسى ، وإبراهيم الذي وفّى ، ألا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى ، وأن ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى ﴾ [النجم ٥٣/٣٦ ـ ٣٩] وقال النبي ﷺ : « يا بني هاشم ، لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم » . فكما أن هؤلاء السابقين لا ينفعهم إلا عملهم ، كذلك أنتم لا ينفعكم إلا أعمالكم .

وبعد أن بين الله تعالى أن دين الله واحد على لسان النبيين جميعاً ، وأن على العرب وأهل الكتاب اتباع الإسلام الذي هو امتداد لدعوة الأنبياء السابقين ، وأن الخلاف في الجزئيات لا يغيِّر من جوهر الدين . بعد هذا ندد المولى سبحانه بتمسك أهل الكتاب بفوارق الدين الجزئية ، فقال اليهود : كونوا مع اليهود في دينهم تهتدوا إلى الطريق السوي ، وقال النصارى : كونوا مع النصارى تصلوا إلى الحق ، وأتباع كل دين يدعون أن دينهم خير الأديان ، فأجابهم الله بقوله : تعالوا إلى ملة إبراهيم الذي تدّعون أنكم على دينه ، فهي الملة التي لا انحراف فيها

ولا اعوجاج ، ولم يكن إبراهيم ممن يشرك بالله سواه من وثن أو صنم . وفي هذا تعريض بشركهم حين قالوا : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله .

ثم أمر الله المؤمنين بأن يقولوا : آمنا بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين مع الخضوع والطاعة لرب العالمين ، فهو مصدر الأديان كلها ، فلا نكذب أحداً من الأنبياء ، بل نصدقه جملة واحدة ، ونؤمن بجوهر الدين وأصله الذي لا خلاف فيه ، ونشهد أن جميع الأنبياء رسل الله بعثوا بالحق والهدى ، فلا نفعل فعل اليهود الذين تبرؤوا من عيسى ومحمد عليهما السلام ، ولا نفعل فعل النصارى الذين تبرؤوا من محمد ﷺ . ونحن خاضعون لله ، مطيعون له ، مذعنون له بالعبودية ، وذلك هو الإيمان الصحيح ، أما أنتم فتتبعون أهواءكم ، فالمؤمن حقيقة : هو من يؤمن بكل الكتب والأنبياء ، ولا يفرق بين أحد من الرسل ، ويؤمن بكل ماجاء به الكتاب الإلهي ، فلا يؤمن بالبعض ، ويكفر بالبعض الآخر .

روى البخاري عن أبي هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرية ، ويفسرونها للمسلمين بالعربية ، فقال النبي ﷺ : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله .. » الآية[1] .

وروى ابن أبي حاتم عن معقل مرفوعاً إلى النبي ﷺ : « آمنوا بالتوراة والإنجيل ، ولْيَسَعْكم القرآن » .

فإن آمن أهل الكتاب الإيمان الصحيح بالله كما آمنتم ، فأقروا بوحدانية الله ، وصدقوا بما أنزل على النبيين والمرسلين ، فقد اهتدوا إلى الطريق المستقيم ، وإن تولوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه يا محمد من الرجوع إلى أصل الدين ، وفرقوا بين رسل الله ، فصدقوا ببعض ، وكفروا ببعض ، فإن موقفهم موقف الشقاق

(١) تفسير القرطبي : ٢/١٤٠

(الخلاف) والنزاع والعداوة ، وإذا كان هذا موقفهم فسيكفيكم الله شرهم وأذاهم ومكرهم . وسيبدد شملهم ، وينصركم عليهم . وقد تحقق ذلك بقتل بني قريظة وسبي ذراريهم ، وإجلاء بني النضير إلى الشام ، وفرض الجزية على نصارى نجران ، والله هو السميع لما يقولون ولكل قول ، العليم بما يسرون من الحقد والحسد والبغضاء ، وبكل فعل .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية : ﴿ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ... ﴾ الآية على أن دين الله واحد في كل أمة ، وعلى لسان كل نبي ، فهو دين التوحيد الخالص لله ، والإذعان لجميع الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ شَرَع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً ، والذي أوْحينا إليك ، وما وَصّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدّينَ ، ولا تتفرّقُوا فيه ﴾ [الشورى ١٣/٤٢] .

ولقد حث القرآن على اتباع الدين الواحد الذي يقوم على أمرين :

الأول ـ التوحيد ونبذ الشرك والوثنية بمختلف الأنواع .

الثاني ـ الاستسلام لله والخضوع له في جميع الأعمال .

فمن لم يتصف بالأمرين معاً فليس بمسلم ، ولا على نهج الدين القيم الذي دعا إليه الأنبياء ، ومنهم النبي ﷺ .

فدين إبراهيم الحنيف هو الدين الذي دعا إليه محمد ﷺ وأتباعه ، وكان إبراهيم حنيفاً ، أي مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الدين الحق .

وكل ما يغاير هذا الأصل ، فيدعو إلى الإشراك ومخالفة ملة إبراهيم ، بجعل عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، فهو من المشركين .

وكل المعبودات من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والأحجار .

ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، كما دلت آية ﴿ ولا تُسألون عما كانوا يَعْملون ﴾ [البقرة ١٣٤/٢] . وآية ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤/٦] أي لا تحمل ثِقل ذنب أخرى .

قال الجصاص عن آية ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ : يدل على ثلاثة معانٍ :

أحدها ـ أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء ولا يعذبون على ذنوبهم ، وفيه إبطال مذهب من يجيز تعذيب أولاد المشركين بذنوب الآباء ، ويبطل مذهب من يزعم من اليهود أن الله تعالى يغفر لهم ذنوبهم بصلاح آبائهم . وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في نظائر ذلك من الآيات ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليها ﴾ [الأنعام ١٦٤/٦] ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤/٦] وقال : ﴿ فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم ﴾ [النور ٥٤/٢٤] ، وقد بين ذلك النبي ﷺ حين قال لأبي رمثة ، ورآه مع ابنه : أهو ابنك ؟ فقال : نعم ، قال : « أما إنه لا يجني عليك ، ولا تجني عليه » وقال عليه السلام : « يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم ، فأقول : لا أغني عنكم من الله شيئاً » وقال عليه السلام : « من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه »[1] .

أما الأسباط : فهم ولد يعقوب عليه السلام ، وهم اثنا عشر ولداً ، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس ، واحدهم سِبْط ، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسُمُّوا الأسباط من السَّبْط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون . قال ابن عباس : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة : نوحاً وشعيباً وهوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً ﷺ . ولم يكن أحد له اسمان إلا عيسى ويعقوب .

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٨٤/١

وأرشدت الآية ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ إلى أن الله ناصر عبده ورسوله محمداً على أعدائه ، وكان هذا وعداً من الله تعالى لنبيه عليه السلام أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولّين ، بمن يهديه من المؤمنين ، فأنجز له الوعد ، وكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة ، وإجلاء بني النضير .

قال الجصاص : هذا إخبار بكفاية الله تعالى لنبيه ﷺ أمر أعدائه ، فكفاه مع كثرة عددهم وحرصهم ، فوجد مخبَره على ما أخبر به ، وهو نحو قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[1] [المائدة ٦٧/٥] .

والمؤمن هو الذي يثق بوعد الله وبتأييده ، ويخشى الله ويتقيه ، لأنه المهيمن على كل شيء في هذا الوجود ، وهو السميع لقول كل قائل ، العليم بما يُنفذه في عباده ويجريه عليهم .

صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبودية لله تعالى

صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(١) المرجع والمكان السابق .

الإعراب

﴿ صبغةَ الله ﴾ أي دين الله ، مصدر مؤكد لآمنا ، وهو إما منصوب بفعل مقدر ، تقديره : اتبعوا صبغة الله ، أو منصوب على الإغراء ، أي عليكم صبغة الله ، أو منصوب بدلاً من قوله تعالى : ﴿ ملة إبراهيم ﴾ . ﴿ ومن أحسن من الله صبغةً ﴾ أي ديناً ، و ﴿ صبغةً ﴾ منصوب على التمييز ، كقولك : زيد أحسن القوم وجهاً .

والجمل الثلاث وهي ﴿ وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ﴾ أحوال .

البلاغة :

﴿ صبغة الله ﴾ سمي الدين صبغة بطريق الاستعارة ، حيث تظهر سمته على المؤمن ، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب .

﴿ أتحاجوننا في الله ﴾ استفهام إنكاري بقصد التوبيخ والتقريع .

المفردات اللغوية :

﴿ صبغة الله ﴾ الصبغة في اللغة : اسم لهيئة صبغ الثوب ، وجعله بلون خاص ، فهي الحالة التي عليها الصبغ ، والمراد بها هنا الإيمان أو دين الله الذي فطر الناس عليه ، لظهور أثره على صاحبه ، كالصبغ في الثوب . والإيمان أو الدين مطهر للمؤمنين من أدران الشرك ، وهو حلية تزينهم بآثاره الجميلة ، وهو متداخل ومنتشر في قلوب المؤمنين ، كما يتداخل الصبغ . وبه يتبين أن الإيمان يشبه الصبغة في التطهير والحلية والتداخل .

﴿ أتحاجوننا ﴾ أتجادلوننا وتخاصموننا ﴿ في الله ﴾ أن اصطفى نبياً من العرب . ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ فله أن يصطفي من عباده من يشاء ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ نجازى بها ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ تجازون بها ﴿ مخلصون ﴾ الدين والعمل ، لا نبغي بأعمالنا غير وجه الله ، فنحن أولى بالاصطفاء .

سبب نزول الآية (١٣٨) :

قال ابن عباس : إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد ، فأتى عليه سبعة أيام ، صبغوه في ماء لهم ، يقال له : المعمودي ، ليطهروه بذلك ، ويقولون :

هذا طهور ، مكان الختان ، فإذا فعلو ذلك ، صار نصرانياً حقاً ، فأنزل الله هذه الآية[١] .

التفسير والبيان :

علّم الله المؤمنين وأمرهم في الآية السّابقة (١٣٦) أن يقولوا : آمنّا بالله وكتبه ورسله ، لانفرّق بين أحد من رسله وكتبه ، وأمرهم أيضاً في هذه الآية أن يقولوا : صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحقّ والإيمان بماجاء به الأنبياء ، وهل هناك صبغة أحسن من صبغة الله الحكيم الخبير ؟! ومن صبغة الإسلام ، فالله هو الذي يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم به من أدران الشرك ، فلانتبع صبغة أحد من الزعماء والأحبار ، فهي صبغة بشرية مزيفة تفرق الدين الواحد ، وتمزق الأمة أحزاباً متنافرة .

ونحن لله الذي أنعم علينا بالنعم الجليلة التي منها نعمة الإسلام والهداية عابدون لانعبد سواه ، ومخلصون وقانتون ، فلانتخذ الأحبار والرهبان أرباباً يزيدون في الدين وينقصون ، ويحللون ويحرّمون ، ويمسحون من النّفوس صبغة التوحيد ، ويضعون فيها صبغة الشرك بالله .

ثم أمر الله نبيّه بأن يقول لأهل الكتاب : أتجادلوننا في دين الله ، وتدّعون أن الدين الحقّ هو اليهودية والنصرانية ، وتتأملون بها دخول الجنة ، وتقولون أحياناً : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا من كانَ هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة ١١١/٢] ، وأحياناً تقولون : ﴿ كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ [البقرة ١٣٥/٢] .

ومن أين لكم هذه الدّعاوى وادّعاء الهداية والقرب من الله دوننا ، والله ربّنا

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٤١/١ ، أسباب النزول للواحدي : ص ٢٢ ، تفسير القرطبي : ١٤٤/٢

وربّكم وربّ العالمين ، لافرق بيننا وبينكم في العبودية لله ، فهو خالقنا وخالقكم ، ومالك أمرنا وأمركم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم الحسنة والسيئة ، والله يجازي كل إنسان بعمله ، فلاتفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح ، أما أنتم فقد اعتمدتم على أسلافكم الصالحين ، وزعمتم أنهم شفعاء لكم ، وأما نحن فنعتمد على إيماننا وعملنا ، ونحن لله مخلصون في تلك الأعمال ، لانقصد بها إلا وجهه ، فكيف تدّعون أن لكم الجنة والهداية دون غيركم ؟!

وكيف تقولون : إن اختصاصكم بالقرب من الله دوننا هو من الله ، أو تقولون : إن امتيازكم باليهودية أو النصرانية التي أنتم عليها هو لأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط الأنبياء كانوا يهوداً ، أو كانوا نصارى ، فأنتم مقتدون بهم ؟ وهذا ادّعاء كاذب ، فإن هذين الاسمين إنما حدثا فيما بعد ، فما حدث اسم اليهودية إلا بعد موسى ، وماحدث اسم النصرانية إلاّ بعد عيسى ؟

والمراد إنكار ادّعاء الطرفين وتوبيخهم على كلا الأمرين ، وهل أنتم تعلمون بالمرضي عند الله ، أم أن الله أعلم بما يرضيه وما يتقبله ؟ لاشك أن الله هو العليم بذلك دونكم ، وقد ارتضى للناس ملّة إبراهيم ، وأنتم تعترفون بذلك ، وكتبكم تصدقه قبل أن تجيء اليهودية والنصرانية ، فلماذا لاترضون هذه الملّة ؟

ولاأحد أشدّ ظلماً ممن يكتم شهادة ثابتة عنده من الله ، وهي شهادته تعالى لإبراهيم ويعقوب بالحنيفية المسلمة ، والبراءة من اليهودية والنصرانية ، وشهادته تعالى المثبتة في كتاب الله التي تبشر بأن الله يبعث في الناس نبيّاً من بني إخوتهم ، وهم العرب أبناء إسماعيل .

قال الزمخشري : ويحتمل معنيين :

أحدهما ـ أن أهل الكتاب لاأحد أظلم منهم ؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة ، وهم عالمون بها .

والثاني ـ أنّا لو كتمنا هذه الشهادة ، لم يكن أحد أظلم منّا . وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنّبوة في كتبهم ، وسائر شهاداته[١] .

وليس الله غافلاً عن أعمالكم ، فهو محصيها ومجازيكم عليها ، وفي ذلك وعيد وتهديد ، عقب التقريع والتوبيخ .

تلك جماعة الأنبياء لها ما كسبت من الأعمال الحسنة ، ولكم ما كسبتم من العمل الحسن ، ولا يسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمل نفسه ، فلا يضره ولا ينفعه سواه ، فأنتم لا تسألون عن أعمال السابقين ، وهم لا يسألون عن أعمالنا ، تلك قاعدة الأديان التي أقرتها العقول ، وهي المسؤولية الشخصية أو الفردية ، كما قال تعالى : ﴿ ألا تزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ، وأنْ ليسَ للإنسانِ إلاّ ما سعى ﴾ [النجم ٥٣/٣٨ ـ ٣٩] . كرّر الحقّ سبحانه هذه القاعدة وهذه الآية بمناسبات متعددة ، فقد ذكرت في الآية السابقة (١٣٤) للمبالغة عما يفتخرون به من أعمال الآباء ، والاتّكال على الماضي ، وهذا شأن الخامل الضعيف الذي ينظر إلى الماضي ، ويتكاسل عن المستقبل .

وكرر الله أيضاً قوله في مواطن كثيرة : ﴿ وما الله بغافلٍ عمّا تعملونَ ﴾ لتأكيد الجزاء والحساب ورصد الأعمال ، وذلك هو العدل المطلق بين الخلائق ، قال أبو حيان : ولا تأتي الجملة إلاّ عقب ارتكاب معصية ، فتجيء متضمنة وعيداً ، ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى[٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

نبذ الإسلام كلّ الصّور والهياكل والطقوس الفارغة كالمعمودية عند النصارى ونحوها ، وأعلن بكل صراحة أن المعول عليه هو ما فطر عليه النفوس من الإقرار

---

(١) الكشاف : ٢٤٢/١

(٢) البحر المحيط : ٤١٦/١ ، ط الرياض .

بوحدانية الله ، وإخلاص العمل لله ، وحبّ الخير والاعتدال في الأمور ، كما قال سبحانه : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها ، لاتَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذلكَ الدِّينُ القيِّمُ ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلمونَ ﴾ [الروم ٣٠/٣٠] .

وإن روح الدّين التوحيد ، وأساسه الإخلاص ، وهذا مادعا إليه جميع الأنبياء ، وجدد الدعوة إليه محمد ﷺ ، فدعوته أو شريعته مكملة لدعوة وشريعة إخوانه النبيين والمرسلين .

أما الدعاوى الرخيصة ، والأكاذيب المفتراة ، والأماني التي لاتعتمد على برهان ، مما صدر من اليهود والنصارى ، فكل ذلك باطل بالحجج الثلاث التي دحض بها القرآن كل ماذكر وهي قوله : ﴿ وهو ربُّنا وربُّكم ﴾ [البقرة ١٣٩/٢] ، وقوله : ﴿ أمْ تقولونَ : إنَّ إبراهيمَ وإسماعيل ﴾ [البقرة ١٤٠/٢] ، وقوله : ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمنْ كتمَ شهادةً عندهُ منَ اللهِ ﴾ [البقرة ١٤٠/٢] .

ولاتكون النجاة بالاعتماد على أعمال الآخرين من الأسلاف وغيرهم ، ولاعلى شفاعة الصالحين دون انتفاع بهديهم وسنتهم ، وإنما السعادة والنجاة بالعمل الصالح . وأساس الصلاح إخلاص العبادة لله ، وحقيقة الإخلاص : تصفية الفعل عن مراءاة المخلوقين .

وقد أكّدت هذه الآيات أمرين عظيمين جداً هما :

الأوّل ـ أن المسؤولية الشخصية أساس الحساب ، ومناط الجزاء والعقاب ، وهذا ماتفاخر به الشريعة الإسلامية التي جاءت ناقضة لأعراف الجاهلية عند العرب والرومان من توجيه المسؤولية لغير الجاني الحقيقي .

الثاني ـ أن أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بعملهم وكسبهم ، فغيرهم من الناس العاديين أحرى وأولى .

انتهى الجزء الأول

فهرس

الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
خطة البحث	٩
بعض المعارف الضرورية المتعلقة بالقرآن	١٣
أولاً ـ تعريف القرآن وكيفية نزوله وطريقة جمعه	١٣
ثانياً ـ طريقة كتابة القرآن والرسم العثماني	٢٤
ثالثاً ـ الأحرف السبعة والقراءات السبع	٢٦
رابعاً ـ القرآن كلام الله وأدلة الإثبات بوجوه الإعجاز	٢٨
خامساً ـ عربية القرآن وترجمته إلى اللغات الأخرى	٣٤
سادساً ـ الحروف التي في أوائل السور ـ الحروف المقطعة	٣٨
سابعاً ـ التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في القرآن	٣٩
فوائد في عدد الأجزاء والسور والآيات وأنواعها	٤٣
الاستعاذة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم	٤٤
البسملة : بسم الله الرحمن الرحيم	٤٦
أمل ودعاء وغاية	٤٩
الجزء الأول	٥١
سورة الفاتحة	٥٣
ما اشتملت عليه السورة	٥٣

الموضوع	الصفحة
أسماؤها	٥٣
فضلها	٥٤
اللغويات (الإعراب ، البلاغة ، المفردات اللغوية)	٥٥
آراء العلماء في الجهر والإسرار بالتأمين	٥٧
التفسير والبيان	٥٨
فقه الحياة أو الأحكام	٦٢
سورة البقرة	٦٨
ما اشتملت عليه السورة	٦٨
سبب التسمية	٧٠
فضلها	٧١
صفات المؤمنين وجزاء المتقين	٧١
صفات الكافرين	٧٦
صفات المنافقين	٧٩
إيراد الأمثال للمنافقين	٨٩
الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها	٩٤
تحدي الجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن	٩٩
جزاء المؤمنين العاملين	١٠٤
فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن	١٠٨
مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسماء	١١٦
استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات	١٢٢
التكريم الإلهي السامي لآدم بسجود الملائكة له	١٣٢
آدم وحواء في الجنة وموقف الشيطان منهما	١٣٦

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الموضوع	الصفحة
قصة آدم عليه السلام	١٤٤
العظة من قصة آدم عليه السلام	١٤٦
ما طلب من بني إسرائيل	١٤٧
نماذج من سوء أخلاق اليهود	١٥٣
نعم الله تعالى العشر على اليهود	١٥٨
تتمة النعم العشر على بني إسرائيل	١٦٤
مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم	١٧٢
عاقبة المؤمنين بنحو عام	١٧٦
بعض جرائم اليهود وعقابهم	١٧٩
قصة ذبح البقرة	١٨٥
قسوة قلوب اليهود	١٩٣
استبعاد إيمان اليهود	١٩٥
تحريف أحبار اليهود وافتراءاتهم	٢٠١
مخالفة اليهود المواثيق	٢٠٧
بعض حالات مخالفة اليهود الميثاق	٢١٣
موقف اليهود من الرسل والكتب المنزلة	٢١٨
كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء	٢٢٣
تكذيب ادعائهم الإيمان بالتوراة	٢٢٦
حرص اليهود على الحياة	٢٢٩
موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسل	٢٣٢
كفرهم بالقرآن ونقضهم العهود	٢٣٧
اشتغال اليهود بالسحر والشعوذة والطلاسم	٢٤١

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الموضوع	الصفحة
حكم السحر	٢٤٩
الفرق بين معجزات الأنبياء عليهم السلام وبين السحر	٢٥٠
أدب الخطاب مع النبي ﷺ ومصدر الاختصاص بالرسالة	٢٥٤
إثبات نسخ الأحكام الشرعية	٢٥٨
وقوع النسخ	٢٦٣
أنواع النسخ	٢٦٥
موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفية الرد عليه	٢٦٩
رأي كل فريق من اليهود والنصارى في الآخر	٢٧٣
ظلم مانع الصلاة في المساجد وصحة الصلاة في أي مكان	٢٧٨
حكم الخطأ في الاتجاه لغير القبلة	٢٨٣
صلاة النافلة على الراحلة	٢٨٣
الصلاة على الغائب	٢٨٤
المقصود بوجه الله في القرآن والسنة	٢٨٤
افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله والمطالبة بتكليبه الناس	٢٨٥
التحذير من اتباع اليهود والنصارى	٢٩٣
تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة	٢٩٩
اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام وفضائل مكة	٣٠١
الصلاة على ظهر الكعبة	٣١١
بناء البيت الحرام ودعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام	٣١١
سفاهة من يرغب عن ملة إبراهيم عليه السلام	٣١٦
إبطال دعوى اليهود أنهم على دين إبراهيم ويعقوب عليهما السلام	٣٢٠
صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبودية لله تعالى	٣٢٧
فهرس الجزء الأول	٣٣٣